

عَبْدُ اللَّهِ كُنُونُ

الوصف والرحمان

عبد الله كنون

العصف والريحان

1969

تطوان

حقوق الطبع محفوظة - للمؤلف

مقدمة

المقالة التى تتضمن فكرة ما او نقدا او تصويرا لحالة من الحالات هى مجهود عقلى بذل صاحبه فيه من وقته ومقدرته الادبية ما لا يحق انكاره.

وكذلك البحث ولو كان صغيرا فانه يقتضى تفكيراً عميقاً ومراجعة للمصادر قبل صياغته النهائية وبذلك يكلف كاتبه اكثر مما تكلف المقالة من زمن وطاقة.

والاعمال من هذا القبيل تكون ثروة أدبية طائلة، لان هذا الفن من الكتابة نما فى العصر الحديث نموا كبيرا وتناول من شؤون الثقافة والفكر وقضايا الادب والاجتماع ما شذ عن امهات الكتب واهم الدراسات الخاصة بهذه المواضيع. وانا إذ أقول هذا القول اعنى المقالات التى تتسم بسمة الجدة والابتكار، والابحاث الرصينة يتوخى اصحابها منها اضافة شىء ولو بمقدار حبة رمل إلى صرح الفكر الانسانى الجبار.

اما المقالة التافهة والبحث المأخوذ من غيره فان الزمن الذى لا يبقى الا على الصالح النافع، كفىل بيان يعرفهما قدرهما ويرمى بهما جفاء.

فالذين ينتجون أدبا من هذا النوع معذورون اذا هم عنوا به
وجمموه فى كتاب انقاداً له من الضياع وحرصاً على تصميم فائدته،
لان ما بذلوا فيه من ذات انفسهم لم يكن بالقليل. وقلت انهم
معذورون وحقى ان اقول انهم مشكورون.

ولقد سبق لى ان نشرت ثلاث مجموعات مما يندرج فى هذا
السلك هى على التوالى: التعاشيب، وواحة الفكر، وخل وبقل،
وكان لها اثرها فى إثراء حياتنا الفكرية واخصاب انتاجنا الادبى،
بدليل اعتادها من غير واحد من الباحثين وتقصى اثرها من
ناشئة المتأدبين.

وهذه مجموعة رابعة اطلقت عليها اسم العصف والريحان
ايدانا بان ما تحويه ليس كله فى الدرجة التى وُصفت من الاصاله
والابداع ولكنها لا تنتفى عنها صفة الفائدة والنفع، فان من العصف
ما هو ما كول.

وبديهى فى مثل هذه المجموعات انها لا تتناول موضوعا واحدا
وانما تضم شتى الافكار فى الفن والادب والنقد، فهى ليست كتبا
ذات تصميم ومنهاج موحد، وان كان تنوع مضمونها لا يسلبها
اسم كتاب.

ولعل بعضا منها يرقى الى ان يتضاد امامه العشرات من
الكتب والمؤلفات الموضوعية. الخاصة، فى حين ان بعضها الآخر لا يعلم
القارئ. فائدته كالى كتاب مصمم مدروس. وابدأ فى الانتاج القديم
بكتاب الامتاع والمزانة لآبى حيان التوحيدي حتى تصل الى كتاب

الكشكول للبهاء العالمى فانك تجد ان ترائنا الفكرى لا يتم تمثله
بغير هذا الصنف من الكتب ولا يستغنى عنها فى تقويمه بحال.

واما فى الانتاج العصرى فان مجموعات المقالات الادبية التى
صدرت لاعلام الكتاب من رواد النهضة الحديثة هى من الكثرة بحيث
تمثل اهم جانب من ثقافة هؤلاء الكتاب، وان احدا لا يستطيع ان
يتصور ما بلغه الفكر العربى من النضج والتفتح على الحياة الجديدة
والحضارة العصرية، وخاصة فيما يتعلق بتطوير اللغة وجعلها
مسايرة للتقدم العلمى، اذا لم يتصفح هذه المجموعات ويطلع على ما
تحويه بين طياتها من انتاج ادبى رائع.
وانى لارجو ان تكون هذه المجموعة مما تمت الى مجموعات
اولئك الاعلام ولو باوهى الاسباب.

قصة الادب المغربى فى سطور

ساير موكب الادب فى المغرب مواكبه فى الاقطار العربية الاخرى، من لدن الفتح الاسلامى الى الآن، ولئن اغفل كثير من مؤرخى الادب العربى تسجيل هذه الحقيقة، فانهم لم يستطيعوا ان يغمضوا اعينهم عن المشاركة الفعالة التى قام بها افراد عديدون من المغرب فى بناء صرح المدنية العربية، بما لها من مقومات فكرية وتجارب علمية. وحسبنا ان نذكر ان الجغرافى العربى الوحيد الذى ترك لنا اثرا علميا فى الجغرافية لم يكتب منله بعد (بطليموس) اليونانى، كان عالما من المغرب وهو الادريسى الشهير، فاذا اضفنا اليه الرحالة العالمى ابن بطوطة كان اهم ما يمتاز به التراث العربى فى هذا الصدد، منشأ من المغرب، وفى علوم الطب، والكيمياء، والطبيعة والرياضيات، حسبنا ان نذكر اسم ابى الحسن المراكشى الذى نجد اسمه - مع الاسف - معروفا عند الغربيين اكثر من ابناء جلدته العرب - وكذلك ابن البناء العددي الذى له فى الحساب والجبر والفلك مؤلفات لبثت عهودا طويلة مما يعتمد عليه فى دراسة هذه العلوم باوربا قبل المغرب، والبلاد العربية كافة ومثلهما ابن الياسينى والجادرى ويوسف ابن شمعون والجائى والجزنائى والبعقلى وابو القاسم

الوزير والفول الفشتالى فى كثيرين غيرهم من الاطباء والتبايعين،
والمهندسين والفلكيين.

اما فى علوم الفقه والحديث وغيرهما من اصول الثقافة الاسلامية
فان احدا من اصحاب المؤلفات فى طبقات علماء الاسلام لم يمكنه ان
ينسى جهودا امثال دراس ابن اسماعيل، وابى عمران الفاسى، وابى
محمد الاصيلى، والقاضى عياض، وابن الحاج العبدري، وابن رشيد
الفهرى، وابى الحسن الصغير، وابن الشاط، وزروق وابن غازى
 وغيرهم كثير، وفى علوم العربية نبغ ابو موسى الجزولى صاحب
الكراسة ذات الشهرة الطائرة فى علم النحو، وابن معطى صاحب
اولافية فى النحو التى نسج ابن مالك الفيته على متوالها وابن آجروم
صاحب المقدمة التى ما لبثت حتى الآن من كتب الدراسة الاولى لعلم
النحو فى العالم العربى والاسلامى الذى اعطى اسمه للقواعد
النحوية ذاتها. فكثيرا ما قيل الآجرومية وعنى بها النحو.

وفى متن اللغة العربية يكفى ذكر اسم مالك بن المرحل، وابن
الطيب اللغوى، الذى صار اسمه مقرونا بالفيروزبى صاحب
القاموس والزبىدى شارحه ونظرائهما من اساطين المؤلفين فى
متن اللغة.

اما فى التاريخ فقد اعطى المقرب اسماء عديدة برزت من بين
المؤلفين فى التاريخ العام فضلا عن تاريخ المغرب وناهيك بالمراكشى
صاحب المعجب، وابن عذارى صاحب البيان المغرب وابن ابى ذرع
صاحب القرطاس واكنسوس والزىانى وغيرهم.

وذكرنا لهذه الاسماء اللامعة في غير الثقافة الادبية خاصة. اما هو اشارة الى تلك المساهمة التي المعنا اليها من ابناء المغرب في الحياة الفكرية العربية عامة، على ان الادب بمدلوله العام يتناول جميع فروع المعرفة وسائر ضروب التفكير فاذا كان المغرب يتوفر على رجال من هذا الطراز في العلم العام. فما بالك بمن لم يبلغ مرتبتهم ولم تجاوز شهرتهم حدود بلادهم.

اما في الكتابة والشعر والفنون الادبية بوجه خاص فقد نبغ من ابناء المغرب في ذلك، الشاعر ابن جبوس، والكاتب ابو جعفر بن عطية، وابو العباس الجراوي، صاحب كتاب الحماسة المغربية الذي يتحدث عنه ابن خلكان في وفيات الاعيان، ويقول إنه عند المقاربة يقوم مقام حماسه ابي تمام، ونبغ من الشعراء الامراء ابو الربيع سليمان الموحدى له ديوان شعر مخطوط يوجد في مكتبة الاسكوريال وفي غيرها من المكتبات المغربية (1)، كذلك نبغ من الشعراء ابن عبدون المكناسي وميمون الخطابي ومالك بن المرحل الذي يعد اكبر شعراء المغرب وله مؤلفات ادبية كثيرة، وابو العباس العزفي وابو فارس الملزوزي والجزنائي وابن جابر المكناسي، وعبد العزيز الفشتالي الكاتب الشاعر المؤرخ، وابن زاكور، ومنتخب ديوانه مطبوع، واليوسي، وديوانه مطبوع كذلك، وابن الطيب العلمي صاحب كتاب الانيس المطرب على نسق قلائد العقيان، وابن النون صاحب قصيدة الشمسية في الادب وهي مطبوعة وغيرهم.

(١) نشر اخيراً بعناية جماعة من الاساتذة.

هذا نبأ الحركة الادبية فى المغرب عبر التاريخ، واذا اردت
استيفاء الخبر عن ذلك فليرجع الى كتاب النبوغ المغربى فى الادب
العربى .

واما فى الفترة الراحنة وهى ما نعبر عنه بالمعصر الحديث،
فان الادب اخذ يتطور شكلا وموضوعا اسوة بما حدث فى الشرق
العربى، فلم يعد قاصرا على القصيدة الشعرية والرسالة النثرية او
المقامة والخطبة وما الى ذلك، بل استحدثت فيه اشكال عديدة
وابواب جديدة من اهمها فى الشعر المسرحية وفى النثر المقالة
والاقصوصة، والقصة، كما ان الموضوعات التى كان يتناولها الشاعر
والنثر لم تبق هى موضوعات المدح والفرزل وما الى ذلك فى
الشعر، والوصف والمطارحات الادبية ونحوها فى النثر، وانما اتسع
المجال امام الشاعر والكاتب واصبح الاديب صاحب زسالة سامية
ومكانة مرموقة فى المجتمع بصفته احد قادة الفكر ورائدا من رواد
النهضة فى العالم العربى.

وهكذا لم يعد الادب فنا مسخرا لخدمة الرؤساء والملوك ولا
تزجية للوقت عند من لم ينزل بادبه لمستوى الشعراء المادحين
والكتاب المتكسبين بل صار دعوة ومذهبا وتعبيرا صادقا عن الحياة
والواقع الاجتماعى، ومن الحق القول بان تطور مفهوم الادب عندنا
انما حصل بتاثر النهضة الادبية التى قامت فى الشرق العربى فى
بداية هذا القرن، اذ انه قبل أن يتصل ابناء المغرب بالثقافة الغربية
ويطلعوا عن طريق المدرسة الفرنسية على المذاهب الحديثة،

كانت الطليعة الاولى من ادباء المغرب تتصل عن طريق الصحافة العربية والمطبوعات الصادرة في البلاد العربية وخاصة منها مصر بالانتاج الادبي الجديد لاعلام النهضة في العالم العربي، وتتأثر به وتحاول النسيج على منواله، وكان من هؤلاء من له آثار طيبة في هذا الميدان كالشاعر المرحوم محمد السليمانى والاديب الكبير احمد بن المواز والكاتب المؤرخ محمد بوجندار وسواهم من طلائع النهضة الادبية المتوفين ومن الاحياء احمد النمشى ومحمد الجزولى ومحمد كنون وعبد بن اليمنى الناصرى وهو اخصبهم قريحة وأكثرهم انتاجا.

وكما كان الحال في الشرق العربي اول النهضة الحديثة، فان الشعر السياسى الوطنى هو اول ما ظهر من الوان التجديد فى موضوعات الادب وذلك ان طائفة من شباب الجيل الناشئ فى عهد الحماية لما رأوا البلاد ترزح تحت نير الحكم الاجنبى اخذتهم العزة الوطنية والحمية العربية، فصاروا يفتنون شعراً كله ثودة على الواقع الاليم ويدعون الى مقاومة التدخل الاجنبى وتذكير الشعب بمجده وتاريخه العظيمين مما ادى الى اذكاء الوعى القومى فى نفوس الجماهير الشعبية وشنها غارة شعواء على الاستعمار واعوانه حتى تخلصت البلاد من برائنه وانتفضت انتفاضتها الخالدة التى اعادت الى المغرب حريته واستقلاله، ونذكر فى طليعة هذه الطائفة من الشعراء الوطنيين علال الفاسى والمختار السوسى والمكى الناصرى والشهيد محمد القرى، ثم تلتها طائفة اخرى قالت الشعر الوطنى والاجتماعى ولم تقصر فى ميادين الشعر الاخرى ولا سيما الشعر

العاظمى وهذه امثال عبد الرحمن حجي. وعبد القادر حسن الذي كان اول شاعر مغربي حديث طبع له ديوان، ومحمد مكوار الذي طبع له هو الآخر ديوان شعر وعبد المالك البلغيثي وله ايضا ديوان مطبوع وعبد القادر المقدم وله كذلك ديوان مطبوع وعبد المجيد بن جلون (I) وعبد الكريم بن ثابت (I)، وعبد الحلوى (I) وعبد الفنى سكيرج وادريس الجاى، وعبد الوهاب بن منصور، وابو بكر اللمتوني، وناصر الكتاني، وحمام العراقي واحمد البقالي وعبد السلام العلوى ، وابراهيم الالفى، وعبد الرحمن الدكالى وعلى الصقلي، وادريس العلمى وغيرهم ممن لا يستطيع احصاءهم هنا هنا لضيق المجال. وان كان الامر الذى لاشك فيه ان منتخبات من اشعارهم تؤلف مجموعة ضخمة من الشعر الحديث فى المغرب الجديد.

على ان شأن النشر فى هذا العهد اعظم من الشعر والانتاج فيه اوسع بكثير من الانتاج الشعرى، وقد رافق النشر وتطوره ظهور الصحافة وتطورها، فظهرت فى الاول المقالة الاجتماعية ثم السياسية، وبتأسيس الصحافة الادبية ظهرت البحوث التاريخية واللغوية والاقصوصة والقصة، ثم ظهرت المؤلفات فى الموضوعات المختلفة، ومن المجلات التى كان لها انتشار وتأثير فى توجيه الحياة الفكرية مجلة السلام ورسالة المغرب، والثقافة المغربية والمغرب الجديد، ولسان الدين والارشاد الدينى والانوار والانيس، والمعرفة واخيرا مجلة دفوة الحق ورسالة الاديب، ومن كتاب هذه المجلات

(I) ظهر لكل واحد من هؤلاء الشعراء الثلاثة ديوان مطبوع.

السابقين واللاحقين الاساتذة محمد بن الحسن الوزانى، ومحمد داود، ومحمد بنونة، ومحمد الطنجي، وعبد الخالق الطريس، والمكي الناصري، وعلال الفاسي، وعبد العزيز بن ادريس، وسعيد حجي، وادريس الكتاني، وعبد الرحمن الفاسي، وعبد المجيد بن جلون، وعبد الكريم غلاب، وعبد الله ابراهيم، ومحمد القباج، ومحمد اباحيني، ومحمد المنونى، والتهامى الوزانى، وعبد الوهاب بن منصور، وابراهيم الكتاني، وعبد الهادي التازي، ومحمد التطواني، ومحمد عزيزان، ومحمد العربي الخطابي، والمهدي بنونة، ومحمد الحبابي، وعلال الجامعي، وحسن السائح، ومحمد الصباغ، وادريس بن جلون، وعبد العزيز بن عبد الله، وعبد الهادي بوطالب، وعبد القادر زمامة، ومحمد بن الحبيب، وقاسم الزهيري، وعبد القادر الصحراوي، ومحمد بن تاويت، واحمد زياد، وعبد اللطيف الخطيب، وغيرهم وغيرهم ممن لم تحضرني اسماؤهم الآن وقد امتاز على الخصوص بكتابة المقالة السياسية، عبد الخالق الطريس، ومحمد الوزانى، وعلال الفاسي، والمكي الناصري، وقاسم الزهيري، وعبد الهادي بوطالب، وبكتابة الابحاث الادبية والتاريخية محمد بن تاويت ومحمد الفاسي، وعبد العزيز بن عبد الله، وعبد الوهاب بن منصور، ومحمد القباج، ومحمد المنونى، ومحمد التطواني، وعبد القادر زمامة، وبكتابة المقالة الاجتماعية محمد بنونة، والتهامى الوزانى، وادريس الكتاني، وعبد الكبير الفاسي، وبكتابة القصة، عبد المجيد بن جلون، وعبد العزيز بن عبد الله، وعبد الرحمن الفاسي، وبالكثابة على الطريقة الرمزية محمد الصباغ، وبالترجمة عن الادب الاسباني على

المخصوص، عبد اللطيف الخطيب وامتاز من بين هؤلاء جميعا بكثرة
الانتاج والتأليف عبد العزيز بن عبد الله، وعلال الفاسي، ومحمد
داود، ومحمد المنوني، ومحمد المختار السوسي، والتهامي الوزاني،
وعبد المجيد بن جلون، ومحمد الصباع، وعبد الكريم غلاب.
ولم يظهر لحد الآن اديب ذو نزعة خاصة ولا ادب ينتمي لمذهب
من المذاهب الادبية المعروفة.

البيت في الشعر العربي

قرأت المقال المتمتع (I) الذي خطته يراعة الكاتبة مديحة مشرفية في موضوع البيت، مقارنة بين مدلوله اللغوي والاجتماعي عندنا وعند الغربيين، وبقدر اعجابي ببراعة الكاتبة في تحليل عناصر الموضوع، فقد توقفت عند بعض الاحكام التي اطلقتها اطلاقا مثل قولها: «وما اكثر الشعر الالمانى الذى يتغنى بالبيت او مرادف الوطن. وهذا المعنى الرفيع مفقود فى لغتنا، وخاصة فى استعمالنا اليوم» فالذى أعرفه ان الوطن كثيرا ما يستعمل بمعنى البيت او البلد الخاص، ومن قول العرب فى ذلك: الكريم يحن الى وطنه كما يحن النجيب الى عطنه. والحديث الذى اوردته الكاتبة الفاضلة وهو قول النبى (ص): حب الوطن من الايمان، ذهب به بعض اهل الاشارة الى ان المراد منه المدينة المنورة، قائلين: انها وطن كل مومن. وبكل وجه لم يحمله احد قبل اليوم على الوطن بمعناه الشائع وانما حملوه على البلد الخاص او بيت الانسان لما يحويه من اهل وولد؛ هم آخرىاء بالحب. ومن المحقق ان ابن الرومى انما اراد احد هذين المعنيين فى ابياته الخالدة التى يقول فيها:

(I) فى مجلة «الثقافة» التونسية، العدد الثانى.

ولى وطن، «اليتُ» ان لا ابيعه وان لا ارى غيرى له الدهر مالكا
 عمرت به شرح الشباب منعما بصحبة قوم اصبحوا فى ظلالكا
 وحسب اوطان الرجال اليهم ما رب قضاها الشباب هنالكا
 اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنسوا لذلك
 وقد الفتة النفس حتى كانه لها جسدان بان غودر هالكا

ومن هذا الواد البيت السائر:

بلاد بها نيطت على تماضى واول ارض مس جلدى ترابها
 وينسب لاديب العربية ابى عثمان الجاحظ رسالة بعنوان
 الحنين الى الاوطان، كل ما فيها مما يسبح فى هذا الفلك. وبه يتبين
 ان ما بين الوطن والبيت او البلد الخاص فى الاستعمال العربى ليس
 بعيدا عما بينهما فى الاستعمال الغربى، او الالمانى، خاصة، من
 الارتباط المكين.

وتاسفت السيدة مديحة على خلو أدبنا القديم من الاهتمام
 بالبيت والعائلة والوطن، كما يهتم أدب القرييين بذلك على حسب
 ما بينته فى مقالها. والواقع ان ادبنا القديم لم يخل من الاهتمام بهذه
 المعانى الجميلة والمشاعر النبيلة. فالشعر الوطنى كانت له فى
 الاندلس دولة ورجال، وذلك لان الاحوال والظروف السيئة التى
 عاشها هذا الوطن الحبيب بعد ذهاب عزه وانهار دولته مكنت لهذا
 الشعر من الظهور على نحو ما اشرنا اليه فى مقال نشر قديما فى
 مجلة الرسالة المصرية وضمناه العديد من الامثلة على نموّ عاطفة
 الوطنية عند الاندلسيين وتعبيرهم عنها بما لا يقل عن تعبير الشعراء
 الوطنيين المحدثين.

والشعر الذى يتغنى بالبيت والعائلة بمفهومهما الاجتماعى هو
 أيضا كثير، عند الشعراء البدو والحضرين على السواء. وقد اشار
 المقال الى تلخيص معانى البيت فى اللغة واطلاقاته المختلفة فحصرها
 فى المسكن مبنيا او غير مبنى، وفى الشرف والمحتد. ولاشك ان
 الاطلاق الثانى هو من المعانى الاجتماعية وليس من الدلالات المادية او
 الخارجية التى بقيت كلمة بيت واقفة عندها فى لغتنا العربية. فقد
 سما العربى بتصور مفهوم البيت حتى جعله من المفاهيم الشعرية
 مستغلا هذا الاشتباه اللفظى بين بعض مواد بيت السكنى وكلمة
 شعر، واشترك مفردة بيت بين المدلولين فقال:

حسنت نظم كلام توصفين به ومنزلا بك معمورا من الخضر
 والحسن يظهر فى شيتين رونقه بيت من الشعر او بيت من الضمر

وما احسن قوله هنا «ومنزلا بك معمورا من الخضر» فكم يوحى
 من معان الجمال والانس واللفظ! - ولم يتجرد ابدوى اطلاقا من
 الشعور الانسانى العميق نحو البيت والاسرة وما يكتنفهما من معان
 وجدانية رقيقة، فاول بيت من كل قصيدة من قصائد الشعر الجاهلى،
 يكاد يكون مقصورا على التغنى بمنزل الزوجة او الحبيبة، بمعنى انه
 لا ينظر الى البيت نظرة مادية صرفا، وانما يستشعر ما يمثله من
 ذكريات وعهود هى قطع من النفس والحياة. فامرؤ القيس حين قال
 فى مطلع معلقته:

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول
 لم يذكر المنزل حتى ذكر الحبيب الذى هو روحه ومعناه.
 والمجنون عند ما قال بيتيه الرائعين:

امر على الديار ديار ليلى اقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا
لم يملك ان صرح بسر التعلق بالسكن وهو حلول الحبيب فيه.

وفى نظرنا ان البدوى حين يقف بالاطلال ويبكى عليها يكون
قد بلغ الغاية من الارتباط بالارض والوفاء للمنزل والبيت والحلة
والسكن الذى قضى به حقبة من حياته، فهو برغم التنقل الذى
تبعت عليه اسباب من عواقب الحرب وطبيعة المناخ لم ينس المكان
الذى يشهد ميلاد حبه او اجتماع اسرته وكان مسرحا لطفولته ومرتع
شبابه. ونحن نظلمه اشد الظلم حين نقول انه بعد ان يقف قليلا
على الاطلال فيبكي او يتباكى لا يلبث ان يتابع سيره وتصحى
الذكريات من نفسه لتحل مكانها ذكريات جديدة؟!!

يقول المتنبي فى مطلع احدى قصائده، وهو احق من مثل
مأثورات الشعر العربى وتقاليده:

لك يا منازل فى الفؤاد منازل افقرت انت ومنك اواهل

فعبّر عن الشعور الدفين الذى يحتفظ به العربى لمنازل احبته
وذويه بعد افقارها ودثورها بما لا مزيد عليه فى القوة والتأثير.

وهذه ميسون زوج معاوية لم تنسها حياة القصور والبذخ
والرفاهية فى ظلال دمشق، بيتها البدوى فى الفضاء الطلق وحياة
اهلها البادين ولم تفتأ تحن الى معهد طفولتها وحنبت غرسها ساكنة
شعورها الفياض فى ابياتها الشهيرة التمى كانت سبب فراقها
من معاوية:

احب الى من اكل الصنوف	لبيت تخفق الارواح فيه
احب الى من قصر منيف	واكل كسيرة فى كسر بيتى
احب الى من نقر الدفوف	واصوات الرياح بكمل فج
احب الى من لبس الشفوف	ولبس عباءة وتقر عينى
احب الى من قط السوف	وكلب ينبج الطراق حولى
احب الى من بغل زفوف	وبكر يتبع الاطفال صعب
احب الى من عالج عنيف	وخرق من بنى عمى ضعيف

فهل نطلب اكثر من هذا الوفاء لحياة البادية وبيتها المتواضع
وسائر معانى المجتمع البدوى الذى لم تعدل به الشاعرة كل انواع
العيش الرغد فى المدينة العاصمة وقصورها الشامخة؟؟ ونحب ان
نلفت النظر الى قولها: وكلب ينبج انطراق حولى، فهو وان كان
فى الظاهر خلاف ما درج عليه العرف العربى من التمدح بوداعة
الكلاب وعدم تعرضها للاضياف، فان الامر هنا يتعلق بشرف البيت
وخفارة الفتاة التى يقف الكلب حارسا امينا لها من الواغليين
والتطفلين. وهكذا تكون ميسون قد وصفت حياة بيتها اصدق وصف
ومن زاوية نظر نسائية تخالف نظر الرجال فى بعض الامور.

وينبغى ان الم هنا ولو العامة خفيفة بمعنى من معانى الحياة
البيتية المقدسة عند العرب وهى الجوار وما يستتبعه من التساند
والتضامن والبر والحرمة، وهو امر شهير لا خفاء به، ولكن اكثر
مظاهره اقترابا من اصول الاخلاق ولصوقا بالبيئة الاجتماعية هو
ما يتمثل فى الامتناع من اذى الجار واهل بيته وفى الاهتمام به

وابصال النفع اليه، فتجد عنقرة يقول معبراً عن حفظه لحرمة الجار:
واغضى طرفي ان بدت لي جارتى

حتى يوارى جارتى ماواها

ويقول شاعر آخر فى قوم يصفهم بحسن الجوار:

لعمري ما المجاور فى كليب بمقضى فى المحل ولا مضاع
ويحرم سرّ جارتهم عليهم ويأكل جارهم أنف القصاع

على ان من الشعراء من تعلق قلبه بجارته فبشها حبه او تناجى
بماطفته من غير ريبة ولا اخفار لذمة الجوار، ومنهم الذى يقول:
أجارة بَيْتَيْنَا ابوكِ غيور وميسور ما يترجى لديك عسير
وعلقمة الذى يقول فى وصف امرأة من عقائل النساء، وهو
من احسن ما قيل فى معناه:

تمشى الى بيتها من بيت جارتها مشى السحابة لا ريث ولا عجل

واللطائف من هذا القبيل كثيرة يطول تتبعها، وأنا لم اثبت
الا ما استحضرتة منها ساعة قراءة مقال السيدة مديحة مع عدم
الاستيعاب، ولكن المهم الذى لا يجوز اغفاله هو المعنى الاكثر ارتباطا
عند العربى بحياة البيت سواء فى البادية او الحاضرة، واعنى به
إكرام الضيف وانزاله والاحتفاء به، فهذا الامر ما تميزت به البيوت
العربية ولا يستطيع الغرب ولا ادبه ان يجارى فيه الادب العربى
او يقاربه لا فى القديم ولا فى الحديث: ومعلوم ان لكل ادب سمته
ولكل تراث طابعه، فاذا اعتبرنا هذا الامر من اخص المعانى التى
امتازت بها بيوتنا وطبعت حياتنا الاجتماعية بطابع لا يمحو من

الكرم والجود وحسن المعاملة للضيف ولطف الماشرة للنزول مع
مشاركتنا في المعاني الاخرى التي معنا اليها فقد رجحت كفتنا في
اضفاء حلة من المعاني الاجتماعية والمشاعر الانسانية على البيت لا
توجد في البيت الغربى قطعا. يقول ابن هرمة مفتخرا باقامة بيته
على قارة الطريق وقيامه بحق ذلك:

أغشى الطريق بقبتي ورواقها واحل في نشز الربا فأقيم
ان امرا جعل الطريق لبيته طنبا ، وانكر حقه للثيم
ويقول غيره:

وما انا بالساعى الى أم عاصم لأضربها انى اذن لجهول
لك البيت! الا فينة تحسنينها اذا حان من ضيف على نزول
ويقول آخر:

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ضمى اليك رجال القوم والقربا
فى ليلة من جمادى ذات اندية لا يبصر الكلب فى ظلماتها الطنبا
اما حاتم الطائي فيقول مخاطبا ماوية زوجه:

يا ابنة عبد الله وابنة مالك
ويا ابنة ذى البردين والفرس والنهد
اذا ما صَنَعْتَ الزاد فالتمسى له
اكبلا، فانى لست 'ءاكله وحمدى

اخا طارقا او جار بيت فائسى
أخاف مذمات الاحاديث من بعدى
وانى لعبد الضيف ما دام ثاوبا
وما فى الا' تلك من شيم العبد

واظن ان هذا الحوار الجميل بين الشاعر وزوجته لما يصور الحياة البيتية عند العربى باجمل صورة ويظهرنا على ما كانت - ولا تزال - تتصف به من سمو ونبل وشرف فضلا عن بنائها على التعاون والمحبة والتقدير (I). وقد خُص هذا الوصف للعرب جيلا بعد جيل وتوارثه الابناء عن الاباء فكان مما يميز بيت العربى عن سواء فى مشرق او مغرب، وغير السراة العرب فى العواصم والمدن الكبرى على الاعلان عنه فى واجهات بيوتهم بنقش هذين البيتين اللذين صارا على كل لسان:

الا يا دار لا يدخلك حزن ولا يفدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار انت لكل ضيف اذا مما ضاق بالضيف المكان

هذه بعض المعانى التى اكتنفت مفهوم البيت فى الادب العربى القديم وهى معان سامية لها ارتباط بالنواحي الاجتماعية والانسانية والحلقية، ولم ندرج فيها ما يتعلق بالشرف والمحتد، وهو باب واسع وشئ لا ينحصر، لان الكاتبة الفاضلة لم تغفل ذكره بل جعلته هو المعنى الثانى الذى ترجع اليه اطلاقات البيت فى العربية بعد المسكن والمنزل، وعلى كل حال فهو مدلول معنوى لا مادى كما قلنا آنفا، والسيدة مديحة تقول بذلك وان لم تستفصل فيه، فيكفيها الاتفاق عليه عن المداولة بشأنه. وتحياتي لها وللقرء الكرام.

(I) يلاحظ كيف يخاطب حاتم زوجه ويعدد مناقب آباءها وأجدادها .

انور الجندي مؤرخ الادب العربي المعاصر

مهما قيل فى توجيه النظرية الاقليمية فى الادب والتنويه بالمذاهب المتفرعة عنها فان الذى نراه هو ان الادب العربى يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد. وان انصار الاقليمية ينهزمون كل يوم، فى ميدان الادب، وفى ميدان السياسة على السواء، لان امر العرب الى وحدة وكلمتهم الى جمع، وان جد المستعمرون واذنابهم فى تفرقتهم والتضريب بينهم.

ولقد كنا وما زلنا نعتقد ان الادب العربى وحدة لا تتجزأ، وان ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هى وليدة تفاعل افكار الإدياء العرب والتيارات الفكرية الحديثة التى طرأت على الادب العربى بواسطة الترجمة عن الآداب العالمية والاطلاع على الثقافات الاجنبية المختلفة، وليس شئ منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم ان يعلل ذلك ولا نستدل الا بان أى مذهب او اتجاه ظهر فى بلد من بلاد العرب، لا يلبث ان يتردد صدها فى بقية هذه البلاد وينمو ويزدهر على يد

ابناء العرب كافة، كما كان الامر فيما مضى حين كانت طريقة المتنبي التى ظهرت فى المشرق تجد من ابي القاسم بن هانيء راعيا لها فى الاندلس حتى سمي بمتنبي المغرب، وكان البحترى يتمثل فى ابن زيدون، والمعري وابن شهيد، هذا فى رسالة التوابع والزوابع وذاك فى رسالة الففران، يكادان يردان من نبع واحد. ولما ظهر التوشيح فى بلاد المغرب وراجت سوقه بين ادباؤها لم يعتم ابنساء المشرق ان اصطنعوه واستكثروا منه حتى ألفوا فيه كتباً مخصوصة.

كذلك كان الامر فى الوقت الحاضر، فما ان ظهر بعد الحرب العالمية الاولى ما يسمى بالادب المهجرى من انتاج الادباء اللبنانيين والسوريين المستوطنين فى الأمريكتين حتى انتشر فى العالم العربى وقلده الادباء هنا وهناك وفى فجر ظهوره وانتشار آثاره الاولى لجبران ونعيمة وامين مشرق وغيرهم كان عندنا فى طنجة محمد الحداد يكتب بذلك الاسلوب ويضرب على تلك النغمة حتى تحسبه احد رواد ذلك المذهب والآن نرى انتشار ما يسمى بالشمع الحر فى العالم العربى وتجاوب دعااته وتحمسهم لبدعتهم بحيث لا يخلو قطر من الاقطار العربية من حامل لرأية هذا المذهب، فكيف يكون ذلك الا اذا كان الادب العربى مظهراً لوحدة العرب ومادة عضوية فى تكوين هذه الوحدة .

ان الذين يفهمون هذه الحقيقة كثيرون، ولكن نشاط دعاة الاقلية كان يطفى عليهم ثم وقع الجزر فى مد هذه الطائفة فاخفت او كادت تختفى امام الشعور الفياض الذى يغمر الشعوب العربية

بوحدة تراثهم نتيجة لوحدة جنسهم ولفتهم وآمالهم وآلامهم وأمامى
الآن عمل من اضخم الاعمال التى تشهد لهذه الفكرة وتدعم هذا
الاتجاه، وهو ثلاثة مجلدات ضخام من تأليف الاديب المصرى المعروف
الاستاذ أنور الجندى، كل مجلد منها يؤرخ لناحية من نواحي النشاط
الادبى الذى قام فى بلاد العرب منذ فجر النهضة الحديثة الى الآن
فالها يتناول موضوع (المحافظة والتجديد فى النثر العربى المعاصر).
وثانيها يهتم بدراسة (المعارك الادبية) فى الشعر والنثر والثقافة
واللغة والقومية والحضارة فى العالم العربى الحديث وثالثها يختص
ببحث (الادب العربى الحديث) فى معركة المقاومة والتجعب من
المحيط الى الخليج. وهذه العناوين ليست دعاية فارغة بل هى واقع
وحقيقة يتلمسها القارئ، فى كل صفحة من صفحات هذه الكتب التى
لا تقل فى اصغرها عن خمسمائة صفحة.

ومن عرف نشاط الاستاذ أنور الجندى وما له من عشرات
المؤلفات فى مسائل الادب والتاريخ والفكر بعامة، يدرك مبلغ الاحاطة
التى لكتبه هذه بالشأذة والفاذة من المسائل التى تناولها فيها.

فالمجهود جبار لا يتأتى الا لجماعة من المختصين المنقطعين لهذا
النوع من التأليف لو كانوا هناك، ولكن واحداً من ذوى الهمم
العالية والصبر المنقطع النظر والفهم الصيق للاوضاع الفكرية
القائمة فى مختلف بلاد العرب التى تتداعى فيها الاتجاهات
والانظار، هو أنور الجندى استطاع ان يقوم بهذه المهمة الشاقة
وان يؤديها بمفرده على اتم وجه.

انها فى الحقيقة موسوعة ادبية تضامى فى قيمتها التاريخية بالنسبة للادب العربى الحديث تاريخ الادب العربى لبروكلمان الشهير، على أنها حسب برنامج الاستاذ المؤلف ما يزال لها ذبول طويلة تخرج بها فى عشرة مجلدات تتناول معركة التفريب فى الفكر العربى والصحافة السياسية فى الادب العربى المعاصر، والشعر العربى المعاصر والقصة العربية المعاصرة، ومعالم الادب العربى المعاصر بين الحربين الاولى والثانية ومعالمه بعد الحرب الثانية، وحقائق السياسة والفكر والاجتماع فى الامة العربية. وهو برنامج حافل نرجو للاستاذ انور الجندى ان تتاح له وسائل تحقيقه مع متمنياتنا له بدوام الصحة والعافية وانه لمحققه بحول الله.

بطاقة الزيارة

ليست بطاقة الزيارة من بدع هذا العصر، بل هي قديمة جدا. شعر الانسان منذ تحضره بالحاجة اليها فاستعملها على اشكال وانواع، واتخذ لها نماذج واوضاعا من شعر ونثر، ورسم ورمز وغير ذلك مما توحى به الظروف والملابسات المختلفة والمتغيرة بتغير الزمان والمكان، وان الادب العربي ليحدثنا احاديث شائقة عما كان يتخذه الشعراء والمحبون والاسرى والمقاتلون من وسائل ورسائل في هذا الصدد يتعرفون بها الى اصدقائهم ويتواعدون مع احبائهم ويسترفدون ويستنجدون، ومن هذه الرسائل ما يكون شطر بيت، وكلمة مفردة، واسما مُصَحَّفًا، وعلامة من العلامات فتؤدي المعنى المراد ويتصرف الصديق على صديقه ويوافي المحب حبيبته في الموعد المضروب وتستنقذ القبيلة اسيرها ويتوافد المحاربون الى ساحة القتال حسب الطلب الذي ادته البطاقة الصغيرة ذات المعنى الكبير.

ولعل اجمل هذه (البطاقات) هو ما كان يستعمله المحبون في البادية العربية لا يذان الحبيبة بوجودهم في الحى وضرب موعد للقاء، وكثيرا ما يكون غناء وترنما بابيات رقيقة من الشعر العاطفي، وانشادا ونشيدانا، وفي احاديث مجنون ليل الشئ الكثير من ذلك.

كما ان المولدين من الشعراء، وخصوصا فى العصر العباسى، كانوا يستعملون نماذج ظريفة من هذه البطائق فى زيارة احبائهم واستزاراتهم والتودد اليهم. وكان من ابرزهم فى الميدان ابو نواس والعباس بن الاحنف واسحاق بن ابراهيم الموصلى، وما كان يشجعهم على ذلك انه كان يقع من نفوس هؤلاء الاحبة الموقع الحسن ولا سيما ظريفات القيان اللاتى كن يساهمن بنصيب فى الادب الرفيع. ففى زيارة إحداهن لاسحاق استأذنت عليه بقولها :

يدخل محبوب على الباب واقف ؟

فكان من شدة فرحه بها وطربه لرؤيتها ان ظم فى ذلك شعرا وغناها به.

وليس مرادنا الآن ان نتبسط فى هذا الموضوع لان المقصود هو ذكر نموذج من هذه البطائق، كان مستعملا فى المغرب وهو يدل على ادب رفيع وذوق مهذب، وقد كان مطويا فى زوايا التاريخ ولولا الرحالة ابن رُشَيْد السبتي حدثنا عنه فى رحلته العامرة لما عرفنا عنه شيئا، على انه انما ذكره عرضا فى ترجمة ابى بكر ابن حَبِيش الاديب التونسى الكبير، وكان انشده لنفسه هذا البيت:

كتبت له بالباب خاء خديمه فصحفها بالفضل خاء حبيب

قال: (وكان سبب قوله لهذا البيت ما جرت به عادة الافريقيين (I) من ان الزائر اذا جاء منزل المزور فلم يجده به حاضرا، خط على الباب حرفا مفردا من اسمه يعرف به، وهذا عندهم امر

(I) يراد بالافريقيين هنا اهل المغرب الاوسط.

متعارف، فخط ابو بكر على باب بعض اصحابه، وذكر لى انه القاضى
ابو عبد الله بن يعقوب حاء مفردة ح هكذا من حبيش، فجاء صاحب
المنزل فعرفها فبادر اليه فقال ابو بكر انما كتبت حاء خديم فصفتها
انت حاء حبيب على حكم المداعبة.)

فهذا الكلام يدل على ان بطاقة الزيارة كانت معروفة مستعملة
عند اذياء المغرب فى القرن السابع ثم انهم تفتنوا فيها وابدعوا هذا
النوع من اختصار الاسماء حتى يدعوا للمزور مجالا واسعا للتذكر
والافتراض اى اصدقائه يكون هو الزائر الذى لم يجده، فيستعرضون
كل من فى اسمه ذلك الحرف المكتوب حتى يهتدوا الى المطلوب .

وقد تنشأ عن ذلك محاورات لطيفة ومخاطبات ادبية كما وقع
فى حكاية ابن حبيش هذه التى ذكرها ابن رشيد وكما وقع لابن
رشيد نفسه مع استاذة ابن حبيش هذا، وهو ما يحدثنا عنه بازاء
كلامه السابق.

قال: (ولقد جرى لى معه فى هذا ما يستغرب، وهو انى
خرجت يوما عن موضع سكنى ثم رجعت اليه، فالفيت فى البساب
مخطوطا اربع حاءات على نسق فافكرت فيها وتاملتها فوقع فى نفسى
انها من فصل شيخنا ابى بكر، ولم اكن اعرف عادته فى ذلك،
فتسلطت عليها بفكرى وتبعت ما فى اسمه واسم ابيه وجده (من
حاء) فظفرت بذلك، واذا هو قد اودعها محمد بن حسن بن حبيش
وبقيت على الرابعة فامعنت النظر وانعمته فاذا هى محبكم فنظمت
فى الحال ابياتا تتضمن هذا المعنى، واسرعت المشى اليه وحملت
اليه الابيات فلهج بها كثيرا . . الخ . .)

وهذه هي الابيات على ما فيها من مسامحة:

ظفرت من الحاءات غفلا باربع	رقمن موالاة فرقن بمربع
فساءلتها فاستمعجت ثم افصحت	وقالت ابوبكر ابى فاستمع وعى
حبيب محمد الى حسن ثلمى	سليل حبيش بيت عز مُنْتَح
فاقرئت من اعدادها عد فضلها	فكان قراها من فؤادى واضلمى
ونزهت في تلك المحاسن ناظرى	واهديت من طيب الحديث لمسمعى
وما خط ايديكم باولى يد ولا	خطا تلکم الاقدام اول مهيح
عرفت الخطا من طيب عرف معرف	فقبلتها رعيًا لكصب مرفع
براسى افديها وقل لحقها	فقد رقيت فى المجد ارفع موضع
طبعت ابا بكر على الفضل خلقة	وخلقا وليس الطبع مثل التطبع

ولم يختلف هذا النوع من الأدب وهذا التطرف فى الكتابة على الابواب حتى قريب من وقتنا هذا والى الجليل الذى ادرکناه من حملة الاقلام، فقد حدثنا العلامة المرحوم سيدى عبد الرحمن الزودى انه وجماعة من الطلبة فيهم العلامة الاديب مولای احمد بن المامون البلفيشى والفقیه سيدى محمد بنانى قاضى الدار البيضاء سابقا كانوا يدرسون على الفقيه كنون الكبير. وكانوا بعد القيام من المجلس يذهبون لتناول طعام الفطور جميعا كل يوم عند واحد منهم. وجاءت نوبة القاضى بنانى فقال انى ذاهب قبلکم لاهيى لكم ما يلزم، فتلبثوا قليلا ثم لحقوا به فلم يجدوه وانتظروه مدة فلم يحضروا، فعزموا على الانصراف فاستمهلهم مولای احمد بن المامون حتى كتب على الباب هذا البيت، وكانوا قد درسوا فى ذلك اليوم حكم

إِحياء المَوَات:

علمنا بِخُلُقهِ طبعاً ولكن تَفَاءَلْنَا بِأَحْيَاءِ المَوَات
فَانصَرَفُوا وَقَدْ سَجَلُوا تَخَلَّفَ زَمِيلُهُمْ بِهَذِهِ النِّكْتَةُ البَدِيعَةُ الَّتِي
لَا تَنْسَى، وَهَكَذَا كَانَ اجْتِمَاعُهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَافْتِرَائِهِمْ عَلَى ادِّبٍ
رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

لَمَّا بِهِ وَالْفَاضِلُ أُخْرَى

اقتضاني تعبير لما به هذا مدة طويلة من البحث، وكنت وقفت عليه اول مرة في كتاب المعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، وذلك اثناء ترجمته للوزير ابي جعفر بن عطية حين يقول في بيان سبب نكبته: وكان سبب قتله فيما بلغني انه كانت عنده بنت ابي بكر بن يوسف ابن تاشفين التي تعرف ببنت الصحراوية، واخوها يحيى فارس المرابطين المشهور عندهم يعرف بيحيى ابن الصحراوية فحظي يحيى هذا عند الموحدين وقودوه على من وحد من لمتونة ولم يزل وجيها عندهم مكرما لديهم، وكان خليقا بذلك، الى ان نقلت عنه الى عبد المؤمن اشياء كان يفعلها واقوال كان يقولها أحققت عليه فتحدث عبد المؤمن ببعض ذلك في مجلسه وربما هم بالقبض على يحيى هذا، فرأى الوزير ابو جعفر ان يجمع بين المصلحتين من نصيح اميره، وتحذير صهره، فقال لامراته اخت يحيى المذكور قولي لاختك يتحفظ واذا دعونه غدا فليعتل ويظهر المرض، وان قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميورقة فليفل فإخبرته اخته بذلك فتمارض واظهر انه (لما به) فزاره وجوه اصحابه وسألوا عنه فأسر الى بعضهم ممن كان يثق به ما بلغه عن الوزير فخرج

ذلك الرجل الذي أسر اليه فنقل ذلك كله بجملته الى رجل من ولد عبد المؤمن فكان هذا هو السبب الاكبر في قتل ابي جعفر المذكور.

وكان وقوفى على هذا النص اولا فى طبعة القاهرة للمكتتاب المذكور وهى طبعة عادية لم تحظ بتحقيق ولا تطبيق من احد، فلم يكتب على ذلك التعبير شيء وبما انى استشكلته فقد كتبت عليه حين نقلت هذه الفذلكة فى ترجمة ابي جعفر بن عطية من ذكريات مشاهير رجال المغرب لفظة «كذاء» دليلا على التوقف فى صحته.

ولما نشر المعجب فى المغرب بتحقيق الاستاذ محمد الفاسي كتب هو ايضا على ذلك التعبير لفظة «كذاء» وزاد قائلا «وفى طبعة ليدن كماء بالتحريك، وفى اللثة كمت يده من البرد او العمل تشققت فصارت كالكمأة» قال «وفى العبارة ضعف، وفائدة هذا التعليق هى ان طبعة ليدن لا يمكن الاعتماد عليها فى تصحيح ذلك التعبير بل انها حورته الى ما لا معنى له فى التركيب الذى اشتمل عليه.

ثم طبع المعجب بعد ذلك طبعة جديدة فى القاهرة بتصحيح الاستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى، فجاء ذلك التعبير فيها مصححا هكذا «فتمارض واظهر أن المأبى، وهو التصحيح الذى لم نجرؤ عليه انا ولا الاستاذ الفاسي، وان كان هو مدلول التعبير والمتبادر منه على كل حال.

وأعترف أننى بقيت مدة لم اظفر بهذا التعبير فيما عدا نص المعجب برغم استقصائى فى البحث واستذكارى لمحفوظاتى من

من الاشعار القديمة، وطالت المدة وانا امنى النفس بالعثور عليه فى
يوم ما، فقد كنت لا اشك فى ان له اصلا عمى نباه على وعلى
الاساتذة الذين اختلفوا فيه.

وذات مرة كنت انشد هذه الابيات تنسب لسيدنا على كرم الله
وجهه وهى ما قيل فى الفرج بعد الشدة .

اذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق (لما به) الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره وأطمانت وأرست فى اماكنها الخطوب
اتاك على قنوط منك غوث يجيء به اللطيف المستجيب

فانار انتباهى شىء فى عجز البيت الاول، وعدت الى انشاده
فاذا هو التعبير المطلوب بعينه، الا انه واقع غير موقعه فى كلام
صاحب المعجب اذ هو هناك يقع بعد جملة غير تامة، وهنا يقع اثناء
جملة كاملة علة لها لا تتيما... ومع ذلك فقد تفاعلت بأبيات الفرج
هذه، ولم اياس من العثور على طلبتى فيما يستقبل من الزمان،
ولبثت مدة أخرى وانا كلما تذكرت المسألة انشدت الابيات منيا
نفسى بحل هذه العقدة ولو بعد حين، الى ان تفرغت لقراءة كتاب
الشعر والشعراء لابن قتيبة ثانى مرة فى طبعته المحققة والمشروحة
بعناية العلامة المرحوم الشيخ احمد محمد شاكر، وبلغت فيه الى
ترجمة يزيد بن مفرغ الحميرى فاذا به يقول وهو يقص حكاية حبس
عبيد الله بن زياد له وتعذيبه اياه، وكان قد امر فسقى مسهلا وطيف
به على بعير فى ازقة البصرة مقرونا الى خنزيرة، فمشى بطنه

وجعل يسيل على الخنزيرة، فتصلى... قال فلما ألح عليه ما يخرج منه قيل لابن زياد انه (لما به)، فأمر به فانزل فاغتسل فلما خرج من الماء قال:

يفضل الماء ما فعلت وقولى راسخ منك فى العظام البوالى....

الشاهد كما هو واضح فى قول ابن قتيبة، فلما ألح عليه ما يخرج منه قيل لابن زياد انه لما به، ولا شك انها هى عبارة صاحبنا المراكشى فى المعجب، وان ما تفيده هنا هو ما تفيده هناك اى ان الشخص الذى قيلت فيه مريض مثقل يجود بنفسه ربما كان هامة اليوم أو غد، على أنها هنا اكثر تجردا منها فى نص المعجب والابيات الشعرية اذ لم يسبقها فعل ولا وقعت وسط جملة فعلية وذلك مما يؤكد استقلالها بالمفهومية ودالاتها على ما تورد له من معنى.

ولا اخفى ان وقوع هذه العبارة فى كلام المراكشى هو ما جعلنى اتثبت فى شأنها لانه اديب ماهر وكاتب بليغ فيبعد ان يقع فى كلامه ما ليس صحيحا ولا جاريا على الاصول. لكنى حينما كنت اطبق عليها قواعد العربية كانت تتقلقل ولا تقبل التوجيه الا على احتمال ضعيف، وحينئذ لا اجد مناصا من فرض أنها عبارة مأثورة استعملت فى هذا المعنى قديما وخلصت الى مؤرخنا المراكشى من خلال محفوظاته العربية النموذجية، وما هو فرضى يتحقق فأجد العبارة بنفسها عند ابن قتيبة وناهيك به علما باللغة والادب وكلام العرب، فهو الحجة التى لا ترد، لا سيما وقد صحح العبارة الشيخ احمد شاکر بضبطه لها بكسر اللام وفتح الميم مع التخفيف، وهو

ايضا فى عصرنا حجة كبيرة.

ثم بعد هذا وجدتها فى شعر لابی الحسن بن زنباع من رجال
القلاند يخاطب به الفتح بن خاقان ونصه:

اليك ابا نصر بديهة خاطر توالى عليه الشغل وهو مقسم
اهبت به للقول وهو (لما به) فلبى ولم يسعده نطق ولا قسم
وهى فيه ايضا مجردة عن الجمل الفعلية مثلها فى كلام
ابن قتيبة (I).

هذا، ويخيل لى فى تخريج هذه العبارة انها من قبيل قولهم
فى المبالغة ان زيدا مما أن يكتب، فى الاخبار عنه بالاكثر من فعل
الكتابة اى انه من أمر كتابة، كانه مخلوق منها على حد قوله تعالى
خلق الانسان من عجل، جعل لكثرة عجلته كانه خلق منها قاله ابن
هشام فى المغنى، وكذا مثالنا جعل فيه المخبر عنه بحالة من المرض
والعياء بالغة الخطورة، اما المرض والعياء فيفهمان من السياق واما
الخطورة فتؤخذ من ما لان الابهام يأتى للمبالغة والتهويل كما فى
الآية الكريمة ففشيهم من اليم ما غشيهم اى شىء عظيم لا طاقة لهم به.

بواسطة كذا

تلقيت رسالة من معهد الدراسات العالية التابع للجامعة
العربية ثبت فى عنوانها الى فلان بواسطة السفارة المغربية بالقاهرة.
وتقرأ فى كثير من المجلات العلمية العربية فضلا عن الصحف مثل

(I) بعد الفاء، هذا البحث فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة لفت نظرى
الاستاذ عبد الستار فراج من محررى المجمع ومصحح كتاب الاغانى فى

هذا الاعلان سافروا إلى البلاد الفلانية بواسطة طائرات الكرافيل
مثلا، وتحدث الى احد اصدقائك او يتحدث اليك احد اصدقائك
فى قضية ما فيقول لك ذلك الصديق او تقول له انت هذا الامر لابد
فيه من واسطة، أى شخصية ذات نفوذ ليتم على الوجه الاكمل.

طبخته الجديدة الى هذين البيتين من شعر ابى الغمر الطهوى فى
الحسن بن زيد يرثيه رواهما فى الاغانى:

وسالت عنه فليل بات (لما به) قلت الندى لا شك بات (لما به)
وكانما ضمن الزمان على السورى ببقائه أو هابه فبدا به
وهما اوضح فى المسمى المراد بتلك العبارة من كل ما سبق.
فللاستاذ فراج شكرى.

... وبعد رجوعى من القاهرة كتب الى الزميل الاستاذ الفاضل
ابن عاشور انه ظفر عفوا بشاهدين يؤيدان البيان. الذى ألقته فى
المجمع بشأن هذا التركيب (لما به): الاول من كلام أمير المؤمنين على
ابن ابى طالب كرم الله وجهه. ورد فى نهج البلاغة ج 1 ص 244 ط
بيروت 1307، وهو قوله يصف حال المريض الميؤوس منه:

«حتى فتر معلله، وذهل مرضه، وتعايا اهله بصفة داله،
وخرسوا عن جواب السائلين عنه، وتنازعوا دونه شجى خبر
يكتمونه، فقايل (هو لما به) وممن لهم على اياب عافيته، ومصير
لهم على فقدته يذكرهم أسى الماضين قبله».

والثانى من كلام ابى نواس يجب احمد بن روح حين
هجاه فيقول:

←

وهكذا يكثر استعمال الوساطة في كلامنا بمعنى الوسيلة على اختلاف انواعها في حين ان المعاجم اللغوية لا تعرف هذا المعنى للوساطة، وانما الوساطة عندها هذه الجوهرية النفيسة التي تقع وسط العقد وأشياء أخرى لا صلة لها بهذا المعنى بتاتا، اما اللفظ اللغوي الصحيح الذي تجعله المعاجم دليلا على هذا المعنى فهو الوساطة وجمعها بحسب القاعدة وسائط ولذلك كان الواجب ان يقال في مثل تلك العبارات بوساطة السفارة المغربية، وبوساطة طائرات الكرافيل وهذا الامر لا يبد فيه من وساطة وهي وسائط متنوعة ولكن اللفظ يتحملها كلها.

لا رعى الله ابن روح وسنخ اسمى بلعابه
اسقم اسمى ريج فيه فاطن اسمى (لما به)
فابتغوا لى اسما سواء واجدوا فى طلابه

من الديوان ج I ص 45 ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة. وانى اشكر للزميل الكريم عنايته واهتمامه بالموضوع. كما انى وقفت على شاهد آخر فى كتاب علل الحديث لابن ابي حاتم وهو حديث عن ابن عمر ان النبى (ص) عاد امرأة من خثعم؛ فقال لها كيف تجدنيك؟ قالت ما ارانى الا (لما بي) الخ. وهو مما جاء بهذا التعبير فيه بصيغة التكلم. ومثله قول ابن زيدون :

متى ابشك ما بى يا راحتى وعذابى
متى ينوب لسانى فى شرحه عن كتابى
الله يعلم انى اصبحت فيك (لما بي).

وهنا لابد ان يقبل بعضنا على بعض متسائلين هل العبارة التى يستعملها رجل الشارع كما يقولون والمجلات العلمية ومعاهد الدراسات العربية العالية لا تكون صحيحة ولا تعتبر عربية وان جرت على لسان كل عربى واقلام المثقفين العرب عامة وخاصة؟ ان الفاظا عربية كثيرة لا تذكرها المعاجم اللغوية ولكن عدم ذكرها لها لا ينفى عربيتها واصالتها، نرى انفسنا مضطرين لان نقول فيها مثل ما قاله بعض المحدثين فى احاديث يرويها احد الائمة الاثبات من غير ان يرفع سندها لعلها كانت معروفة عند اهل الصدر الاول باسنادها المرفوعة، ثم وقع التفريط فى هذه الاسانيد فضاعت ولم يهتد اليها العلماء بعد ذلك، فهل يكون لفظ الوساطة الذى نحن بصدده فى دلالة على معنى الوساطة من هذا القبيل.

هذا، وليس اعتمادى فيما ذكر على رواج الكلمة فى العصر الحاضر على لسان من ذكر بل على وقوعها فى كلام العلماء والمؤلفين فى الزمن الماضى ايضا، ومن اقدم من وردت فى كلامه فيما اذكر الشيخ عبد السلام بن مشيش وهو من كبار الصوفية عاش فى القرن السادس واولئ السابح، وقد جماعت فى صلاته البليغة المشهورة بالمشيشية فى الفقرة التى يقول فيها ولا شيء الا وهو به منوط، اذ لولا الوساطة لذهب كما قيل الموسوط ويعنى بالوساطة هنا النبى (ص) اذ هو الوساطة العظمى فى كل ما وصل لامته من خير وبركة وما ادركته من عز وسؤدد ولولاه لما كان لها هذا الذكر الخالد وهذا المجد الطارف والتالد. واذا كان محل الاستشهاد من فقرة ابن مشيش

هذه هو كلمة الواسطة فان كلمة المتوسط فيها هو ما يلفت النظر، وهو ما يؤكد ما قدمناه من احتمال أصالة الكلمة وضياع فعلها الدال على معناها هذا، والذي تقتضى صياغة اسم المفعول منه ان يكون متعديا، الا ان نقول ان للمتوسط هنا متعلقا محذوفا للسجع وهوله.

وعلى كل حال فان جميع العلماء الذين كتبوا على المشيشية وشرحوها بين مطيل ومختصر قد سلموا عبارة الشيخ وتلقوها بالقبول ولم نر من بحث منهم فى صحة اشتقاق كلمة المتوسط فاحرى كلمة الواسطة، ولكننا يجب الا ننسى ان هؤلاء الصوفية لهم جراءة فى وضع المصطلحات الخاصة بهم وتطويع اللغة لاغراضهم مما ينبغى ان يكون مثالا لنا نحتذيه ونستفيد منه خاصة فيما يتعلق بالمصطلحات الفلسفية.

وبعد ابن مشيش نجد الخطيب القزوينى فى القرن الثامن يعبر بالواسطة ويستعملها استعمال الواسطة فى كتابه المعروف «تلخيص المفتاح فى علوم البلاغة» وذلك عند كلامه على الكناية فيقول: « فان لم يكن الانتقال بواسطة قريبة وان كان بواسطة فبعيدة ، ولا بد هنا من ملاحظة ان اصل كتاب التلخيص الذى هو مفتاح العلوم للعلامة السكاكى انما يعبر فى هذا المقام بالواسطة، ولا يقول الواسطة ومع ذلك فان شراح التلخيص وعلى رأسهم المحقق سعد الدين التفنازاني كلهم قد تابعوا الخطيب القزوينى فى التعبير بالواسطة، وكذا المؤلفون فى علم البلاغة بعده كالسيوطى فى شرحه

لنظمه عقود الجمان (I) والاخضرى فى شرحه لنظمه الجوهر المكنون
وشراحه الآخرين بحيث يصح القول ان كلمة الوساطة قد اختفت
عند هؤلاء المؤلفين وحلت كلمة الوساطة محلها مع جمعها على وسائط.

ثم بعد القزوينى والعلماء المؤلفين فى البلاغة من بعده نرى
الشيخ محمد البكرى وهو من اهل القرن العاشر يقول فى قصيدة
له يمدح بها النبى (ص) وهى ما شاع بين طوائف الصوفية.

ما ارسل الرحمن او يرسل من رحمة تصعد او تنزل
فى ملكوت الله او مكله من كل ما يختص او يشمل
الا وطه المصطفى عبده نبیه مختاره المرسل
واسطة فيها واصل لها يعلم هذا كل من يعقل

فيستعمل الوساطة استعمال ابن مشيش لها فى القرن السادس.
ولا نحتاج ان ننبه على كثرة ورود هذه اللفظة فى كلام العلماء
والمؤلفين الذين اتوا بعد ذلك مما نجده مكتوبا بخطوطهم او نقف عليه
فى مؤلفاتهم كقولهم نقلته من خط فلان بواسطة، او ان فلانا اخذ

(I) اما فى النظم فقد استعمل الوساطة وكأنه اضطره اليها
النظم، ولزيتد الاستعباب اقول ان ابن عربى الحامى كثيرا ما
يستعمل لفظ الوساطة فى فتوحاته وهو من عصر ابن مشيش،
ونبهنى الزميل الاستاذ الشيخ على النجار الى قول ابن مالك
فى الالفية:

التابع المقصود بالحكم بلا واسطة هو المسمى بدلا
وابن مالك من هذا المصر ايضا.

عن فلان بواسطة ونحو ذلك فان من مارس الكتب المخطوطة والكتب
الدراسية المستعملة فى المعاهد الدينية على الخصوص يعرف ذلك جيدا.
فهل بعد هذا التواطؤ من علماء سبعة القرون الماضية واهل
قرننا الحالى على استعمال الوسطة فى المعانى التى ذكرنا تبقى
كلمة منبوذة لا تفتح ابواب المعاجم اللغوية فى وجهها؟.

على ان الحس اللغوى فيما يظهر يعطى ان تختص كلمة
الوساطة بالمعنى المصدري فى حين ان كلمة الوساطة تختص بالدلالة
على اسماء الاعيان والاشخاص الى جانب كلمة الوسيط التى قد
قد تميم فى الشخص الذى يقوم بالوساطة احيانا (1).

الحرمة بكسر الحاء.

سأل سائل وهو طالب بكلية الحقوق سبق له ان درس فى
معامد القرويين، هل صحيح انه لا يقال الحرمة بكسر الحاء فيما حكمه
المنع شرعا وانما يقال الحرمة بالضم؟ والطالب بحكم دراسته فى
القرويين لم يسمع قط ان المنوع حكمه الحرمة بالضم، وانما سمع
من اساتذته وقرا فى الكتب المقررة عليه ان هذا الشئ المنوع منه
او المنهى عنه نهيا جازما حكمه الحرمة بكسر الحاء وهو المحظور
والحرام؟ اما الحرمة بالضم فيما يعرف فهو الشئ الذى يجب احترامه
وعدم الاستهانة به سواء كان مأمورا به فعلا وهو الواجب والمندوب
او تركا وهو الحرام والمكروه.

(1) اقر مجمع اللغة العربية تعبير لا به بالمعنى الذى جاء فى
هذا البحث وكذا استعمال الوسطة بالوجه المذكور فيه ايضا.

ويستشهد على ذلك الآية الكريمة، والقرآن كما يقولون قاموس المسكين الذى لا يستطيع ان يقتنى كتاب القاموس، وهو قوله تعالى: «ذلك، ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه»، قال المفسرون المراد بالحرمات مناسك الحج لورودها فيه، ويصح حملها على العموم، وقال ابن العربى فى احكامه الحرمات امثال ما امر الله به واجتناب ما نهى عنه فان لهذا حرمة المبادرة الى الامتثال ولذلك حرمة الانكفاف والانزجار، فمعناها اذا عام شامل حتى على تخصيصها بما وردت فيه، لان من المعلوم ان مناسك الحج فيها المأمور به فعلا وتركها، فليس المراد بها المحرمات اى المنوعات فقط، كما لا يخفى وما يقصد بالحرمة المكسورة الفاء غير هذا.

ونرجع الى القاموس فنجده يقول «والحرمة بالضم وبضمثين وكهمزة ما لا يحل انتهاكه، والذمة والمهابة والنصيب، ومن يعظم حرمات الله اى ما وجب القيام به وحرمة التفريط فيه، فيتوافق وما قاله المفسرون فى الآية، الا اننا اذا رجعنا الى اصل المادة وهى المصدر نجده يذكر لفعل حرم بالضم ككرم عدة مصادر اشهرها الحرام وليست الحرمة بالضم منها وانما يستدركها عليه صاحب التاج لان غيره ذكرها، فهل هو يعتبرها اسما لا مصدرا؟ اما الحرمة بالكسر فتأتى عنده مصدرا لحرمة الشيء كضربه بمعنى منعه اياه كالحرمان وغيره من مصادر آخر، ومثل القاموس فى ذلك بقية المعاجم اللغوية.

فنحن اذا بازاء مصدرين مختلفى الضبط لفعليين مختلفى الدلالة، احدهما الحرمة بالضم وهو مصدر حرم الذى يقتضى ان

الشيء حرام لذاته، والثاني الحرمة بالكسر وهو مصدر لحرمة -السدى يقتضى: ان الشيء حرام لامر خارج عن ذاته، ومن هنا نصرف ان ملحظ فقهاءنا فى استعمالهم الحرمة بالكسر واشارها على الحرمة بالضم ملحظ صحيح لان المحرمات منها ما هو ذاتى التحريم لمضرته التى لا يشك فيها احد كالزنى ومنها ما ليس كذلك وانما حزم بعد ورود الشرع وتوقيفه المومنين على ما به من اضرار خفية كالربا فهم لدقة الاستعمال المتوخاة فى الالفاظ الاصطلاحية ومزيد التحرى فى تمييز اقسام الحكم الشرعى بعضها من بعض عبروا بالحرمة المكسورة الفاء التى تشمل ما هو حرام لذاته وما هو حرام بحكم الشرع اى ما منع الناس منه بمقتضى الدين وان لم يكن قبل ممنوعا عليهم. والتحريم فى هذا طارىء، وفيما قبله متجدد وهو المنع الذى تدل عليه الحرمة بالكسر فى كل حال.

وبهذا يتضح ان قول الفقهاء فى الشيء الممنوع والمحظور حكمه الحرمة بالكسر صحيح بل اصح من ان يقال فيه الحرمة بالضم لدقته وتعبيره عن المراد من ان التحريم فيه بحكم حاكم وهو الشرع، ومعلوم ان كلامنا فى اصطلاح فقهى فلا بد فيه من مراعاة اصول الفقه، والامر هنا على ما قال ابن السبكي فى جمع الجوامع «ولأحكام قبل الشرع بل الامر موقوف الى ورودها».

ولا يرد علينا ما جاء فى خطبة الوداع من قوله (ص) «ان دماءكم واموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا» مع العلم بان الرواية فيه بالضم لا غير لانا نقول انه ذكرهم بشيء كانت حرمة

مقررة عندهم وثابتة لديهم فلم يعدل عنها الى غيرها تأكيدا للمطلوب وهو تحريم الدماء والاموال، ألا ترى كيف عبر عن هذا بالحرام، وفى رواية أخرى للحديث «ان الله حرم عليكم دماءكم واموالكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا» على ان لفظ الحرمة فى هذا الحديث وفى غيره كحديث مكة «فهو بلد حرام بحرمة الله» وكحديث الحديبية «لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمة الله الا اعطيتهم اياها» هو اقرب ما يكون من معناها فى الآية المتقدمة ولذلك فان القرآن كالحديث لم يعبر به فى مسائل التحريم الخالص، وانما عبر بالحرام والتحريم كقوله تعالى «واحل الله البيع وحرم الربا» ثم جاء اصطلاح الفقهاء من بعد ذلك فخص الحرمة بالكسر بما حكمه المنع شرعا اى بالحرام والمحرم فى الشرع.

السَّحَاءَةُ وَالْكَلَاءُ

هاتان كلمتان عربيتان ليس عليهما غبار، ولا فى معانها لبس، ولم نوردتهما لتصحيح لفظ او تحديد دلالة، ولكن لاقتراح اطلاقهما على مدلولى لفظين اعجميين احدهما لا اسم له عندنا فيما اعرف، والثانى يعصرف باسمه الاعجمى معربا فى بعض الاقطار العربية، على حين انه لا اسم له فى بعضها الآخر.

فاما السحاة فهى مأخوذة من سحا الكتاب شده بسحاة كسحاه واسحاه وهذا لفظ القاموس، وفيه ايضا وسحاية القرطاض وسحاؤه ما سحى منه اى اخذ وزاد فى شرحه وقد سحا من القرطاس اذا اخذ منه شيئا قليلا، واستدرك عليه السحاة كحصاة لفة فى

السحابة. وهذا الذى فى القاموس هو ما فى الصحاح واللسان تقريبا ولا يظهر به المعنى الحقيقى للسحابة، ولكننا نجده مبينا احسن التبيين فى صبح الاعشى وصاحبه كما هو معلوم من اهل الكتابة او على الاصطلاح الجارى من الفنيين الذين يرجع اليهم فى هذا الامر.

فهو يتحدث عن ختم الكتاب ويقول ان له ثلاث صور، الصورة الثالثة وهى محل الحاجة وان يلف على الكتاب بعد طيه قصاصة من الورق كالسير فى عرض رأس الخنصر وتلف على الكتاب ثم يلصق رأسها، ويكون ذلك فى الرقاع الصغيرة المترددة بين الاخوان وتسمى القصاصة التى يلصق بها سحابة بفتح السين وبالد، وتقال بكسر السين ايضا وربما قيل سحاية، ويقال فيه سحوت الكتاب اسحوه سحوا وسحيته بالتشديد اسحيه تسحيفية فهو مسحو ومسحى ومسحى والامر من سحوت الكتاب اسح ومن سحيته سح واصله من السحو وهو القشر يقال سحوت اللحم عن العظم اذا قشرتة، انتهى كلام صاحب صبح الاعشى وفيه بيان تام للاجمال الواقع فى كلام القاموس وغيره من المعاجم، ومعلوم اننا لم نعد نطلق هذه الكلمة على الكتاب المختوم ولا نستعملها ومشتقاتها فى ختم الكتب فلذلك اقترح اطلاقها على هذا النوع من الرسائل البريدية الذى يطوى على نفسه ولا يحتاج الى ظرف يدرج فيه ويسمى بالفرنسية

Carte Lettre وبالانجليزية aer Gram او air Letter

أما الكلاء (I) فهو مشتق من الكلاء بمعنى الحراسة والحفظ،

(I) هو بفتح الكاف وتشديد اللام على وزن شداد.

ويطلق على ساحل النهر ومرفأ السفن وما يروى فيه من قول سنمره
 بن جندب ومن عرض عرضنا له ومن مشى على الكملأ قذفناه فى
 النهر، أى من لم يصرح بالقذف عرضنا له بضرب خفيف ومن صرح
 حدناه، استعار المشى على مرفأ السفينة للتصريح والتفريق للحد.
 وبما ان هذه الكلمة ترد بمعنى المرفأ والساحل وهى غير
 مستعملة فى ذلك اذ ان كلا من المرفأ والساحل اشهر منها واكثر
 ورودا على اللسنة فاننى اقترح اطلاقها على ما يسمى فى بعض
 البلاد العربية بالكرنيش وهو المشى والرصيف الذى يشاد على
 حافة النهر او البحر ويعد للفسحة والنزهة (I) لا سيما وهو يحوط
 بما يكلا المارين عليه من درابزين ونحوه فمعناه اقرب الى المراد من
 كلمة الكرنيش التى هى فى الاصل فرنسية ولا تدل على اكثر مما
 تدل عليه كلمة (Cornice) الاسبانية أى الافريز والاطار.. فاذا كان
 التوسع فى معناها هو الذى سوغ اطلاقها فى بعض البلاد العربية
 على ما ذكرنا فان التوسع فى لفظ عربى قريب المعنى من المراد هو
 اولى واحق، والنظر للزملاء الكرام كلاًهم الله.

(1) وقد وردت فى كلام الجاحظ بهذا المعنى اكثر من مرة
 فى كتاب البخلاء.

المعجم العربي

نشاته وتطوره

تأليف الدكتور حسين نصار

مدرس بكلية الآداب - جامعة القاهرة

حظيت بقراءة هذا الكتاب القيم منذ امد قريب وان كان قد صدر قبل سنوات، وهو فى جزأين كبيرين، ويتناول موضوعا بكرا لم يسبق ان ألف فيه احد قبل الدكتور نصار بهذا الاستيعاب الذى لم يترك شاذة ولا فاذة فى المقام الا ألم بها. والحقيقة انى دهشت من سعة اطلاع الرجل وكثرة صبره على الاستقراء والتعليل والمقارنة بين مواد بحثه التى يخرج منها دائما بالنتائج المطلوبة الموافقة للمقدمات والآراء والتصميم العام المأخوذ به فى بناء هيكل الكتاب، وكنت أرى هذا التوسع فى المادة والاستقصاء فى البحث فيما اقراء للدكتور المؤلف من مقالات فى مجلة المجمع (I) وغيرها، ولكنى فى هذا الكتاب رأيت الامر الذى يقال فى مثله، جرى الوادى فطم على القرى.

(I) مجلة المجمع العلمى العربى وبها نشر هذا المقال.

ان الموضوع كما قلت بكر لم يتناوله احد بهذه الطريقة التى
عالجه بها مؤلفنا الفاضل. قد نجد فى الفهرسة لابن النديم، وكشف
الظنون لحاجى خليفة وما وضع فى الفترة التى بين هذين المؤلفين
من كتب فى تاريخ اللغويين، وتراجم اصحاب المعاجم، وخاصة كتب
السيوطى كالزهر وبغية الوعاة، تفارق من الاخبار عن حياة المعجم
العربى ونشأته وتطوره، لكن الكتاب الذى بايدينا يصح اعتباره
موسوعة بالمعنى الكامل فى هذا الموضوع، وموسوعة لا يقصد منها
إلى التثقيب العام فقط، بل الى الدراسة العميقة التى تحيط بالموضوع
من جميع جوانبه، فهو قد اتى على كل ما تضمنته الكتب السالفة
الذكر من معلومات فى هذا الصدد، وتتبع الدراسات الحديثة والبحوث
التي كتبها علماء الاستشراق فى مختلف المسائل المتعلقة بأصل
الموضوع، واختط لنفسه منهجا يقوم على وصف المعاجم العربية منذ
نشأتها بتبيين طرق تأليفها والاهداف التي ترمى اليها مع تقسيمها
الى مدارس يحرص كل الحرص على تتبع آثار السابقة منها فى
اللاحقة مستخلصا من ذلك النتائج التي توضح التطور الطارىء على
المعجم العربى فى مراحل تكوينه واكتماله.

وهكذا درس فى الكتاب الاول - وهو قد قسم كتابه الى كتب
فابواب ففصول - الرسائل اللغوية المؤلفة على الموضوعات مثل كتب
الفريبيين والعامى والمغرب والحيوان والنوادر والبلدان والابنية
والصفات وما الى ذلك، ودرس فى الكتاب الثانى المعاجم ومدارسها
المختلفة وهى اربع: المدرسة الاولى ، اساسها الترتيب على حروف

المعجم بحسب مخارجها وتتضمن كتاب العين للخليل ابن احمد، وكتاب البارع للقالى، وكتاب التهذيب للازهرى وكتاب المحيط للصاحب ابن عباد، وكتاب المحكم لابن سيده، والمدرسة الثانية، اساسها الترتيب على الحروف والابنية معا، وتتناول كتاب الجوهرة لابن دريد، وكتاب المقاييس لابن فارس، وكتاب المجمل له أيضا.

والمدرسة الثالثة، اساسها الترتيب على المادة اللغوية بحسب الحرف الاخير، وتحتوى على كتاب الصحاح للجوهرى، وكتاب العباب للصفوانى، ولسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروز آبادى، وتاج العروس للزبيدى، وكتاب المعيار لميرزا محمد على الشيرازى والمدرسة الرابعة، اساسها الترتيب على ألف باء بحسب الحرف الاول فالثانى فالثالث من المادة اللغوية الاصلية، وتشتمل على اساس البلاغة للزمخشرى، ومعجم اليسوعيين، ومشروعات المعجم اللغوى. ودرس فى الكتاب الثالث المعاجم التى نحتاج اليها فبين عيوب المعاجم القديمة والخصائص التى ينبغى ان تتوفر فى المعاجم الجديدة لسد الفراغ الذى يشعر به جمهور المثقفين العرب فى هذا الباب.

ويطول بى الكلام اذا اردت ان اتعرض لما بسطه المؤلف فى الابواب والفصول التى تدرج تحت هذه الكتب من انظار صائبة، وما طرقه من ابحاث موفقة، يتأتى لها احسن التأتى ويمحصها بروح علمية مجردة من كل غاية الا غاية معرفة الحق وحصول اليقين، ولكننى اقول على سبيل العصوم ان الاعمال المبتكرة التى من هذا

القبيل قلما تستوفى اغراضها، وتصيب اهدافها بمثل ما وقع لمؤلف
المعجم العربى، حيث خرج بكتاب كامل فى موضوع جديد يستحق
عليه كل ثناء، ويستوجب به اعظم التقدير.

إذا كان لى ما أخذه عليه ليكون تقرظى له خالصا لوجه
العلم، فهو عفوات طفيفة لا تتعلق بصليب الموضوع وانما هى
استدراكات او تصحيحات اود لو يحققها المؤلف، فاذا تأكد من فائدها
وصوابها عاد اليها عند مراجعة الطبعة الثانية من كتابه النفيس
وبذلك يكون قد اوفى على غاية الغاية فى التحقيق والكمال.

قضى صفحة (42) لما تكلم على المؤلفين فى غريب القرآن من اهل
القرن الرابع ذكر محمد بن عزيز السجستاني باسمه ولقبه ونسبه،
ثم عاد فذكره بنسبه اى السجستاني فقط وهو مشهور بلقبه ابن
عزيز، فكان الاولى ذكره بعد ذلك بهذا اللقب. ثم فى الصفحة التى
تليها ذكر ان الباحثين اعجبوا بغريب ابن عزيز هذا وان ابا العباس
التدويرى ألف كتابا فى شرح شواهد.

واعرف ان مالك بن الرجل الشاعر المغربى المشهور نظمه،
فحبذا لو ان المؤلف ذكر ذلك، واشير هنا اى فى مبحث كتب غريب
القرآن الى ان المفسر ابن جزى، وتفسيره، مطبوع، كتب فى
صدر تفسيره مقدمة تشبه معجما صغيرا خاصة بالالفاظ الغريبة
الواردة فى القرآن وفسرها تفسيريا حسنا، وقد افرد هذه المقدمة
السيد حسن القاترى ونشرها فى رسالة مستقلة كما ان العلامة
محمد المجاصى له نظم فى غريب القرآن يوجد عندنا مخطوطا فهو ما

يستدرك في هذا الباب.

وفي ص (56) أثناء الكلام على كتاب الحشنى في غريب الحديث نقل المؤلف وصفا له عن ابن خير صاحب الفهرسة المشهورة ومضمونه انه شرح حديث النبى (ص) فى (II جزءا) وحديث الصحابة فى (6 اجزاء) والتابعين فى (5 اجزاء) فعلق عليه بقوله: يتضح من هذا الوصف انه سار فيه على المسانيد. واطن ان هذا ليس بلازم للوصف، والمؤلف يعبر هنا وفى غير موضع بالمسانيد، والصواب المساند يغير ياء. وفى ص (62) انهى المؤلف الكلام على نهاية ابن الاثير واختصار السيوطى لها المعزوف بالدر النثير فقال: واختصر النهاية أيضا على بن حسام الدين الهندى الشهير بالمتقى، ولم يقل شيئا عن هذا الاختصار كأنه لم يقف عليه، وأنا أيضا لا اعرفه الا انه ذكرنى بكتاب تلميذه الشيخ طاهر المسمى بمجمع البحار فى غرائب التنزيل ولطائف الاخبار، وهو كتاب ضخم فى مجلدين كبيرين مطبوع فى الهند، ويعد من كتب الغريبين ، على ان المؤلف اغفل كتاب مشارق الانوار للقاضى عياض الذى يمكن اعتباره اصلا لكل من النهاية ومجمع البحار هذا ، فى خصوص غريب الحديث ، وهو من الشهرة بالمكان الذى لا يجهل، وقد قيل فيه:

مشارق انوار تبنت بسبته ومن عجب كون المشارق بالغرب
فاجيب هذا القائل:

وما شرف الاقطار الا رجالها والا فلا فضل لترب على ترب
وهو مطبوع. كما بقى على المؤلف من افراد التبصانيف فى غريب

الحديث كتاب غريب الشهاب اعنى شهاب القضاء المعروف فى الحديث وهو لابن منصور السجلماسى ويوجد عندنا مخطوطا .

وفى ص (II4) تعرض المؤلف الى قدم التأليف فى لحن العامة، وسرد أسماء بعض الكتب التى وضعت فى العراق والاندلس وغيرهما خاصة بعامة اهلها. ولم يذكر كتاب ابن هانئ السبتي المسمى بانشاد الضوال وارشاد السؤال وهو يثبت مساهمة علماء المغرب فى هذا الموضوع وانهى المؤلف الكلام على التأليف فى لحن العامة والفصيح واصلاح المنطق، وتعرض فى صفحات عديدة لفصيح ثعلب وذيله وشروحه، وكنت اود لو اشار الى نظمه من طرف مالك ابن المرحل فان نظمه هذا له شهرة كبيرة، ويكثر الاستشهاد به بين العلماء المغاربة، لانه من النظم السهل الخفيف ولانه لم يقتصر فيه على مجرد النظم بل اضاف اليه شرح الفاظه وبيان معانيه، وربما ضمن نظمه بعض الشواهد، وما قاله فى خطبته:

وبعد هذا فجرى فى خاطرى	من غير رأى نادب أو آمر
ان انظم الفصيح فى سلوك	من رجز مهذب مسبوك
وبعض ما لا بد من تفسيره	وشرحه والقول فى تقديره
من غير ان اعدو ذاك المعنى	واللفظ الا لاضطرار عنا

ومن امثاله:

وقد غبطت المرء فى احواله	اغبطه بالكسر فى استقباله
اعنى تمنيت لنفسى مثلا	له ولا يسلب تلك النعما

ومن قوله فى الاستشهاد:

وقد كفات يا فتى انائى قلبته وكم ان ذا استواء
 ونحوه اكفات فى القوافى يشبهه' الاقواء فى الخلاف
 مثاله ما قاله اعرابى ولم يكن فى النظم ذا صواب
 (بنى ان البر شئ هيئن المنطق اللين والطميم)
 وهو مطبوع.

وفى ص (I29) فما بعدها تكلم المؤلف على كتب خلق الانسان،
 واستوعب فى ذلك على عادته الا انه بقى عليه رجزية ابن المناصف
 المعروفة بالمذهبة، وهى مشهورة وقد اخذت عنه بالمغرب والاندلس
 ومن قوله فيها:

وطرف المارن فهو الارنبه وروثة كلتاها مستغربة
 والغريب ان هذا الموضوع هو مما ادخله المؤلف فى الباب
 الرابع من الكتاب الاول وعنوانه كتب الحيوان، وقد توقعت ان يذكر
 فيه كتاب الحيوان للمجاحظ وهو العلم المفرد فى هذا الباب
 وكتاب حياة الحيوان للدميرى، ولكنه لم يفعل.

وفى ص (I41) اشار المؤلف وهو يتحدث عن كتب النوادر الى
 من الف فى هذا المطلب من اهل القرن الرابع فذكر منهم ابا محمد
 عبد الله بن ابي زيد القيروانى، وهذا غلط فان نوادر ابن ابي زيد
 القيروانى كتاب موضوعه الفقه ومسائله على مذهب الامام مالك ،
 ولا صلة له بالمباحث اللغوية وهو فى مجلدات مخطوط.

وفى ص (I51) فما بعدها تكلم المؤلف على كتب الانفراد والتثنية

والجمع وهو الباب السابع من الكتاب الاول فخته فى ص (154) ولم يذكر كتاب المثنيين للمحبى المعروف بجنى الجنتين وهو مطبوع.

وفى ص (167 س 9) وقع ذكر ابن القوطية بدلا من ابن القطاع وهو سبق قلم.

وفى ص (357 س 13) تصحف اسم ابن سيده بابن دريد ولعله تطبيع .

وفى ص (577) رد المؤلف تصحيح صاحب الوشاح لقول الجوهرى فى طهفة النهدي انه زهرى نسبة الى والده زهير فقال: ولو سلمنا لصاحب الوشاح لقلنا انه كان الاولى بالجوهرى تجنب هذه النسبة خوفا من الخلط بينها وبين الزهرى المحدث (المؤرخ) المشهور، ومحمد بن شهاب الزهرى ليس بمؤرخ فيما نعرف وهو كذلك لا يلتبس بصحابى اسمه طهفة خصوصا مع الاختلاف فى ضبط نسبتيهما، فالظاهر ان تصحيح التادلى صاحب الوشاح لقول الجوهرى لا غبار عليه.

وفى ص (539) ذكر المؤلف احمد بن عبد العزيز الفيلى وبما انه هو احمد ابن عبد العزيز الهلالى السجلماسى المذكور فى ص (566)، احييت ان ابنه على اتحاد الاسمين والمسمى لثلا يتوهم انهما اثنان، وفلا فقد ذكرا فى فهرس الاعلام عند المؤلف كل واحد منهما على حدة.

وفى ص (670) يقول المؤلف وهو يتكلم على كتاب اساس البلاغة للزمخشري وترجع كثرة الاحاديث فى اساس الى ان

مؤلفه من المحدثين ومن المؤلفين فى غريب الحديث، اما كونه من المؤلفين فى غريب الحديث فنعم، واما كونه من المحدثين فلا.

واكتفى بهذه المراجعات التى قد يكون لها بعض الاهمية عما بقى من الاغلاط التى لا شك فى انها ما ند عن قلم التصحيح عند الطبع، وان كنت ارى ضرورة الاشارة الى انه كان الاولى بالمؤلف وهو يكتب بحثا جليلا عن المعاجم اللغوية ان يتجنب التعبير الشائع وهو الاكتشاف بمعنى الكشف، فما ذكر له فى المعاجم من معنى لا يتوافق وهذا الاطلاق، كما اشير الى انه فى ص (264) جمع الحليل على اخلة ونعت هذا الجمع بثلاث وهو يعلم ان حقه الجمع على اخلاء، وان ينعت بثلاثة وسبحان من لا يسهو ولا يففل.

المغرب في مجمع اللغة العربية⁽¹⁾

سيدي الرئيس، سادتي.

ان الدعوة التي توجهت من جميعكم الموقر الى ممثل المغرب المائل بين يديكم للمشاركة في العمل العظيم الذي تقومون به من اجل المحافظة على اللغة العربية والسير بها الى الامام كانت نداء عاليا رددت صدهاء جبال الاطلس الشامخة ، وحلل الصحراء الكبرى ، ومعاهد العلم في ذلك الركن القصي من بلاد العروبة العريضة. وطبعاً ليس هذا التجاوب مع تلك الدعوة من اجل شخص الممثل وانما هو من اجل التمثيل نفسه، فان مما يعني كل مغربي، او كل مواطن عربي في المغرب، ان يكون هذا القطر ممثلاً في مجمع اللغة العربية، الذي هو المصنع الرئيسي لهذه المادة العضوية التي تؤلف بين الشعوب الناطقة بالضاد في المشرق والمغرب .

ولعل لا ابالغ اذا قلت ان ذلك مما يعني المجمع ذاته، فان هذه الجهود التي تبذل، وهذه الطاقات التي تصرف يجب ان تستفيد منها جميع الاقطار العربية، وان يروج لها بين ابناء العروبة في كل

(I) خطاب تقدم به الكاتب الى مجمع اللغة العربية عند تعيينه عضواً عاملاً ممثلاً للمغرب بالمجمع.

مكان، لتحصل النتيجة المرغوبة من اعتزاز العرب بلغتهم، وإيمانهم بمساييرتها لركب الحضارة والعلم والاختراع، شأنها في ذلك شأن سائر اللغات الحية التي يخدمها إبنائها، ويمهدون لها سبيل البقاء والنمو والازدهار وبالضرورة فإن ممثلي هذه الاقطار في المجمع، هم الذين يقومون او عليهم ان يقوموا بنشر مقرراته بين مواطنيهم وهم الذين يصلون او عليهم ان يعملوا لتعريف من يمثلونهم بكل ما جد في الحقل اللغوي من اوضاع ومصطلحات، والا بقيت تلك المقررات مخزونة في اذهان المجمعين الذين لا يؤدون مهمتهم هذه في البلاد التي لها مجمعون فكيف بغيرها ؟

اذا كان هذا الدمع يجرى صباية

على غير ليلى فهو دمع مضيع

واني لاعزو هذه الضجة التي تثار آنا بعد آن، على المجمع اللغوية زعما بانها لم تعمل شيئا في سد مفارقة اللغة العربية بالنسبة الى متطلبات العصر الحديث، وهذا التندر الغث على المجمعين الذي اصبح حجة كل ثرثار متفيهق بعبارة الشاطر والمشطور وبينهما كامخ، بل اصل الاتهام للغة العربية الذي كثيرا ما يردده الجاهلون بفرازة مادتها وقابليتها العظمى للتطور، فيصفونها بالجمود والموت، ويدعون الى نبذها واستعمال غيرها من اللغات الاجنبية، سواء في البيت او المعمل او المدرسة، وانهم ليستعملونها فعلا في حالة التخاطب بينهم وبين إبنائهم ومن كان على دينهم من الحوارج على الامة العربية

انى لاعزو ذلك كله الى عدم العلم بالاعمال الطائفة، والفتوح الكبرى التى تمت فى سبيل ترقية هذه اللغة الخالدة منذ اوائل هذا القرن على يد ابناءها البررة من ادباء وصحفيين وعلماء، ولا سيما المجمعون منهم، حتى صارت أداة طيعة للتعبير عن كل ما يخلج بالنفس البشرية من ادق المشاعر واعمق الاحاسيس، وتصور كل ما تقنع عليه عين انسان من مختلف المراتب، ومتنوع المشاهد، واصبحت تتوفر على عشرات الآلاف من المصطلحات العلمية والفنية والحضارية، التى وضعت حديثا ولم يكن لها وجود قبل جيل واحد فقط من عصرنا هذا، ثم هى بعد ما تزال تكافح فى الميدان، وتطوى مراحل التخلف بعزيمة لا تكل وستربح المعركة لا محالة وتحل من بين اللغات الحية والعالمية المحل اللائق بعظمتها وخلودها فلو علم العقدة من ابناءها بعض هذا العلم، لخرجوا من انفسهم، ولسأوا ان ما بينهم وبين اخوانهم المؤمنين بعربييتهم المتجندين لخدمتها، لهو ما بين المتناصرين الثابتين فى الصف. والمتخاذلين الفارين من الزحف.

وكيف يعلمون. وهذه المساعي البارة يكاد امرها يخفى حتى على المهتمين بهذا الشأن ولا يسمح لها صدى عند غالب الادباء والعلمين والمثقفين بعامة، فاحرى باقى طبقات الشعب بالمصطلحات، العلمية والفنية لا تجد طريقها الى الكليات والمعاهد بله المدارس والمصطلحات الحضارية قلما يتردد منها شئ على الالسنه او تسيل به الاقلام. والا فمن اين تأتى فوضى الوضع وتعدد المصطلحات ان لم تكن من التقصير فى تبليغ عمل المجمع الى كل من يهمه امر اللغة العربية.

ويحرص على تقديمها بتقديم المعرفة في هذا العصر. ومن أين يأتي
تمرد هذا الفرد العربي او ذاك على لغته الاصلية ونكران صلاحيتها
للحياة المصرية، وهي بالحالة التي وصفناها من الانبعاث والنهوض.
ليس هذا تشنيعا في ضمن التنويه بما يقوم به المجمعون الكرام
من عمل عظيم في سبيل المحافظة على لغة الضاد وتجديدها ولكنه
تدليل على ما يلزم لهذا العمل من اعلان واشهار في كل الاوساط الثقافية
ليأخذ كل طرف بما يعنيه منه ولتعم فائدته جميع البلاد العربية.
ولعل قرار رئاسة الجمهورية العربية المتحدة بتوسيع المجمع وتمثيل
الاقطار العربية التي لم تكن ممثلة فيه من قبل، انما اتخذ لذلك،
وانها لخطوة مباركة يرجى ان تتبعها خطوات يصبح بها هذا المجمع
الى جانب الجامعة العربية ثاني مظهر من مظاهر توحيد الامة العربية
توحيداً كاملاً، فتكون الجامعة العربية على الصعيد الدولي منار
السياسة العرب الذي به يهتدون ، ومجمع اللغة العربية في المجال
القومي كعبة أهل العلم والادب التي اليها يحجون.

سيدى الرئيس، سادتى.

اذا كان هذا من اثر توسيع التمثيل في المجمع على العموم، فان
من اثر تمثيل المغرب فيه على الخصوص انه ضم اليه بلدا من اعظم
بلاد العرب تاريخا واعرقها حضارة، فان مما لا يخفى على احد ان
المغرب هو الذى فتح الاندلس وركز راية العروبة في ارضها وحماها
وذاد عنها مدى القرون الثمانية التى خفق ظلها فيها، وانتشر سلطانها
عليها، واسس اكبر دولة عربية عرفها شمال افريقية، اذ كانت تمتد

ما بين حدود مصر الغربية الى جنوب اوربا، وامتازت حضارته بما تحتفظ به من عناصر عربية أصيلة، فانها وان كانت بحكم نشأتها على الصعيد الافريقى وحول البحر الابيض المتوسط، لا تخلو من بذور تكوين اولية ترجع الى هذه البيئة الخاصة، الا ان تاثيرها بحضارة دمشق ايام حكم الولاة كان اقوى، وزادها التفاعل مع حضارة قرطبة ايام حكم المرwanيين قوة، فاصطبغت باللصبغة العربية التي لم تزايلها بعد. ولئن بقيت الى عهد المرابطيين آخذة ومطية، فانها فى عهدهى الموحيدين والمرينيين كانت صاحبة اليد العليا حتى فى الاندلس التي تنطق آثارها المختلفة عن هذين العهدين بانها وليدة العظمة الموحدية والعبقرية المرينية .

وعلى ذلك فانه حين كانت موجات دول المالكىك التركية تتدفق على مشرق البلاد العربية، كان مغربها يتمخض عن دول عربية حسنة الرعاية للتراث العربى، والحفاظ عليه.

وقامت خلافة الاتراك العشانيين فطم الوادى على القرى، اذ ان سيطرتها لم تقتصر على بلاد المشرق، بل امتدت الى نهاية المغرب الاوسط، وانتظمت فى حكمها بلاد طرابلس الغرب التي هى مملكة ليبيا الآن، وبلاد تونس والجزائر ولم يبق من المغرب العربى غير خاضع لها الا المغرب الاقصى الذى كان يعرف ببلاد مراكش وبذلك احرز كيانه، واحرز فى الحقيقة كيان الحضارة العربية التي بقيت فيه محتفظة بمظاهرها وخصائصها لم يمسسها سوء من هجنة ولا تزيف. حتى لقد قال العلامة التونسى محمد بيرم الخامس المتوفى

اواخر القرن الماضى فى كتابه صفوة الاعتبار ولعمري ان صناعة الانشاء فى الدول العربية كادت تكون الآن قاصرة على دولة مراكش، وهو قول من تقرى البلاد العربية واطلع على احوالها فوصفها وصف العارف فى كتابه المذكور الذى قال فيه المستعرب ادوارد فنديك : انه اوفى كتاب باللغة العربية فى الجغرافية العمومية .

وما لنا والاحتجاج بالاقوال، وباستطاعتكم ايها الزملاء الكرام ان تذهبوا معى الى بلادكم المغرب. فتشاهدوا بأم العين معالم هذه الحضارة ماثلة امامكم فى أسلوب البناء، وفن المصار وما يزينه من زخارف ونقوش وتوريق وتذهيب وتطعيم وتنزيل، وهذه (المقرببات) الجميلة التى تخرم السقوف خشبية او جصية بتجويفها البديع، وتلك (البخاريات) البارعة التى تملأ الاركان وتتوج (انباحات) ببروزها العجيب، وما يتقاطر ويتقاطع خلال ذلك من اعمدة رشيقة واقواس لطيفة وشبابيك مشغولة احسن الشغل و (شماسيات) مرصعة بقطع الزجاج الملون اجمل الترصيع، الى البلاطات المفروشة بافخر انواع الرخام المجزع والجدران المكسوة بازر (انزليج) الدقيق الصنع الناصع التلوين، كأنه خمائل الزهر. تستند اليها هنا وهناك (السقايات) الرائعة التى تنوق فى وضعها وتجميلها أعظم التنوق، متدفقة الانابيب بالمياه ذات الحرير المطرب، على حين تنتصب (الحصات) المرمرية الانيقة فى وسط الصحن تقذف الجو بخيوط الماء الفضية المتوثبة، كأننا تحاول الرجوع الى المكان الارفع الذى هبط منه . فلا تكاد تبلل غصون البان المترنحة بعليل النسيم، او تطالع

(شراجب) القبيب الخضر حيث تجلس الحور العين. حتى تعود
متناثرة الى الارض فى شكل قطرات كما يتناثر العقد اذا انفرط.

ربما يقول قائل اننا نصف حمراء غرناطة، والامر ان كان كذلك
فانه يتعلق بحمراوات عديدة فى فاس ومراكشى والرباط والبيضاء
وتطوان وغيرها من مدن المغرب. واذا كانت الحمراء وهى خاوية على
عروشها تستهوى افئدة الزائرين من كل حذب وصوب، فان نظيراتها
هذه تجلى للناظرين وهى مفروشة احسن الفرش منجدة اجمل
التنجيد ، بكللها واروقتها وبسطها ولحفها وزرايبها المبتوثة ،
و (اسطرمياتها) المنعوتة و (الحائطيات) خوخاتها من الديباج
وشرفاتها من الاطلس، والوسائد مطروزة بابدع الطرز، ومفشاة
بنسيج الدمقس، الى كل ما ينسجم مع هذه الاشياء من ارائك
ونضائد، وصينيات وموائد واثاث رفيع وماعون بديع، تقدم فيه
افخر انواع الاطعمة، ويسقى منه بآنية اجمل آنية. فان الحضارة
ايها السادة اعظم ما تظهر فى المطعم والمشروب، ولذا قال بعض
الحكماء «ارنى مطبخ اية امة، أحدثك عن حضارتها».

وماذا اقول عن هذه الاطعمة وقد خصها احد المؤلفين فى عصر
الموحدين بكتاب احصى فيه أكثر من خمسمائة لون من الوان الطعام
والشراب والحلوى والمربى وما الى ذلك، مما كان يعمل للخلفاء
الموحدين والامراء منهم، ورجال دولتهم على العموم، ومنها ما يحمل
اسم بعضهم لكونه كان يعجبه كثيرا، او لكونه من اقتراحه، ومنها
ما يعرف باسمه العلم، ومنها ما يعترف بصفته، وكثير من هذه

الاسماء لا يزال مستعملا عندنا الى الآن، والمهم ان من هذه الاطعمة ما ينسبه بعض الناس الى الاتراك، و يعتقدون انه ما اخذ عنهم اثناء حكمهم لجارتنا الجزائر فظهر بعد الوقوف على هذا الكتاب انه كان موجودا قبل ظهور امر الاتراك ووصولهم الى المغرب بكثير.

ولا يتم هذا الوصف بدون احضار جوق الطرب الاندلسي والاستماع الى نغمات هذه الموسيقى العربية الخالدة، التي وضع اصولها زرياب وسجل اغانيها الحائك، فهي لانسجامها زمانا ومكانا مع المظاهر الحضارية الموصوفة تعد عنصرا نفسيا من عناصر الحضارة المغربية. اما زمانا فلان قطعها الفئائية مقسمة بحسب ساعات الليل والنهار، فمنها ما يختص بالمشية، ومنها ما يختص بالصباح، وقل مثل ذلك في بقية الاوقات، واما مكانا فلان من هذه القطع ما لو شئتم ان تتمثلوا انفسكم في دار الخلد تصغون الى انغائها العلوية، لاممكنكم ذلك بالاستماع الى (نوبة) الاصبيان التي يقال انها من نغمات الجنة.

ما جنة الخلد الا في دياركم

ولو تخيرت هذى كنت اختصار

لا استرسل في وصف هذه المباحج وهي انما تمثل الجانب المادى من حضارة بلغت القمة في اصطناع العلم، واعتماد المعرفة حتى في مجال الحكم والعمل السياسى، بحيث تحقق في ظلها القول الماثور: «اذا حكم الفلاسفة وتفلسف الحكام سعدت الدنيا»، الم يرعها يوسف بن عبد المومن وهو الخليفة الفيلسوفو يستوزر امثال ابن

طفيل وابن زهر وابن رشد وهم الفلاسفة انذين ملأوا سمع الدنيا
وبصرها ٩ .

ولكن هذا مجال رحب، وللكلام فيه ذيل سحب، فلنكتف
بالاشارة الى ما نحن بصدده من مباحث اللغة والنحو وتيسير
الكتابة، وهى مجال عملنا فى هذا المجمع، لننظر كيف أسهم المغرب
قديما فى خدمة العربية كما تخدمونها اليوم بموضوعية واختصاص
ومنطق، اى بالطرق العلمية والاساليب المنهجية مستهدفا ما
تستهدفونه من اصلاح الفاسد، وتقويم المعوج، مع اثرء اللغة وتسهيل
مداركها للعموم.

فالأبحاث التى حررها الامام السهيلي دفين مراكش فى تطور
دلالة كثير من المفردات العربية خلال الزمن، وادعها كتابه القيم
«الروض الانف» الذى طبعه ملك المغرب الاسبق مولاى عبد الحفيظ،
هى مما لا يقل شأننا عن الأبحاث التى يقوم بها المختصون فى هذا
الشان من علماء العصر. وملثها أبحاث العلامة أبى القاسم الشريف
فى شرحه لمقصورة حازم، الذى طبع بعناية احد الولاة المفاربة، واما
الكتاب الذى ألفه ابن هشام اللخمي فى الرد على الزبيدي وابن
المكي فيما زعما انه من لحن العامة، فقد كان دراسة تحليلية
للالفاظ واشتقاقاتها وتقضا لماخذ هذين العالمين بالحجة والبرهان،
وهو لا يزال مخطوطا ينتظر النشر العلمى الجدير به، ومثله كتاب
العلامة ابن هانئ السبتي المسمى «انشاد الضوال وإرشاد السؤال
فى لحن العامة، وامتازت تحقيقات ابن الطيب الشرقى بالعمق والامالة

فى كل ما كتبه من موضوعات لغوية شتى، ولا سيما حاشيته على القاموس المحيط التى استقى منها السيد امرتضى الزبيدى فى تاج العروس، وعول عليها وعلى مؤلفها اذ كان استاذه المعتمد فى علم اللغة تعويلا كاملا، وهى لا تزال مخطوطة ايضا.

ولون آخر من البحث اللغوى قريب من المعاجم العلمية التى التى تهتمون بوضعها الآن. وهو يتمثل فيما افه جماعة من اهل الاختصاص فى الطب على الخصوص من كتب لتعريف المفردات الطبية، وذكر مرادفاتها فى اليونانية والرومية، يعنون اللاتينية، وفى العامية المغربية والبربرية، وذلك كما فعل ابن الحشا فى كتابه «مفيد العلوم ومبيد الهموم» الذى فسر فيه الالفاظ الطبية الواقعة فى الكتاب المنصورى للرازى وهو مطبوع فى الرباط، وكما فعل ابو القاسم الوزير فى كتابه «حديقة الازهار» المعروف بمفردات الوزير وهو ما يزال مخطوطا، وكما فعل اخيرا السيد عبد السلام العلمى وهو ممن درس الطب بمصر فى اواخر القرن الماضى، فكتب رسالة «ضياء النبراس فى حل مفردات الانطاكى بعامية اهل فاس» وهو يعنى بالانطاكى الشيخ داوود صاحب التذكرة المعروفة فى الطب القديم... على انه ذكر اصطلاحات طبية حديثة، ومسائل اخرى مما يتعلق بعلم الكيمياء والتشريع وقعت فى كتاب «كنوز الصحة» من مؤلفات أوائل عصر النهضة.

وشرع فى كتاب آخر قال عنه فى طائفة هذه الرسالة «لما توجهت بالاذن الشريف لمصر القاهرة بقصد المزيد مما يخصنى من

علم الطب الجديد، ووجدته مطلسمًا باصطلاحات غامضة، واسماء غريبة، شرعت في مؤلف خاص ببيان تلك الاصطلاحات كاشف لرموز تلك العبارات، وهو مؤلفنا المسمى «بالاسرار المحكمة»، في حل رموز الكتب الطبية المترجمة، فلما رأى ذلك بعض المحبين ممن لا تمكننى مخالفته وعلم ان لابد لاتمام ذلك الكتاب عن زمن طويل، طلب منى ان اقدم عليه كتابا مختصرا مفيدا، لمن كان للطب القديم مستفيداء النخ. ورسالة ضياء النبراس هذه مطبوعة بفاس.

هذا في ميدان العمل اللغوى البحث وفى النحو كانت محاولة الاستاذ ابي موسى الجزولى لتقنين هذا العلم فريدة من نوعها، وبقيت كراسته المسماة بالقانون وبالاعتماد ايضا، موضع الدراسات والتعاليق والشروح من نحاة القرن السادس الهجرى الى ما بعد. حتى قال فيها بعض ائمة العربية المشار اليه فى وقته كما حكاه عنه ابن خلكان «انا ما اعرف هذه المقدمة وما يلزم من كونى ما اعرفها ان لا اعرف النحو» وكان ابو موسى الجزولى من كبار النحاة فى عصره، ويحكى ان ابا على التشلوبين قصد مراكش وهو يدل بما يحويه من بضاعة نحوية عظيمة فدخل اليها من باب دكالة، ومر بمسجد هناك سمع فيه لفظا فدخله فاذا ابو موسى فى مجلسه، والطلبة ملتفون حوله، فدنا منه وانصت اليه، فعجب من تبحره وسعة اطلاعه وغوصه على الفوائد، وقال فى نفسه اذا كان هذا حال رجل منهم منعزل فى ناحية نائية، ومسجد صغير من البلد، فكيف يكون حال غيره ممن هو اكبر منه قدرا واعلى شأنًا؟ ورجع من حيث اتى الى بلده وكان

بعد ذلك ممن شرح الكراسة الجزولية بشرح حين كبير وصغير.
وما تزال الكراسة وشروحها لم تعرف طريق المطبعة.

ولقد شهد القرن السادس في المغرب نشاطا كبيرا في مجال
الدراسات النحوية ولكننا لا نشير الا الى الاعمال الطريفة الرامية الى
الاحياء والتجديد، ومن ذلك مشروع العلامة ابن مضاء لاصلاح النحو
المضمن في كتابه الرد على النحاة فانه يشتمل على اقتراحات عملية
لتيسير قواعد الاعراب والتخفيف من التعليقات المنطقية التي عقدت
هذا العلم، وكان ابن مضاء يتولى منصب قاضي الجماعة في مدينة
مراكش، وله صلة بالخليفة الموحد يعقوب المنصور، فلاشك ان آراءه
هذه كانت وليدة الحركة العلمية الشاملة، التي قامت في ذلك العصر.

وتأدت فكرة اصلاح النحو وتيسير قواعد الاعراب الى العصر
المريني فظهر اول نحوى طبقها بالفعل في كتاب تعليمي صغير طار
صيته في المشرق والمغرب وصار هو الكتاب المفضل في الدراسة
الاولية لعلم النحو عند العرب كافة، ذلك النحوى هو ابن أجروم،
وكتابه هو مقدمة الآجرومية المعروفة، ان هذا الكتاب الصغير الحجم
كان تجربة ناجحة لتبسيط النحو العربي وجعله بمتناول الجميع
لان صاحبه الذي كان نحويا متمكنا من مادته ومعلما مخلصا لمهنته
اختار له من المذاهب النحوية اوفقها، ونبذ المسائل النظرية مقتصرًا
على ما له نتيجة في تركيب الجمل او نطقها، وفضلا عن انه لم يكن
يتقيد بمدرسة البصرة، ولا بمدرسة الكوفة، فانه كان يجتهد في
بعض الاحيان، ويستقل بالرأى فمثلا الاعراب عنده امر معنوى كما

قال الكوفيون ولكنه قسمه الى اربعة اقسام فذكر الجزم كما عند البصريين، ولم يذكر فى التوابع عطف البيان اكتفاء عنه. بالبدل وهى طريقة الكوفيين ، وطرد باب النواصب فجعلها كلها ناصبة بنفسها واستغنى عن تقدير ان المضمرة وجوبا او جوازا بعد هذه الاداة او تلك كما هو مذهب الكوفيين فى بعضها، وهكذا لم يكن ابن ابروم متحجرا ولا جبانا ففكر فى الاصلاح واقدم عليه، وان يكن فى دائرة صغيرة. ولو ان المصنفين فى النحو بعده درجوا على مثلى طريقه لسهل النحو ودنت قطوفه للطالبيين.

وانتقل ايها السادة الى الكلام على تيسير الكتابة العربية فلا ادعى انه كانت هناك محاولات من هذا القبيل، وانما احب ان اوجه نظركم الى دراسة الخط المغربى واشكالاته المختلفة، من مسند ومجهر ومبسوط، والاصل الكوفى الذى تفرع عنه، وهذا له هندسة خاصة يخالف بها الكوفى المشرقى الذى هو الاصل الاصيل، وابدأ فاقول ليس المراد من هذه الدراسة الا الاستعانة بها على تيسير الكتابة العربية بما يمكن ان يقتبس من هذا الخط من بعض الخصائص كنقطة القاف الواحدة من فوق، بدل نقطتين فى مقابل نقطة الفاء الواحدة من تحت، واحيانا يستغنى عن نقطها بالمرّة وكمطفة الياء بعد الكسرة فى مثل على، والعربى، والذى، معنا لا لتباسها بياء الالف فى مثل على والمصطفى وبلى. وبعض الحركات المختصرة كالشدة المضمومة التى تمثل بصورة الرقم (٨) الهندى فوق الحرف المشدد المضموم، والشدة المفتوحة التى تمثل بصورة الرقم (٧) الهندى فوق الحرف

المشدد المفتوح والشدة المكسورة التي تمثل بصورة الرقم (٨) الهندي نحت الحرف المشدد المكسور، وغير ذلك من التسهيلات التي توخاها الخطاط المغربي ويمكن ان يستفاد منها في تيسير كتابتنا العربية، بل وان يقرب بها ما بين الخطين المشرقي والمغربي .

وما دمت قد ذكرت الخط المغربي والارقام الهندية، فاني اشير الى الارقام المستعملة عندنا والمعروفة في بلاد الغرب عموما بالارقام العربية. ان هذه الارقام تسمى عندنا في كتب الحساب القديمة بالحرف الفباري او حرف الفبار ويقال ان البابا سلفيسترى الثاني هو الذي ادخلها الى اوربا واشاعها هناك حتى حلت محل الارقام الرومانية لسهولة استخدامها وضبطها، وكنا دائما نرى ان العرب اولى باستعمالها لانها منهم واليههم، ولان الارقام الاخرى المستعملة عندهم تنسب الى الهند، فالصواب ان يرجعوا الى ارقامهم التي اهدوها الى العالم المتمدن معتزين بها ومتوحدين في الوقت مع شعوب هذا العالم على اننا لم نكن نحقق اصلها ومصدرها وتم نزل نتتبع تاريخها واقدم كتاب ذكرت فيه حتى وقفنا في الصام الماضي على كتاب تلقيح الافكار في العمل بحروف الفبار للرياضي المغربي ابن الياسين، وهو مخطوط محفوظ في المكتبة العامة بالرباط فوجدناه يذكر ان حروف الفبار هذه لها شكلان احدهما هو هذا المستعمل في المغرب (والمعروف عند الاوربيين بالارقام العربية) والثاني هو هذا المعروف بالارقام الهندية المستعمل في بلاد المشرق، ورسم اشكالها على المهود فيها، فتبين لنا ان كلا الرقمين عربي، وان المشرق اخذ شكلا

والمغرب اخذ شكلا، وهى حقيقة مدهشة لم نملك ان اطلعنا عليها جميع المهتمين بهذا لبحث واحلناهم على انكتاب المذكور. وبما ان هذا المؤلف هو من اهل القرن السادس الهجرى، وانه يشير فى كتابه الى شدة تطلبه لهذه الارقام وضياها منه اولاً، ثم عثوره عليها ثانياً عند بعض اصدقائه، فان تاريخ ظهورها يكون هو هذا القرن بالذات .

سيدى الرئيسى سادتى.

بعد هذا العرض الوجيز اسمحوا لى ان ارجع عودى على بدئى لاقول ان المغرب الذى هذا وزنه فى خدمة العلم واللغة العربية قديما والذى يحتوى على كنوز رائعة من حضارة عربية اصيلة سبق وصفها، اذا كان قد اصبح ممثلاً فى مجمعكم الموقر فلن يكون حاضره اقل شأناً من ماضيه فى خدمة العربية والبر بها والغيرة عليها والتعاون معكم على مواصلة العمل الذى بدأتموه فى غيابه لاعلاء رايها واعزاز جانبها والبلوغ بها الى اوج الرقى والكمال. علما منه بان حياة امتنا العربية وانبعثت حضارتها من جديد رهمن بحياة لفتها ومجاراتها للنهضة العلمية الحديثة، ولانه وهو شعب مؤمن بمرويته اشد الايمان ومؤمن بالتطور كذلك، فان رجاله الفيارى وشبابه الابرار لن يهدا لهم بال، ولن يقر لهم قرار، حتى يروا الكلمة العربية والحرف العربى وقد رد لهما اعتبارهما يفزوان كل مكان من الوطن العربى ويحلان فى المدرسة والمصل والبيت عملها الذى لا ينازعهما فيه غيرهما، وهذا من عمل المجمع الذى يجب ان تتظافر عليه جهود

جميع الشعوب العربية حتى يتحقق الجلاء الاكبر جلاء الرطانة الاعجمية
عن لساننا ، والفكرة الاجنبية عن ثقافتنا ، فنتحرر التحرر الكامل
وتصبح القومية العربية حقيقة ثابتة يلتف حولها العرب اجمعون
في مشرق البلاد ومغربها. من الخليج الى المحيط، حيث يرابط
اخوانكم المغاربة ابناء طارق بن زياد وادريس بن عبد الله ويوسف
بن تاشفين، وعبد المؤمن بن علي، وابي الحسن المريني والمنصور
الذهبي ومحمد الخامس .

هل يفقد الاثر الادبي قيمته بإعادة نشره ؟

قال لى هل قرأت قصيدة فلان التى عارض بها نونية ابن زيدون، والمنشورة فى العدد الاخير من المجلة؟ وكان يعنى مجلة يشرف على تحريرها. فقلت له لقد قرأتها منذ عشر سنوات فى مجلته التى كان ينشرها بتطوان. فاجابنى كيف يرسل الينا شيئا سبق له نشره، فيورطنا مع القراء؟ فضحكت، وقلت له انت ايضا من اصحاب هذا الرأى الفائل؟ قال واى رأى؟ قلت هذا الذى عبرت عنه باستنكار وجعلته مما يوقع المجلة فى ورطة. فقال الا ترى انه ما لا يليق بمجلة محترمة ان تعيد نشر ما سبق ان نشر فى مجلة أخرى؟

قلت ان ما لا يليق بمجلة محترمة هو ان تنشر التافه والفت من الانتاج الادبى او العلمى ان كان فى الانتاج التافه والفت ما يصح ان يوصف بأنه ادبى او علمى. وان ما لا يليق بمجلة محترمة هو ان تنشر المقالات والابحاث التى ليس لاصحابها منها الا الهيكل العظمى المخيف، واما كل ما يزينها من افكار وآراء فانه مما سطروا عليه وتبنوه بغير خجل ولا حياء. وان ما لا يليق بمجلة محترمة هو ان تكون صاحبة دعوة ورائدة فكرة، فتنتشر ما لا يتفق ودعوتها، وما يروج

لغير فكرتها بدافع ملء الصفحات الفارغة. ولا تبالي ان تبدو املم
الناس متناقضة مع نفسها. متهافئة ازاء مبادئها وغاياتها.

اما اعادة نشر الاثر الذى سبق نشره فى مجلة اخرى. فليست
ابدا مما لا يليق بمجلة محترمة. ولا سيما اذا كان مقدما من طرف
صاحبه الذى انشأه وله الحق فى اعادة نشره متى شاء واينما شاء.
ان المجلة التى تحرص على ان تكون محترمة. اول ما يجب
عليها هو ان تحترم قراءها. وذلك بان يكون ما تقدمه اليهم من المواد.
طبقة عالية من الانتاج الذى ينسب ثقافتهم. ويربى ذوقهم. ويفتح
اعينهم على آفاق من المعرفة والادب والفن لربما كانت محجوبة عنهم
مجهولة لديهم. والاثر الذى خضع مرتين لامتحان الناشر والناشرين
وجاز هذا الامتحان بنجاح لابد ان يكون فى الذروة من هذه الطبقة.
فماذا على المجلة التى نشرته ثانيا. ولا سيما بعد مرور مدة كافية
لجعل الذين قرأوه اولا يستفيدون من اعادة قراءته. بله الذين لم
يقرأوه اطلاقا ؟

وقلت لصاحبى وما أنت فى سعة اطلاعك وعلى علاقتك الشخصية
بصاحب القصيدة. قد فاتك ان تعرف قصيدته هذه حتى ارسلها
اليك فقرأتها ورأيتها جديرة بالنشر. ومثلك كثير ممن لم يطلع عليها
ولم يكن ليعرفها لو لم يكتب لها ان تنشر من جديد.

ان كثيرا من الصحف والمجلات تعيد نشر مقالات وابحاث وآثار
ادبية عن زميلات لها لما ترى فيها من الفائدة والمنفعة لقراءها. ويكون
من الواجب الادبى عليها ان تنوه بالصحيفة او المجلة التى نقلت عنها.

فما هو الفرق بين ذلك وبين الاثر الذى تعيد نشره معززة باذن صاحبه ورغبته فى نشرها له حين يرسله اليها مباشرة وبدون واسطة؟ وتوجهت بهذا السؤال لصاحبي قائلا: من اين عرفنا انا وانت وكثير غيرنا هذه الآثار الادبية الكبرى للادباء المعاصرين، مثل قصيدة المعلم لشوقي وتائية اللغة العربية لحافظ وهي الحقيقة للزهاوى وما سواها لهم ولغيرهم من ادباء جيل النهضة العربية الحديثة؟ اليس من تداول نشرها وتناقل الصحف والمجلات لها فى الشرق والغرب منذ ان قالوها الى الآن، فضلا عن ظهورها فى دواوينهم والمنتخبات التى الفت من اشعارهم والدراسات التى كتبت حولها؟

بل ما الذى حفظ لنا آثار الادباء السابقين من عصر الجاهلية الى عصرنا الحالى، سوى هذه المجموعات التى ألّفها العلماء والرواة ولم يستنكف احد منهم ان يثبت من ذلك ما اثبتته غيره، ولا ان يضمن تأليفه القصيدة التى سبق ان تضمنها تأليف آخر، لما ان الأثر القيم يفرض نفسه على الجميع، ويرى الناس خلو الكتاب منه نقصا فى ذلك الكتاب ؟

واذن فاعادة نشر الاثر قديما وحديثا هي وسيلة الاحتفاظ به وصونه من الضياع، فضلا عن كونها هي الكفيلة باذاعته اولا وسيروrote بين الناس، فالمجلة التى تقوم بهذا العمل انما تسهم فى نشر المعرفة وكفالة الانتاج الادبى، وهي بذلك اجدر بالاحترام وان ينظر اليها بالعين التى كان ينظر بها الى اولئك الاعلام من رواة الادب ومؤلفيه .

وننظر الى كاتب الاثر الادبي، فنجد أنه قد تكبد مشقة التفكير فيه أولا، ثم مشقة اخراجه الى حيز الوجود، وربما كان عليه ان يراجع ويقارن ويحقق، خصوصا اذا كان الاثر بحثا علميا او دراسة ادبية، ويأتى بعد ذلك تعب نقله او نسخه على الآلة الكتابية، وقد يدفع اجرة ذلك اذا كان لا يحسنه.. فاذا بعث به الى احدى الصحف او المجلات ونشر فى حدود دائرة الصحيفة او المجلة، اصبح حقه فيه منتهيا ونحبه مقضيا، على رأى أصحاب النشرة «المحترمة» التى ربما لم تدفع له شيئا بدل اتعابه او دفعت له النزر اليسير الذى لا يضمن ولا يضى من جوع.. فاذا رأى ان الاثر لم يكن له الصدى المطلوب لضيق دائرة النشر، او انه نشر مشوها بسبب تصرف هيئة تحرير المجلة او الصحيفة التى نشر فيها او عدم تصحيحه، وبدا له ان يعيد فيه النظر ويحور منه بالزيادة او النقصان وتغيير العنوان الذى قد يكون مفتاتا عليه فيه، ثم بعثه الى صحيفة او مجلة أخرى فرضيته ونشرته، قامت قيامة بعض الفضوليين وكتبوا ناعين عليه عمله هذا ومعتبرين انه ارتكب احدى الفظائع.

ولماذا؟ أليس هو انتاجه الخاص، ومن حقه ان ينشره وحتى ان يستفيد منه كلما وجد لذلك سبيلا؟ وما رأى هؤلاء السادة فيما لو اخرج الكاتب اثره هذا فى كتاب او دفتر، وما الفرق بين ذلك وبين اخراجه ثانيا فى نشرة عمومية؟

وهؤلاء الفنانون من ممثلين وموسيقيين ومغنين لماذا كان لهم الحق فى عرض اعمالهم الفنية علينا مكررة معادة فى كل وقت وحين

من غير ان ينكر عليهم احد ويستهن عملهم انسان، مع العلم بانهم يستفيدون اضعاف ما يستفيده الاديب، وان حقوقهم محفوظة لهم كلاً ما عرضت اعمالهم واذيع انتاجهم باى وسيلة وفى اى زمان ومكان؟ ولقد يكون من هذا الانتاج ما يفتى، وما يعى ويصم، ومع ذلك فانه مفروض عليك ان تسمعه او ان تسمعه وتراه كلاً اذرت مفتاح مذياعك او تلفازك، تريد ان تتسلى وتنعم بسوية هنيئة فى جو فنى ساحر، فاذا بالانغام الناشزة والحركات البهلوانية تثيرك وتزعجك، وليس لك بد من ان تنتظر انكشاف الغمة وانجلاء الفاشية لما يحتمل ان ياتى به البرنامج من حسنات يذهبن تلك السيئات.. وهذا فى حين ان الكاتب لا يفرض عليك نفسه، لانك حر فى قراءته او عدمها، وسهل عليك جدا ان تتخطاه الى غيره، وتتصفح المجلة فتقرأ ما شئت وما يروق لك من مقال او بحث او قصة او شعر، وتترك الاثر المعاد نشره لمن لم يقرأه من قبل، على انك هنا لم تعب الاديب لادبه وانما تعيبه لاعادة نشر هذا الادب، ونحن نعيب الفنان المزعوم، ذلك الذى يفرض نفسه علينا بمعاداته ومكرراته الممجوجة، بتفاحة عمله وضحاياته، بتسوره على حرم الفن وتشيعه بما لم يعط، فبين النظرين فرق واضح.

وبعد فانا طبعا لا اقول بان المجلة او الصحيفة لا يكون لها رصيد الا من هذه الآثار التى سبق نشرها فى غيرها، فالمجلة او الصحيفة من هذا القبيل لا اعتبار لها عند احد وما هى الا كناش «كوبياء» مما يستعمله التجار واصحاب الشركات لحفظ نسخ من مراسلاتهم

واوراق حساباتهم. والذي اعنيه هو ان الانثر الادبى الذى يعاد نشره ولو اكثر من مرة لا يفقد قيمته بذلك. وان المجلة «المحرمة» ما نشرته حتى قدرت قيمته، ولا غضاضة عليها بنك ولا يحق لها ان تنذر من الاديب الذى بعث لها به ما دام له قيمة، ولو دفعت له بدلا، فكيف ان لم تدفع شيئا. وكفى بعدم علمها هى ومحرروها بسبق نشره شهادة على جدته وفائدته .

لسان الدين ابن الخطيب :

الكاتب الساخر

تكلم الناس عن لسان الدين ابن الخطيب وزير غرناطة ،
واديب الاندلس الكبير بما لا مزيد عليه، فمنهم من خص ناحية من
نواحي شخصيته المتعددة، ومنهم من عم كالحافظ المقرئ صاحب نفح
الطيب الذى هو من اكبر الكتب المعروفة التى وضعت فى ترجمة
شخص معين، وعلى كثرة ما تناول الباحثون هذه الشخصية الفذة
وادبها الخصب بالدرس والتحليل، فان عنصرا اصيلا فى ادب لسان
الدين لم يلفت نظر احد من الباحثين وكان حريا ان يحظى باهتمامهم
هو عنصر السخرية فى كتابته.

والادب العربى ان كان يحفل بصور ونماذج بديعة جدا من
السخرية فى هذا الشعر الذى نسبه شعر الهجاء من لدن العصر الجاهلى
الى العصر الحديث. فانه فى النثر يقل ان يتخذ اسلوب الفكاهة وسيلة
للتعبير وهو ادنى مراتب الادب الساخر ولذلك بقيت رسالة الترييع
والتدوير للمحافظ والرسالة الهزلية لابن زيدون علمين فى هذا الباب
فى الادب العربى كله.

وقد ظهر فى العصر الحديث كتاب نزعوا فى اعمالهم الادبية الى الطريقة الهزلية كالمويلحى والبشرى والمازنى ولكن الانصاف يقتضينا ان نحكم بان الجاحظ ما يزال امام هذه الطريقة، وبذلك نعلم ان ادبنا العربى فقير فى هذا الفن وان سمته الغالبة عليه هى الجدية التى تبلغ احيانا الى حد التزمّت ولا ادل على ذلك من ان آثار لسان الدين ابن الخطيب التى تكتسى صبغة الهزل لم تكن من الآثار التى عنى بها المترجمون له والتى ظفرت بتنويههم، مجاراة لثبات العام الذى ابتعد بالاعمال الادبية عن معانى اللهو والتسلية.

ان الحياة ذات وجهين، وجه متجهم عابس باسمر، ووجه طلق ضاحك مستبشر. ولتصويرها وحكايتها على الاقل يجب ان يكون الادب معبرا عن الحالتين ومتلمحا لكلا الوجهين، كيف وان ما تطالعنا به يوميا من مأس، وما تفرقنا فيه من احزان، يدعونا الى ان نقاوم جدها بالهزل وان نغمر افراحها واتراحها باسباب المرح والحبور؟ ولقد ادرك اليونان ثم الرومان هذه الحقيقة فمثلوا الحياة بمآسيها ومهازلها فى ادب حى لم يفتأ الغربيون فى نهضتهم الحديثة ان نسجوا على منواله فبلغوا به قمة الابداع الفنى ولم يغفلوا قط عن ان يراوحو فيه بين الجد والهزل والمأساة والمهابة ويمادلسوا بين انكفتين ان لم يرجعوا الثانية على الاولى. وذلك ما يشعر به تقسيمهم الرواية التمثيلية الى الدرام والميلودرام والكوميدي.

ونحن امام ما يتطلبه منا ادبنا الحديث، من ملافاة هذا النقص، نشعر بمزيد من القبطة والسرور حينما نمثر على اثر ادبى من هذا

القبيل لا سيما ان كان من صنع علم من اعلام الادب كهاجبنا لسان الدين، فان ذلك مما يجعله فى نهاية الجودة ويضمن له الخلود.

ولسان الدين، الذى يلقب بنى الوزارتين، هو كما نعلم رجل الحكم والسياسة والادارة فى دولة الاندلس المتداعية. كان بمثابة الوزير الاول او رئيس الحكومة فى الدول العصرية بل كان اكثر من ذلك، الشخص الوحيد الذى يشرف على تصريف شؤون الدولة المدنية والعسكرية فى مملكة غرناطة فى القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى، اى فى الوقت الذى كانت دولة العرب فى الاندلس تترنج للسقوط. فكيف تاتى له امام مشاغله العديدة والمشاكل المعقدة التى تواجهه كل يوم، ان يفرغ للادب، وللادب الساخر بالخصوص؟

والجواب ان لسان الدين هو احدى معجزات الدهر، فان اعماله الادبية بلغت من الكثرة والجودة ما لو قسم على ايام حياته ل زاد عليها، والسر فى ذلك انه كان مبتلى بالارق، فبعد ان يطوى صفحة النهار فى تدبير امور الدولة ينشر صفحة الليل للانتاج الادبى، ومن ثم لقب بنى العمرين ايضا. ولكن هذا ان فسر سبب اقباله على الادب ووفرة تصانيفه، فانه لا يفسر علة نزوعه الى التسخيرية واخذه بها نفسه فى بعض كتاباته الادبية، بل هو حرى ان يكون صارفا له عن كل ما هو من عبث الحياة ولهوها بسبيل. فان الارق داء ولا تسلية مع الداء. غير ان من عرف طبيعة الحياة اللاهية فى الاندلس، وما لاهلها من قدرة على اغراق احزانهم فى بحر من المرح وانسروور، لا يستغرب ان يقابل لسان الدين حياة البلاط الجمادة بوجه متهلل بشوش وان

يمزح والبساط ابعد ما يكون عن المزاح. ويضحك فى حين انه احق بالبكاء. انها فى الحقيقة فلسفة من اكتنه باطن الحياة واستكشف سرها فاستوى عنده البؤس والنعيم والوجد والفقد والاقبال والادبار، فلم يحزن؟ وعلام يياس؟ اليس خيرا له ان يهزل ويسخر؟

واذن فان لسان الدين كان يستمد عنصر السخرية فى كتابته من طبيعته الاندلسية المفرطة بالنكتة والفكاهة والتي لا تحتل الحياة على انها جد كلها فتسوغها بالبسط والانشراح، ولكن الذى ينبغى ان نرده الى هذه الطبيعة من آثاره الادبية هو ما تتجلى فيه روح الدعابة والنكتة البريئة البعيدة من الاذى والايلام، فانه الذى يمثل مسرح الاندلسيين ولطف شمائلهم، وهو جانب من ادب لسان الدين الساخر. يملك على القارئ لبه بما فيه من متعة النفس والقلب والتسرية عنهما. وهناك جانب آخر من هذا الادب غلبت عليه صفة الهزء والهمز واللمز، فتجسمت فيه السخرية بمعناها الكامل، ولم يقف عند حد من التنقيص والتحقير، فبادنى تأمل. يحكم الناقد انه صادر عن روح التشفى والانتقام وحالة الغضب التى سيطرت على الكاتب فلم يملك معها زمام نفسه حتى قال ما قال.

وهذا اللون من ادبه الساخر كل السخرية، هو اكثر من اللون الآخر الذى انما يميل الى الدعابة والنكتة البريئة. ذلك ان الدوافع اليه كانت كثيرة، فالرجل فى منصبه وجاهه وفضائله، منى بحسد الحاسدين ودس الدسائسين، وحينما كان فى اقبال من دولته، كان الناس يتهافتون على القرب منه والتودد اليه، فلما تنكر له الدهر

اعرضوا عنه واثتمروا به، وكان اشدّهم سعيا في ذلك من يعدون من صنائعه وغرس نعمته، ثم رمت به الاقدار الى حيث جهل قدره وعومل معاملة سيئة. فكان ذلك بما آتاه تائوته واشعل نار غيظه فجرى قلعه بما ذب به عن عرضه وانتقم لنفسه من خصوم لم يكونوا شرفاء. وهكذا نجد له في هذا الصدد تأليف قائمة بذاتها مثل كتاب خلع الرسن في التعريف باحوال ابن الحسن وكتاب مثل الطريقة في ذم الوثيقة ورسالة المفاضلة بين مقالة وسلا، فضلا عن ترجمة القاضي ابن الحسن في الكتيبة الكامنة وترجمة ابن زمرك فيها ايضا وغير ذلك، في حين اننا لا نجد له الا موضوعات قليلة نحي فيها منحى اللهو البريء والمزاح الخفيف، على ان من تأليفه ما يجمع بين الخطتين كعميار الاختيار بين المعاهد والديار، فانه فيه يجرح ويأسو، ويلين ويقسو بحسب المقامات وما تمليه عليه نزعاته النفسية.

وابن الحسن الذي ألف فيه كتاب خلع الرسن هو القاضي ابو الحسن بن عبد الله النباهي المالقي، قاضى غرناطة الذي ابدأ واعاد في التعريض على لسان الدين واقامة الحجج والبيانات على كفره وزندقته توصلا لاستحلال دمه وازهاق روحه لما خانته دولته ولجأ الى المغرب فارا بنفسه من غضب السلطان وانتقامه، وذلك بعد ما كان من خاصة اودائه وخلصة اصدقائه، ولقد هم بالقدوم الى المغرب لاقامة دعوى الالهاد عليه لولا ان الدولة في المغرب حسنت نزيلها وردت كيد اعدائه في نحورهم قائلة لماذا لم تقوموا بهذه الحملة عليه لما كان بين ظهرائكم فحسبوا وذلوا. وكان من النتائج الطبيعية

لهذا الموقف المخزى من القاضي ابن الحسن ان يؤلف لسان الدين كتابه خلع الزمن في بيان مساوى هذا القاضي ويرفعه للسلطان ابي فارس المرينى ملك المغرب الذى حماه ودفع عنه.

ويقول ابن الخطيب في كتابه هذا: «انه لا شئ فوقه في الظرف والاستطراف يسلى الشكالى ونستغفر الله تعالى» .

اما كتاب مثل الطريقة فكان الذى دعاه لوضعه هو سوء تفاهم وقع له مع بعض الاناضل المتعاطين لصناعة التوثيق، وكان هو بحالة من الغربة وادبار الدولة جعلته يتوجس من كل قول وعمل يواجه به، اهانة له واستخفافا بقدره، فكتب هذه الرسالة في ذم الوثيقة والموثقين والتشهير بهم والتشنيع عليهم، وما كان ذنب صاحبه الا انه لم يجب دعوة له مع الاعتذار عن ذلك.

ومن هذا الباب ايضا مقامته في المفاضلة بين مدينتى مالقة وسلا. ان سلا كانت مهوى فؤاد لسان الدين في هجرته الى المغرب ومحل اقامته في تلك المدة معززا مكرما من اهله ومن السلطان، فما حدا به الى الزراية عليها بذلك الشكل الذى ضمنه تلك المقامة الاهاجس من هواجس الحالة النفسية القلقة التى كان عليها كاتبنا اذ ذاك .

والقول في ابن زمرك وما ترجم له به في الكتيبة الكامنة هو مثل القول في القاضي ابن الحسن. فقد كان هذا الاديب من تلامذة لسان الدين ومن درج بين يديه في مناصب الدولة، وهو يعتبر في الحقيقة ربيب نعمته، لكنه لم يحفظ له عهدا ولا ودا ولا راعي فيه

الا ولا ذمة. وكان هو العامل الاساسى فى نكبته وقدم بنفسه الى فاس لما خلا الجو لخصوم ابن الخطيب فلم يقصر فى انتقاصه وامتحانه ولم يرجع الى الاندلس حتى قتل رحمه الله. فلسان الدين انما كان ينفس عن موجدته بما كتب فى حق خلفه على وزارة غرناطة الذى لم يقنع بان يرثه فى مجده ومنصبه بل سعى فى اتلاف نفسه ومضايقته فى منفاه البعيد .

ونحن فى هذا البحث القصير لا نستطيع ان نستوعب كل ما كتبه لسان الدين على هذا النحو من ادب ساخر، ولا حتى ان نلم به إماما خفيفا، ولذلك فاننا سنقتصر على ايراد نموذجين منه فقط احدهما مما سلك فيه مسلك الدعابة والاحماض، والثانى مما ضرب فيه على وتر السخرية اللاذعة والتعريض القاضح، وهما نموذجان كافيان فى نظرنا لابراز هذا العنصر الفنى من كتابة ابن الخطيب ولفت انظار الباحثين اليه، ولا سيما مؤرخى الادب منهم.

فالنموذج الاول رسالة كتبها الى الشيخ أبى عبد الله محمد بن على العبدري الملقى المعروف باليتيم من اهل مالقة، وكان من اهل العلم والفضل والدين والادب. احتسرف التوثيق والتكتيب، وكان يقرئ الحديث والتفسير وكتب الرقائق للعامة بابدع نغمة، دام على ذلك اكثر من ثلاثين سنة. وجاء فى رسالة ابن الخطيب اليه مما يتعلق بحرفة التكتيب قوله، نقلا عن الجزء الثامن من كتاب الاحاطة له، مخطوط الاسكوريال :

«وتعرفت ما كان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم.

والحنين الى العهد القديم، فسمرت باستقامة حاله، وفضل مآله، وان لاحظ الملاحظ ما قال الجاحظ، فاعتراض لا يرد، وقياس لا يطرد حبذا والله عيش أهل التأديب، فلا بالضنك ولا بالجديب، معاودة الاحسان، ومشاهدة الصور الحسان، يمينا ان المعلمين، لسادة المسلمين، واني لانظر منهم كلما خطرت على المكاتب، امراء فئاد المراتب، من كل مسطر الدرة، متقطب الاسرة، متنمر للوارد تنمر الهرة، يغدو الى مكتبه، كالامير في موكبه، حتى اذا استقل في فرشه، واستولى على عرشه، وترنم بتلاوة قالونه وورشه (1) اظهر للخلق احتقارا، وازرى بالجبال وقارا، ورفعت اليه الحصوم، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم، فتقول كسرى في ايوانه، والرشيذ في زمانه، والحجاج بين اعوانه، فاذا استولى على البدر السرار، وتبين للشهر الفرار، تحرك الى الخرج، تحرك القرد الى الفرج (2).

استغفر الله مما يشق على سيدي سماعه، وتشمئز من ذكره طباعه، شيم اللسان، خلط الاساءة بالاحسان، والغفلة من صفات الانسان، فاي عيش كهذا العيش، وكيف حال امير هذا الجيش، طاعة معروفة، ووجوه اليه مصروفة، فان اشار بالانصاف، لتحقيق القصص، فكاننا طمس الانواء، ولام بين الشفاء، وان امر بالانصاح، وتلاوة

(١) قالون وورش. هما راويا نافع المدني احد القراء السبعة الذي يأخذ اهل المغرب بقراءته.

(٢) هو من قولهم في المثل: ازنسى من قرد ويراد به رجل يسمى قرد بن معاوية.

الالواح، علا الضجيج والعجيج، وحف به كما حف بالبيت المحجيج،
وكم بين ذلك من رشوة تدس، وغمزة لا تحسن، ووعد يستنجز،
وحاجة تمجل وتحفز.

هنا الله سيدى ما خوله، وانساء بطيب آخره اوله، وقد بعث
بدعابتى هذه مع اجلال قدره، والثقة بسعة صدره، فليتلقها بيمينه،
ويفسح لها فى المرتبة بينه وبين خدينه، ويفرغ لمراجعتها وقتا من
اوقاته بمقتضى دينه، وفضل يقينه، والسلام.

ان فى هذا النموذج الطريف من مداعبة لسان الدين الحلوة،
ومباسطته لصديقه المكتب، لفنونا من البلاغة وضروباً من البيان
تجمله من ارقى النماذج الكتابية على الطريقة الهزلية. وهو مما تبدو
فيه نفس الكاتب على سجيتها، فلا حقد ولا موجدة، الا الاحماض
ومفاكهة المخاطب، وقضية التندر بالمعلمين شهيرة، وما للجاحظ فيهم
من مقال وما يحكيه عنهم من مغربات الاخبار، هو مما لم يفت صاحبنا
لسان الدين، الا انه استثنى صديقه من ذلك وجعل الاعتراض عليه
بامرهم غير وارد، والقياس بالنسبة اليه غير مطرد، وفى ذلك من
المجاملة لهذا الصديق ما لا يخفى ثم اتى بفقرات فى منتهى الحسن
يقرظ بها المعلمين ويطرى احوالهم: «حبذا والله عيش اهل التأديب،
فلا بالضنك ولا بالجديب، معاهدة الاحسان ومشاهدة الصور الحسان،
يمينا ان المعلمين، لسيادة المسلمين». وهذه العبارة الاخيرة اشبه ما
تكون بقول شوقي فى التنويه بشأن رجال التعليم:

قف للمعلم وقته التبجيلا كاد المعلم ان يكون رسولا

ان ابن الخطيب سبق شوقى الى الاعتراف بجميل هذه الطائفة من الناس بعدة قرون وفي الوقت الذي كان جل أهل الادب يزرون عليهم ويجعلون رأى الجاحظ فيهم هو الحكم الفاصل. لكن هذا المدح البالغ لم يمنع الكاتب من ان يعقب عليه بوصف بارع لحياة الكتاب والمكتب والاطفال، فيه جد، وفيه هزل، وجده اعجب من هزله، فهو تارة حقيقة ابداع من الخيال، وتارة مشاهد ولقطات اضيف اليها من سحر الكلمة وسر الحرف ما ابرز جمالها وحيويتها بشكل أسر واخاذ. وأعد ان شئت قراءة قوله: واني لانظر منهم كلما خطرت على المكاتب الخ. وقوله: وكيف حال امير هذا الجيش الخ. ولعل من الانصاف القول بان السجع هنا قد زاد الوصف رونقا وجمالا، لانسجامه وعدم تكلفه. والسجعة الوحيدة التي دعا اليها الاحماض وبدت كأنها نابية عن الذوق، قد اعتذر عنها الكاتب بعدة سجعات.

وقد اخترنا هذا النموذج من بين نظائر له، كهذه الرسالة التي يخاطب بها احد اصدقائه حين ولى الحسبة قائلا فيها: «اهنيك، ببلوغ تمنيك، واحذر من طمع نفس بالفرور تمنيك». الخ. وهذا الوصف انتهى عرف به احد الولاة، «رجل غليظ الحاشية، معدود في جنس السائنة والماشية، تليت على العمال به سورة الغاشية، الخ. لانه تميز دونها بلطف الماخذ وسلامة القصد فلم يقع فيه تجريح ولا تهزيء» وسلم بذلك لفرض المباشطة والفكاهة.

واما النموذج الثاني وهو ما ذهب طرفا في السخرية ولم يقف عند حد من التهمك فقد رأينا ان يكون هذه الترجمة التي كتبها ابن

الحطيب في الكتيبة الكامنة للقاضي النباهي وهي منقولة من مخطوطة خاصة لهذا الكتاب :

«القاضي علي بن عبد الله بن الحسن النباهي البني المدعو بجمسوس(I).. اطروفة الزمن، التي تجل غرائبها عن الثمن، وقرد شارف من قرود اليمن، ذنبا واحداقفا، وفروة واشداقفا، واشارة واصطلاحا، وخبثا وسلاحا، لا فرق بينهما في الشكل، وقرب الفائط من الاكل، تشغل به انصبيان اذا بكت، وتتملح بذكره الزهاد بعد ما نسكت، وعن كل شيء امسكت، الا ان خلقه بالنسبة الى هذا الخلق، والوجه الطلق، حسنة جميلة، واصاف لومه، بالنسبة الى معارفه وعلومه، اوصاف ابن قاضي ميلة(I) عند ذكر الآداب المستميلة، ومثله ولا مثل له، لمن نفى الوجود وتخلله، لا يجلب لادب يرسم، ولا حظ من حسن الذكر يقسم ولا لظرف يتنسم، ولا لبركة تتوسم، انما جنب حماره في القياد، لحمل اوزار هذه الجياد، واطرف بزرافته الحارقة حجاب الاعتیاد، في مثل هذه المواسم الادبية والاعیاد(2) وما يعاب به الزين، كيلا تصيبه العين، ويعلو على البيوت تيممة، وان كانت الاوضاع ذميمة، من حوته، ورصاصة منحوته، ومرارة ثور،

(I) الجمسوس في اللغة: القميء الدميم.

(I) ابو عبد الله بن قاضي ميلة من ادباء الجزائر، معروف بركة الشعر.

(2) كانت العادة في المغرب استعراض الحيوانات الغريبة كالزرافة في الاعیاد، ولهذا يشير ابن الحطيب.

وطرف ذنب سنور(3)، واحماضا فى المرعى الخصيب ، واشاراً
 للفكاهة بنصيب، وكان لايه ببلده درجة الامير، من مولدى الحمبر،
 ينظف بيده ارحامها، بعد ان يحكم بالدهن اقحامها، ويستنطق بوحى
 بناته الصابئة الجاحدة، وينزى المير المحصور فيجبل الاتان بواحدة،
 وكانت امه ام جعسوس قابلة ذلك الوضع، ومقدرة الفطام والرضع،
 تولول عند الخلاص، وتعوذ المولود بسورة الاخلاص، وتقطع سره
 اليعفور(4) بالاطفور، وتلمق عينه باللسان، وتبارك بعد طهوزه بد'هن
 البلسان(5) ولما ترعرع ترعرع غصن السدر، من تحت القدر، وتخلت
 محاسن نفسه النفيسة من خلال ذلك الخدر ، تحرف ببيع
 الحروز(6) وحلق(7) فى محافل البروز، وتحدى باخراج الكنوز،

3 (عدد ابن الخطيب الاشياء التى يستظهر بها لدفع العين،
 ولعل ذلك مما كان شائعا بين العامة فى الاندلس. اما فى المغرب ناكث
 هذه الاشياء لا تستعمل فى هذا الغرض.

4 (اليعفور: الثزال وربما اطلق على الحمار، فقد كان للنبي
 (ص) حمار يسمى اليعفور .

5 (دهن عطر الرائحة يستخرج من زهر شجر يحمل
 هذا الاسم .

6 (جمع حرز وهو ما يعلق على الصبيان والمرضى للحفاظ
 والاشتشفاء .

7 (يعنى عقد حلقة فى الاسواق للعموم وهو ما يفعله اهل
 التهريج والشعوذة.

بذبايح العنوز(8) وادعى انه يعقد اللسان، ويكيف الانسان، وغرم
اللاتاء التى يفرمها بنو ساسان(9) ثم تعرف الى السلطان فى حكاية،
وقدمه قاضيا فى سبيل يمين شاردة ونكاية(I)، وجعله للفقهاء ببلده
عقابا، وارذالا اخضع به رقابا، وكشف عن وجه الانتقام نقابا، لما
آسفوه بحب طلعه، وافتوا من بعد قلعه، بوجوب خلمه، ثم اعاده
الله الى ملكة رقابهم، وحكمه فى مجازاة احتقابهم والدنيا قد ارملت،
وما حملت من الضيم حملت، فجاءت سيره فى الاحكام، سمر الندام، ونقل
اولى المدام، وشاهد خسة الدنيا على مملك الاقدام والموجد بعد الاعدام.
حدث من يوثق به من العدول قال جرى بين يديه الحديث
الشهير الجارى بمجلس القضاء «البيعان بالخيار ما لم يفترقا» فقال
لى سبحان الله يا فقيه. كانوا فى القديم مثلنا فى التبادية يتبايعون
بالخيار والفواكه كما نتبايع بالحبوب من القمح والشعير. فضحكت
وقلت لا ينكر ان يتصارف الناس بما يغلب عندهم اتخاذه ويكثر
وجوده، وقال آخر منهم نظر الينا وقد نزلنا من الماذنة عن ارتقاب

-
- (8) من عادة السحرة والمشعوذين الذبح على الاماكن المخوفة
ومظان استخراج الكتوز ويشترطون فى الذبيحة ان تكون عذرا.
- (9) بنو ساسان كناية عن الشعاذيين ويظهر انهم كانوا
يؤدون غرامة للدولة وهذا من ابن الخطيب اغراق فى التشهير بصاحبه.
- (I) يعنى ان السلطان ولاء القضاء ليمين فرطت منه فى
تولية اخس الناس نكاية بالعلماء والقضاة الذين سبق ان حكموا
بعزله وافتوا بخلمه.

بعض الاهلة ونحن اولو عدد وشارة، فاعجبناه، فقال يا اصحاب ! عذرت الليلة فيكم عمر (ض) في قوله: لا يسر احد في الاسلام بغير العدول. فقلنا بارك الله في سيدنا القاضي! تسر بنا ونسر بك ان شاء الله. قال المخبر: نعني مجرورا برجلك عن مجلس القضاء الى مصيب الرخصاء. ثم قال بعضنا لبعض: يا ترى ما الذي اراد ههنا المحروم؟ فقال فاضل منهم: صحف قول عمر بن الخطاب (ض) لا يؤسر احد في الاسلام بغير العدول، يريد الاسر بالشهادة. وقال بعض فضلائهم: سمعته يقول: تنكرون على ما يكثر تردده في كلامي من لفظ جمسوس كانه ليس من كلام العرب، بل ولا من لفظ القرآن فقلنا له اما في كلام العرب فربما واما في القرآن فلا نعرفه! فضحك وقال: سبحان الله! اعيذوا النظر. فقلنا والله ما نعرفه! فقال: ألم يقل الله في القرآن: ولا تجمسسوا ولا يفتب بعضكم بعضا. فقلنا والله ما قال الله ذلك قط، انما قال تجسسوا. قال فاسترجع، وقال يا فقيه حفظ الصغر، وقد ألف من مثل هذا جزء وسمى بتنبيه الساهي على طرف لتباهي. وهذا الشيخ ممن زين له سوء قوله وحبب اليه شتم خرمه واستعذاب بوله، فيكتب ويشعر، ويكلم ويسمر، وهو لا يفتن بالهزم به ولا يشعر، فما ينسب اليه مما كان يهذر به على الحروز اذا عقدها، واتبع النثث عقدها، يرفع بها الصوت ويجهر، ويؤتب من يتشاغل عنه بالحديث ويبهز، وكان به مخيلا وعلى الجنس من النوارية (١) بخيلا، الى ان شورك فيه بحكم الانجرار، وحفظ لكثرة

(١) يريد هذا الجنس من النور الموجودين بكثرة في الاندلس الى اليوم.

التكرار. قوله ، وهو اشف من معتاده واعلى من عتاده، فالله اعلم بصحة اسناده، وجهة استناده:

اعوذ من امسى عليه معلقا حجابى بطله او بياسين والحسن
من الجن والعمار (I) اوام ملدم وتلك هى الحمى ووسوسة النفس،
الخ .

لعلنا فى غير حاجة الى الاشارة لما فى هذا النموذج من سخريه جارحة وتهزيب، فاضح، وما ارتكب ابن الخطيب فيه من اساليب القول للنيل من هذا الرجل، فمن تشويه خلقتة أشبه ما يكون بهذا الفن الذى يدعى «الكاريكاتور» الى ذم لأخلاقه والتشكيك فى كفاءته العلمية، الى نبش عن الماضى بما فيه من اصل ونصل، الى ذكر علاقات الرجل بمن الى نظره من شهود العدل وكيف ولى منصبه الخطير وما كان فى ذلك من ازراء على اهل العلم والفضل ببلده، الى غير ذلك من ضروب الاهانة والتحقير مما يلوح جليا لكل ذى عينين، ولولا اننا نعلم الباعث على ذلك من الحصومة الحادة التى كانت بين الرجلين، ونعلم كذلك ما كتب ابن الخطيب عن خصمه فى كتاب الاحاطة قبل ان يفسد ما بينهما من ترجمة حافلة بذكر فضله ونبله، لداخلنا ريب فى هوية الرجل وتفاهة شخصيته، ولكننا بصدد ابراز هذا اللون من كتابة صاحبنا وتفننه فيه، فلا يهمنا من تقوله على خصمه وطعنه فيه الا طريقة ذلك القول واسلوب الاداء الذى

(I) العمار يراد بهم الحيات وما اليها من الحشرات المؤذية التى تسكن البيوت وتختفى فى مخابثها واما ام ملدم فقد فسرهما بمد.

تمثل فيه قول ابن الرومي اصدق تمثيل

في زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يضربه سوء تعبير
تقول هذ مجاج النحل تمدحة وان ذممت فقل خره الزنا بيسر
مدح وذم وذات الشيء واحدة ان البيان يرى الظلماء كالنور

حقا انه البيان والاقتدار والتصرف في وجوه الكلام وملكة
التعبير التي اوتي منها لسان الدين حفظا كبيرا، هي التي فتقت لسانه
واطلقت قلمه بهذه الحمم النارية والكلم الجهنمية، ومكنته من الباسها
نوب الهز والسخرية، بحيث يظنها الثظان هزلا وهي جد الجد، ويحملها
القارىء والسامع على ارادة المزح. فتأبى الا ان تعبر عن سوء القصد،
ومن ذلك يعلم ان هذا الفن من القول لا يحسنه الا ائمة البيان واعلام
البلاء، ناهيك اننا لا نعد منهم الا قلة من كتابنا الكبار كالجاحظ
وابن زيدون وصاحبنا لسان الدين.

ويلوح لنا في الفرق بين الجاحظ ولسان الدين ان الاول اوسع
افقا وابعد مرمى لانه يتناول معانيه من تراث العربية العام في حين
ان الثانى يظلم عليه الطابع الاقليمي فيتناول معانيه من الصعيد
المحل، وان كان لا يفضل الرصيد الادبي المشاع بين العرب كلهم،
ولعل هذا هو السبب في شهرة الجاحظ وذيوخ آثاره في هذا الفن،
مع تقدمه ورسوخ قدمه في كل فن من فنون العلم، والادب العربى،
وترسله في كتابته مما يوافق ذوق العصر واصاليب الكتاب المحدثين.

بحث في علم الجنس

من طرائف اللغة العربية التي تفردت بها عن غيرها من اللغات هذا النوع من الاسماء الذي يسمى علم الجنس، وهو معرفة لفظا ومعنى لانه ضرب من العلم لا ريب فيه، وأخطأ من عده من قبيل الثكرة وجعله كاسم الجنس في المعنى وان كانت تجري عليه احكام المعرفة وقد استأثر هذا النوع من الاسماء بانتباه النحاة، فتحدث عنه سيبويه في الكتاب بقوله «هذا باب من المعرفة يكون فيه الاسم الخاص شائعا في الامة ليس واحد منها أولى به من الآخر، ولا يتوهم به واحد دون آخر له اسم غيره، نحو قولك للأسد أبو الحارث واسامة وللضلعب نعاله وأبو الحصين وسمسم النخ.

وأشار له أبو القاسم الزجاجي في الجمل بهذه العبارة: «ومن المعارف ما يكون تعريفه بالجنس نحو قولك سام أبرص وابن قنطرة لضرب من الحيات وابن آوى وما أشبه ذلك. فاما ابن لبون فنكرة، واذا أردت تعريفه أدخلت عليه الالف واللام فقلت ابن اللبون، قال جرير

وابن اللبون اذا ما لزنى قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس

وتطرق اليه الزمخشري في الفصل بعد أن تكلم على أسماء
الاعلام التي أطلقت على ما يتخذ ويولف من الخيل والابل والغنم والكلاب
وغير ذلك فقال: «فصل وما لا يتخذ ولا يولف فيحتاج الى تمييز بين
أفراده كالطير والوحوش وأحناش الارض وغير ذلك، فإن العلم فيه
للجنس بأسره، ليس بعضه أولى به من بعض. فإذا قلت أبو براقش
وابن داية وأسامة وثعالة وابن قنرة وبنت طبق، فكانك قلت الضرب
الذي من شأنه كيت وكيت».

أصل الوضع

هذه التفرقة التي ألمح اليها الزمخشري بين ما يتخذ ويولف
من الحيوان فيطلق عليه علم شخصي وما لا يتخذ ولا يولف فيقتصر
فيه على علم الجنس هي مما يدخل فن تحديد معناه، وكأنها هي أصل
وضعه ثم توسع فيه فأطلق حتى على ما يتخذ ويولف من حيوان وغيره.
وأصلها لسببويه فإنه قال في الباب المذكور: «وإنما منع الاسد وما
أشبهه أن يكون له اسم معناه معنى زيد، ان الاسد(I) وما أشبهها ليست
بأشياء ثابتة مقيمة مع الناس فيحتاجوا الى أسماء يعرفون بها بعضها
من بعض، ولا تحفظ حلاها كحفظ ما يثبت مع الناس ويقننونه
ويتخذونه. ألا تراهم قد اختصوا الخيل والابل والغنم والكلاب وما
ثبت معهم واتخذوه بأسماء كزيد وعمر؟».

عبقرية

وعلى كل حال فهل تكون هذه محاولة من العرب في ماضيهم

(٢) بلفظ الجمع .

السحيق للخروج بلفتهم من نطاق اللغة الساذجة التي لا تعبر الا عن
 الملولات الحسية والخارجية الى مجال اللغة العلمية التي تعنى
 بتحديد المعاني والحقائق الذهنية، اذ كان ذلك هو ملحظهم الاول في
 وضع علم الجنس؟ ان هذا اذا صح يكون من اعظم الادلة على عبقرية
 الفكر العربي حتى في عصر الجاهلية .

تعريفات وشروح

ومما يلاحظ أنه بعد تخطى عتبة القرن السادس، بدأ النحاة
 يتعمشرون بالتعريفات المنطقية المعقدة التي يضعونها لعلم الجنس،
 وانتهى امر تلك الحدود البسيطة التي تمتد على الاحكام اللفظية
 والخواص التقريبية. فابن مالك وان قال في الالقية :

ووضعوا لبعض الاجناس علم كعلم الاشخاص لفظا وهو علم

فلم يخرج في الظاهر عما قاله النحاة قبله من أنه علم موضوع
 للجنس وهو كعلم الشخص في اللفظ تجري عليه احكامه وان فارقه
 معنى في كون دلالة عامة بموجب وضعه للجنس، الا أنه عاد فوضع
 مذهبه هذا في شرح التسهيل بقوله: وان اسامة ونحوه نكرة معنى
 ومعرفة لفظا وانه في الشيعاء كاسد، وقد وافقه على ذلك الرضى
 وغيره. وعليه يكون علم الجنس مرادفا لاسم الجنس النكرة في المعنى،
 فلا فرق بين اسامة واسد الا في الاحكام اللفظية، فاطلاق اسم العلم
 عليه حينئذ تجوز.

ولكن المرادى رد ذلك بان تفرقة الواضح بين اسامة واسد في
 الاحكام اللفظية، توذن بفرق من جهة المعنى. ومما قيل في ذلك ان

اسدا وضع ليدل على شخص معين، وذلك لا يمتنع ان يوجد منه اشكال، فوضع على الشياخ فى جملتها. ووضع اسامة لا بالنظر الى شخص بل الى معنى الاسدية المعقولة التى لا يمكن أن توجد خارج الذهن ولا يمكن أن يوجد منها اثنان أصلا فى الذهن، ثم صار اسامة يقع على الاشخاص لوجودها هو ذلك المعنى الكلى فى الاشخاص.

قال: والتحقيق فى ذلك أن تقول اسم الجنس هو الموضوع للحقيقة الذهنية من حيث هى. فاسد موضوع للحقيقة من غير اعتبار قيد معها أصلا، وعلم الجنس كاسامة موضوع للحقيقة باعتبار حضورها الذهني الذي هو نوع تشخص لها مع قطع النظر عن افرادها ونظيرها المعروف باللام التى للحقيقة. «ثم قال:» وفى كلام سيبويه ايماء الى هذا الفرق، فانه قال فى ترجمة هذا باب من المعرفة يكون الاسم الخاص فيه شائعا فى أمته ليس واحد منها بأولى من الآخر ما نصه: (واذا قلت هذا ابو الحارث فانت تريد هذا الاسد اى هذا الذى سمعت باسمه أو هذا الذى عرفت اشباهه، ولا تريد أن تشير الى شيء قد عرفه بعينه قبل ذلك كعرفته زيدا، ولكنه اراد هذا الذى كل واحد من أمته له هذا الاسم) انتهى. فجعله بمنزلة المعروف بالالف واللام التى للحقيقة.

زيادة بيان

وبهذا يعلم أن علم الجنس هو من قبيل اسم الجنس المعروف بلام الحقيقة لا من قبيل الجنس النكرة. فاسامة الموضوع لرد غير معين من افراد الجنس هو عين الاسد المعروف باللام، ان هذا يشير الى الحقيقة

اي الاسدية كما يشير اليها أسامة، غاية الامر ان هذه الحقيقة تستفاد
فى علم الجنس من جوهره وفى مصحوب آل منها، فاذا قلنا أسامة
اجرا من نعاله، فكاننا قلنا الاسد اجرا من الثعلب. فمن اين يتطرق
اليه التنكير .

وجوع الى الاصل

ولا نتمعن فى هذه الخلافات النظرية، وهى طويلة عريضة. لا
سيما وقد أصبحت عناية العرب كلهم موجهة الى تبسيط قواعد
النحو وتجريده من مما حكات العلل وأحكام المنطق. وقد قام باستنكار
هذه المباحث نحاة سابقون، كانوا لا يرون فيها الا خروجا عن السذاجة
الاصلية للنحو العربى، وتنادوا بالرجوع به الى بساطته الاولى. ومن
هؤلاء أبو حيان الذى علق على تحقيق المرادى المتقدم بقوله: انه رأى
بعض من يميل الى المعقول، ويريد ان يجرى القواعد على الاصول.
يروم به أن يوجد لاسامة ونحوه وجها يدخل به فى المعارف، وهو
بعيد عما تقصده العرب.

وسال الاستاذ عبد المهيمن الحضرمى وهو من شيوخ ابن
خلدون الامام ابا عبد الله المقرئ ما الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس؟
فقال له: زعم الحسّر وشاهى أنه ليس فى الديار المصرية من يعرفه
غيره، وانا أقول: ليس فى الدنيا عالم الا وهو يعرفه غيره، لانه حكم
لفظى اوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعدل عمر عن عامر
فاستحسنه عبد المهيمن .

كتاب في علم الجنس

ونظرا لهذه الاقوال المضطربة في علم الجنس، فقد ألف فيه أبو جعفر بن خاتمة من علماء الاندلس كتابا نبيلًا سماه الحماق العقل بالحس في الفرق بين الكلى والعلم الجنسي وهو يعنى بالكلى اسم الجنس كإنسان وأسد وفرس. ولم تقف على هذا الكتاب وإنما ذكره ابن غازي في حاشيته على الالفية، وقال انه أجاد فيه ما شاء ونقل منه نقولا مفيدة ومن جملة ذلك قوله فيه: «يظهر لي أن هذا المعنى استأثر به اللسان العربي دون اللسان اليوناني، لاتساع عباراته ولطائف اشاراته، اذ لو كان في اللسان اليوناني لوجد في كتب المنطق المترجمة وتداولته مناطق الاسلام في كتبهم كابي نصر الفارابي وأبي علي بن سينا والقاضي أبي الوليد بن رشد الحفيد وغيرهم».

احكام

وقد علم أن علم الجنس يساوي علم الشخص في احكامه اللفظية، وهذه الاحكام هي أنه لا يضاف ولا يدخل عليه حرف التعريف ولا ينعت بالنكرة ويبتدأ به وتنصب النكرة بعده على الحال ويمنع من الصرف مع سبب آخر زائد على العلمية كالتأنيث في أسامة ووزن الفعل في بنات أوبر وابن آوى وزيادة الألف والثون في كيسان علم على القدر .. ومن احكامه الخاصة أن ما كان منه مبدوياً جابن كابن عرس وابن آوى وابن أوبر يحمل في الجمع على لفظ المؤنث فيقال بنات عرس وبنات آوى وبنات أوبر، وكذلك في العدد فيقال ثلاث او اربع او خمس بدون تاء . وفي نوادر التيزيدي يقال أبناء آوى وبنات آوى بالوجهين .

تقسيمات

ينقسم علم الجنس :

اولا - باعتبار وضعه الى قسمين، عربى ومولد كما ذكر ذلك ابن خاتمة فى كتابه المشار اليه على ما نقله عنه ابن غازى. ولم نر من ذكر هذا التقسيم غيره وبمقتضاه يكون علم الجنس غير مقصور على السماع . وهو خلاف ما يفهم من كلامهم وما صرح به بعض الشراح عند قول الالفية (ووضعوا لبعض الاجناس علم) والامثلة التى مثل بها ابن خاتمة لهذا القسم هى ابو زياد للحمار وابو دغفل للفقيل وابو المضاء للفرس وابو خداس للسنور وابو اليقظان للديك. قال: «وهذا النوع غير منحصر» وهذه العبارة ايضا من كلامه تفيد انه لا يختص بالسماع.

والملاحظ ان الامثلة التى اتى بها كلها مبدؤة باب، وانها لما يؤلف من الحيوان على خلاف الاصل فى علم الجنس، فهل المولد منه هو الذى من هذا القبيل؟

ثم اننا نسجل ان ابا المضاء عندهم ما جاء قليلا لما يؤلف من الاجناس على خلاف الاصل، فهل يكون ذلك هو الداعى الى الحكم بتوليده عند ابن خاتمة، ويكون كل ما ضاهاه كذلك ولو لم يبتدأ باب كهيان بن بيان للمجهول ؟

ومصادقا لقول ابن خاتمة ان هذا النوع غير منحصر، نجد فى كتاب المزهر للسيوطى فى النسوع السادس والثلاثين وهو المخصوص بمعرفة الآباء والامهات والابناء والبنيات والاخوة والاخوات

والاذواء والذوات، عددا كثيرا من هذه الاسماء التي تذكر في علم الجنس مبدواة بآب وأم أو ابن وبنت، ومن بينها أمثلة ابن خاتمة ما عدل أبا اليقظان فانه أورد بدله أبا حماد، وبعضها مما يلوح عليه اثر الاعرابية وبعضها الآخر مما يحمل طابع التوليد، فهل كل هذه الاسماء مما يندرج في علم الجنس، وما يكون منها لما يؤلف بعد من قبيل المولد . ؟

ان هذه مباحث بحاجة الى التمهيد، ولا احد أجدر بذلك من هذا المجمع، وان أول ما نستفيدة منها هو فتح هذا الباب أيضا في وجه العاملين على نمو اللغة العربية وتوسيعها ومسايرتها لروح العصر في النهضة والتقدم .

ثانيا : وينقسم باعتبار مدلوله الى قسمين أيضا عند ابن خاتمة، قسم خاص بالاعيان، وقسم خاص بالمعاني، وجعله غيره ثلاثة اقسام فاستخرج من قسم الاعيان قسما خاصا بما يؤلف منها وهو القسم الذي استبعده ابن خاتمة وجعله من قبيل المولد .

امثلة من القسم العيني

ام غياث للسماء، وذاكاء ويوح بالمشاة ويوح بالوحدة وبراح للشمس، وبنات نعش للنجوم الثمانية المعروفة، وبنات بخر للسحاب، وبنات غر وبحر لسحاب تجيء قبل الصيف منتصبات رفاق، وأم راشد للفارة، وأم الظباء للفلاة، وأم صبار للحرة وابن النعامة للطريق، ومتخاوص الثعلب وملاحس البقر، ووحش إرصيت وبلد إرصيت وعين دبار لا يبعد الارض الذي يحار السائر فيه عن القصد،

وبنات أوْبَر لضرب من الكمامة وديء، وهَفِيدَة لمائة من الابل، وبنات
رَبَاط للخيَل، وبنات صَعْدَة للحُر الوحشية وام حِلْس وام الهفبر
للاتان، وام فَروة للنعجة، وابو الحارث واسامة للاسد وذؤالة وذالان
بفتح الهمزة واسكانها وابو جعدة وابو جُعادة للذئب، وثعالة وابو
الحصين وسَمَسَم للثعلب، وجيال والفاط كثيرة للضبع، وابن آوى
وابن عرس لنوعين من السباع وابن مِفْرَض لدويبة تقتل الحمام،
وسام ابرص وابو بَرْيَص للوزغ، وحار قبّان لدويبة كثيرة الارجل
تنقبض عند ما تلمس، وبنات وردان لنوع من الحشرات يكون فى
البيوت، وابو براقش لطائر فيه الوان يتلون ريشه فى النهار عدة
الوان، وابو جِعِران لذكر الخنافس، وابو حبّاحب لدويبة صغيرة تضىء
ليلا، وام قشعم وشعوب للمنية وبنات المطر لدويبة حمراء تظهر غب
المطر، وشَبَبُوة وام عِرْيط وام العريط باللام للمقرب وام العوام
للملحفاة، وام حفصة وام جعفر للدجاجة، وام مهدى للحمامة، وابو
المِرقال وابن داية للقراب، وطامر بن طامر للبرغوث، وابو عذرها
للمخترع للشيء، وابن أحذار للحذر، وابن اقوال للمنطق، وابن
البَرْوك للذى تتزوج امه وهو كبير، وابو ذبان للابخر، وابن غبراء
للص، وابو دِرَاص وابو ليلى وابو الدغفاء للاحق وهى " بن بى"
وهبّان بن بيبان للمجهول الذى لا يعرف، وجابر وابن حبة ويقال جابر
ابن حبة للخبز الى غير ذلك .

ولا يخفى ان فى هذه الامثلة كثيرا مما هو للمألفات من
الاناسى والحيوانات وقد ذكرها ابن خاتمة فى قسم الاعيان من علم

الجنس العربى ولم يستشعر اى فرق بينها وبين ما حكم عليه بأنه مولد وهذا هو موطن الغرابة .

امثلة للقسم المعنوى

بَرَّةٌ للبرة، وفَجَّارٌ للفجور، وَيَسَّارٌ لليسر، وَسُبْحَانٌ للتسبيح على ما فيه من خلاف. وَكَيْسَانٌ للغدر، ومنه سمو الضربة بالرجل على مؤخر الانسان بأَم كيسان وبَنَات غَيْر للكذب وقيل للباطل، وعاطِرٌ بن باطِرٍ للتخليط والكذب، وابو غمرة وابو مالك للجوع، وام مِلْدَمٌ بالذال والذال وأسماء أخرى للحمى وام الربيق كزبير وبنت طبق والفاظ أخرى للداهية، وام دفر والفاظ أخرى للدنيا، وابنا سمير وابنا جَمير لليل النهار، وابن ذكاء للصبح، وابن جَلالول النهار، في قول، وَفَيْئَةٌ بمعنى الحين بعد الحين وغدوة وبكرة وسحر اذا قصدت من يوم بعينه وقيل مطلقا في الاولين والاعداد اذا قصدت معانيها مجردة من المحدودات نحو ثمانية ضعف اربعة والامثلة التى يوزن بها كقولك فعلان فعلى صفة لا تنصرف.

تعقيب

مما يلاحظ فى هذه الاعلام ان صفة ما لو حطت فيها مع العلمية، كحضاجر للضبح فيه معنى انتفاخ البطن، وابن داية للغراب لوقوعه على داية البصير ونحو ذلك وقد ألمح الى ذلك سيبويه حين قال : ومن ذلك ابن قتره وهو ضرب من الحيات فكانهم اذا قالوا هذا ابن قتره فقد قالوا هذا الحية الذى من امره كذا وكذا الخ.

ويلاحظ ايضا ان بعض هذه التسميات مما له اسم وكنية،

وبعضها ليس له الا احد الامرين، وبعضها وهو غريب ليس له اسم
جنس، وانما يعرف بعلمه كحمار قبان وابن مقرض.
وما يستشكل كون ذكاه وبوح وما اليها علم جنس للشمس،
فاذا كان معناه الحقيقة الذهنية فانها هنا واحدة في الذهن والخارج،
ولا افراد لها فيما تراه العين الا ما يقوله الفلكيون من ان هناك
شموسا عديدة، ولكن الواضح لم يقصد ذلك قطعا على ان اسم يوح
وجدنا انه كان يطلق في غير العربية من اللغات السامية على الشمس،
ولا ندرى اهو فيها معرفة او نكرة؟ وايا ما كان فان الاستشكال قائم
بالنسبة الى صفته في العربية وهي العلمية الجنسية، الا ان نقول
ان الجنسية هنا معتبرة بالنظر الى الزمن وتنقلات الشمس في ابراجها.
والخلاصة ان علم الجنس موضوع طريف في اللغة العربية وهو
يقتضى تضافر الجهود لتحقيق مباحثه، وقد عرضت عليكم ما كتبت
فيه لتمييز صوابه من خطاه، والشكر لكم على جميل الانصات. (I)

مالك بن انس

ترجمة محررة

تأليف العلامة امين الغولى

فى ثلاثة اجزاء لطيفة
طبع دار احياء الكتب العربية

سمعتُ عن هذا الكتاب كثيرا من صديقى الاستاذ ابراهيم الكتانى، وكان عندى الا انى لم افرغ لقراءته وهو قد قرأه منذ صدوره، وكان من حديث صديقى عنه انه لم يقرأ، على كثرة ما قرأ، كتابا يترجم لانسان ويزرى به كهذا الكتاب، وانه من دفته الاولى الى دفته الاخرى عبارة عن الخطّ من شأن مالك وفقهه والاشادة بابى حنيفة وفقهه، والتنويه بمدرسة اهل العراق وسبقها الى وضع القواعد والاصول الاستدلالية فى حين ان مدرسة اهل الحجاز بقيت متخلفة فى ذلك، همها الرواية والرواية القاصرة على ما عند اهل الحجاز من حديث واخبار، فهى لم تعن بما عند اهل الاقطار الاسلامية الاخرى وخاصة العراق من سنة وآثار انما تكتسب بالرحلة التى لم يكن لفقيه اهل الحجاز، وهو مالك، عناية بها. وهى ان مثلت شيئا فانما تمثل هذه البيئة الحجازية المحافظة المتبدية، ولا سيما بالنسبة الى

مالك الذى كان اشد اهل بلده تأثرا ببيئته، ويفيض الاستاذ الكتانى فى حديثه هذا بطلاقة المعهودة واستيعابه النادر عارضا آراءه فى الكتاب وصاحبه على نحو مما ذكر، بل ان ما ذكر انما هو تقريب لوجهة نظره مع تلطيف فى العبارة التى يؤدى بها مراده، وقد تحدث الي بهذا الحديث، وتحدث به الى غيرى وانا اسمع وقال لى مرة: اننى لم اكن حريصا على لقاء الاستاذ الخولى فى مصر الا لارى هذا الشخص صاحب تلك الحملة المنكرة على مالك، وحقا فاننا فى الزيارة التى زرنا فيها مصر مجتمعين صيف سنة 1957 انا والاستاذ الكتانى واصدقاء آخرون اسعدنا الحظ فى احدى الحفلات بقاء الاستاذ الخولى وثلة من رجال العلم والسياسة فاستبد الاستاذ الكتانى بالاستاذ الخولى وتحدث اليه مدة الحفلة على حين ان حظى كان مع احد كبار الساسة العرب ممن سبق له ان زار المغرب الشمالى وتعرفت به هناك، فلم يكن لى متسع من الوقت للمشاركة فى حديث الاستاذين الكبيرين، وقلت للاستاذ الكتانى مرة وهو يحثنى على قراءة كتاب مالك ابن نس مما زحاح له، لو لم يكن من فضل الاستاذ الخولى علينا وعلى المالكية الا انه جعلك تتعصب لمالك وتغار عليه هذه الفيرة المنقطعة النظير، وانت «الحزمى» القح الذى نبذ النظر والقياس ولم يبق للمذاهب فى نفسه اعتبار لكفى: فقال لى: اقرا الكتاب وستحكم بعد ذلك حكى !!

وهكذا تناولت كتاب الاستاذ الخولى وشرعت فى قراءته وانا اتوقع الاصطدام بآرائه السوء منذ الصفحة الاولى، ومضيت فى

القراءة متمهلاً مُتَرَيِّشاً وفى كل فصل اقول: من هنا ستبدأ الحملة، من هنا ستقع الاغارة ولم اشعر حتى طويت الجزء الاول، واخذت فى قراءة الجزء الثانى متأنياً متثبتاً، فلم يَسْلُوْنِي منه شىء، وقلت لعل المعركة ستحدث فى الجزء الثالث فاذا بى يخشع قلبى وتدمع عيني، لهذه الكلمة المؤثرة التى رثى بها المؤلف الامام مالك وكانت مسك الختام لكتابه القيم.. اى اننى فرغت من قراءة الكتاب وانا ماخوذ بسحر هذا القلم الصناع، وعمل هذا المؤلف المبدع عوض ان أفرغ منه وانا ساخط متذمر كحال صديقى الاستاذ ابراهيم الكتانى .

والواقع ان الكتاب هو كما عبر مؤلفه «ترجمة محررة» للامام مالك، ترجمة ذات منهج علمى واضح جمعت من اخبار الامام ما امكن لها جمعه ثم عقيبت عليها بالنقد والتحريض فلم تقبل منها ما تطرق له الشك ما لم يشبث على محك الاختبار، وعالجت فى صبر وناة التوفيق بين دلالات هذه الاخبار كلما تعارضت وابرز مضاهاها، بشرح ما تحتويه من معان نفسية وخلقية.

تشخص حياة المترجم وتعرضها، فى صورتها الحقيقية المجردة ومن ثم يمتد نفس الكاتب فى شخصية مالك الجنين فالطفل فالغلام، فالشاب، فالرجل، فالانسان فالعالم، ولا حاجة الى القول ان طريقة تناوله لعناصر هذه الشخصية طريقة تحليلية تنفى عنها كل دخيل، وتبميزها من كل تطفيل، وهذا هو معنى التحرير فى هذه الترجمة، ولعل اهم مناهج هذا التحرير هو ابعاد الروايات (المنقبة) التى تفيض بها الكتب فى حياة مالك: عن هذه الترجمة وذلك بطريقة رفيقة،

لا هي طريقة الدكتور محمد حسين هيكل في كتاب حياة محمد التي تتعمد اغفالها وتبيرا منها، ولا هي طريقة الدكتورة بنت الشاطي في كتابها عن «أمة بنت وهب والسدة الرسول (ص) التي تسأس بها، وتدافع عنها احيانا .. لما ان المجال في حياة «أمة اضيق منه في حياة مالك، ولان كتاب الاستاذ الخولي بحث علمي مستقل غير متأثر بما تأثر به الدكتور هيكل من الكتاب الاجانب الذين كتبوا عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والى هنا نكون قد رسمنا الخطوط الاولى لهذه الترجمة ، وهي كما رأينا لا تنم عن تنقص ولا نيل من شخصية مالك وان كانت بالاحرى لا تحيز فيها ولا محاباة ، اما فقه مالك فقد اعترف الرجل في مطلع كتابه انه لم يدرسه وانه لم يضع كتابه فيه وانه يؤثر ترك الحديث عن انتشار المذهب المالكي لفقيهه ممارس يجد فنى روح المذهب ودقائقه ما قد يعطل رواجه وذيوعه ، وانه ان تسلم له ترجمة محررة للامام فذلك حسبه وكفى (ص 4) وبهذا يكون قد تفادى ما يلاحظه الاستاذ الكتاني من نضوب في مواد الكتاب التي اعتمد عليها في دراسة الفقه المالكي اذ يقول وهو محق: كيف يمكن للباحث في فقه مالك ان يلم بشيء منه ولو المامة سطحية اذا كانت مصادره التي يعتمد عليها هي طبعة الموطن بشرح تنوير الحوالك للسيوطي واصول ابن الحاجب بشرح السعد ولا زائد ؟ فالاستاذ الخولي لم يحاول ان يدرس الفقه المالكي باعترافه ، وكفى الله المؤمنين القتال.

نعم يبقى مافي الترجمة من بعض الانظار للمؤلف ربما اوهمت
شيئا ما يأخذه عليها صديقنا العزيز رها نحن نرجع اليها القول
لننل فيها برأينا الصريح حتى لا يظن اننا نخالفه لمجرد المخالفة او
اننا نقرط المؤلف ونوافقه على جميع ما قال بدون تحفظ مع ان هناك
كلمات لا يحسن السكوت عليها، وهي ما لا يخلو من مثلها عمل
بشرى ليومئ الناس ان الكمال انما هو لله وحده، ففيما يرجع لفقه
مالك وفهمه للسنة وطريقته في الاستدلال بالكتاب العزيز والحديث
والفرق بين بيئة الحجاز وبيئة العراق نورد قوله الذي علق به على
كلمة لعياض اوردها دليلا على ان ما نسب لمالك من معرفته لمراتب
الاخذ بالسنة لا يصح، لان الاصطلاح في ذلك متأخر عن زمنه، وقد
لخص هو قول عياض في هذه الكلمة: « انه تناول السنة على ترتيب
متواترها ومشهورها وآحادها ثم ترتيب نصوصها وظواهرها
ومفهومها . الخ » .

وقال معلقا على ذلك: .. وهو ما تشعر انه اكثر من ان تحتمله
طبيعة الحياة اذ ذاك، او تقوى عليه في سيرها، او توجهها اليه
موجهاتها، في العصر الذي تناول فيه مالك ما تناول منها، متدرجا غير
سابق لاوانه، ولا خارج عن سنن الله في كونه. (ص 709) وقد غفل
المؤلف عن ان مراد عياض هو مدلول هذه الالفاظ لا هي بعينها، وهذا
ما لا شك في ان مالكا اتبعه في استدلاله بالسنة، فلو انه اخذ بخبر
الاحاد وترك المتواتر لظهر عواره، ولو اخذ بالمفهوم وترك الظاهر لما
خفى امره على احد، وكثير من المؤلفين انما توخذ اصطلاحاتهم من تتبج

كلامهم وملاحظة طرق استلالهم ، وهذا البخارى وشرطه واصطلاحه
 فى كتابه انما عرفا بالاستقراء والدرس فطبق عليهما ما تقرر بعد
 زمنه بكثير من اصطلاحات وقواعد ، وغير البخارى فى ذلك كثير .
 واورد المؤلف فى هذا الصدد ايضا مسألة القسم للخيل فى
 الغزو وما علق به ابو يوسف فى كتابه الخراج حكم الاسهام للفرس
 بسهمين وللرجل بسهم ، على حين ان مالكا لما روى ذلك الحكم فى
 موطنه عن عمر بن عبد العزيز ، لم يعلله ولم يعلق عليه الا بكونه
 لم يزل يسح ذلك من اهل العلم ، ثم تطرق الى الاستنتاج ان ذلك
 من اثر اختلاف البيات (يعنى العراقية والمجازية) فى تناول المسائل
 وفهمها وسرعة تطور الراى الفقهى عند اهل العراق بخلاف اهل
 الحجاز (ص 645-646-647) ونظن ان المذاهب الدقيق الذى اتبعه الاستاذ
 المؤلف يمنع من ارسال الاحكام التاريخية بمجرد الاستناد الى
 جزئية مثل هذه لها فى الجانب الآخر ، فسى غير هذا الباب
 نظائر ونظائر من تاصيل النظر وتفريع الاحكام ، على ان
 ابا يوسف كان يرد على أبى حنيفة الذاهب الى ان للفرس سهما
 مثل الرجل قائلا : لا افضل بهيمة على رجل مسلم ، فهو مضطر
 لان يبين العلة فى هذه القسمة من ان تكون عدة الفارس اكثر من
 عدة الراجل ويرغب الناس فى ارتباط الخيل بالسح . . ثم هه
 يقول هذا فى كتاب خاص بالمال وهو كتاب الخراج فمن حقه ان
 يتوسع فيه ويعلل ، ولا كذلك مالك الذى ذكر المسألة فى كتاب جامع
 هو الموطا ضمن الباب الذى يناسبها .

وعلى ذكر الرأى نرى ان المؤلف ، وقد ساق هذه المسألة فى بحث الرأى الاصطلاحي (ص 635 - وما بعدها) قد تعمق فى تفسير الرأى بما لا يتناسب والادلة التى اوردها هو نفسه، ومراده ان يثبت ان الرأى الفقهي لم يكن هو المعنى حينما يطلق فى بيئة الحجاز الاولى، وتاول لذلك كثيرا، فجعل اسم ربيعة الرأى الفقيه شيخ الامام مالك من قبيل ما قيل فى المغيرة انه ذو رأى، وناقش فى تعليق ضاف كلاما للدكتور احمد امين حول هذا الموضوع. ثم ختم بقول احمد بن حنبل، وقد سئل عن يريد ان ينظر فى الرأى؟ رأى من ينظر؟ فقال رأى مالك، فهل بعد هذا حجة فى ان المراد بالرأى هنا الرأى الفقهي والطريقة والمذهب الذى سار عليه مالك فى استنباط المسائل الفقهية من ادلتها الاجالية ، لا الفهم والتفسير وكيفية التطبيق فقط؟ وهل يستدل على ذلك باكثر من قول معاذ (ض) لمّا ارسله النبي (ص) لليمن فقال له بم تقضى؟ قال بكتاب الله قال فان لم يكن فى كتاب الله؟ قال بسنة رسول الله، قال فان لم يكن فى سنة رسول الله، قال اجتهد برأىي، فضرب على صدره وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله الحديث فهذا هو الرأى الاجتهادى الفقهي قد بدئى باستعماله منذ عهد الرسول (ص) ، لا لبس فيه بالرأى اللغوى الذى يريد المؤلف ان يجعله هو المعنى كلما اطلق فى بيئة الحجاز التى سبقت الى الرأى جميع امصار الاسلام ولكن بهذا المعنى العام .

وهكذا يذهب المؤلف أيضا إلى معنى الفقه مرتثيا أن اطلاق
 بازاء العلم بالاحكام الشرعية متأخر عن عهد النبوة وعن قريب من
 العهد الذي يؤرخه مستدلا في اطمئنان ناقل لا مستنتج بكلام لابن
 خلدون في المقدمة مضمناه ان الصحابة لم يكونوا كلهم اهل فتوى،
 ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وانما كان ذلك مختصا بالحاملين
 للقراء ان العارفين بناسخه ومنسوخه، وكانوا يسمون لذلك القراء:
 اى الذين يقرؤون الكتاب، لان العرب كانوا امة امية، فاختص من كان
 منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ، وبقي الامر كذلك صبر
 الملة، ثم عظمت امصار الاسلام، وذهبت الامية من العرب بممارسة
 الكتاب، وتمكن الاستنباط، وكمل الفقه، واصبح صناعة وعلماء، فبدلوا
 باسم الفقهاء والعلماء من القراء (ص 609) .

ويرد هذا الرأي ما جاء في حديث العسيف الذي اخرج به
 البخارى وغيره، وفيه: ان اعربيا اتى النبى (ص) فقال ان ابنى
 كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته فقبل لى ان على ابنى الرجم
 فافتديت منه بمائة شاة ووليدة .. ثم سألت اهل العلم فقالوا انما
 على ابنك الجلد وتغريب عام. فهؤلاء اهل الفتوى يطلق عليهم اهل
 العلم في عهد رسول الله (ص) وقد دعا النبى (ص) لابن عباس فقال:
 اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل ، وفي حديث عنه (ص) من يرد
 الله به خيرا يفقهه في الدين، وفي آخر ، من حفظ على امتي اربعين
 حديثا من امر دينها بعثه الله يوم القيامة فقيها عالما؟ وفي رواية
 بعثه الله يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء وهو وان كان ضعيفا

الاستناد فدلالته على ما نحن بصددہ اقوى من دلالة كلام ابن خلدون وفي ثالث رب حامل فقه ليس بفقيه وفي رواية رب حامل فقه الى من هو افقه منه ، وفي البخارى اوتر معاوية بعد العشاء بركة وعنده مولى لابن عباس فاتى فاخبره فقال له ابن عباس ان معاوية فقيه ، ويطول بنا الامر لو اردنا استيعاب النصوص الدالة على اطلاق الفقه فى العصر الاول ، عصر النبى (ص) والصحابة فما بعده بازاء المعنى او قل التعريف المصطلح عليه بعد للفقه .

وتم كلمات موجهة اعتضد بها المؤلف فى تأييد ما ذهب اليه ، منها تفسير ابى حنيفة للفقه بمعرفة النفس ما لها وما عليها ، وهذا ان صح فانما يراد به التوجيه الخلقى المطلوب من كل واحد وخاصة من الفقهاء ، ولذلك سمي كتابه فى الكلام الفقه الاكبر ايدانا بان معرفة الله اكبر من معرفة الاحكام والمسائل التى هى الفقه الاصغر على حد قوله (ص) رجعت من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ، والمؤلف يقلب هذه الكلمات المروية عن ابى حنيفة وغيره على كل وجه الا وجههما الحقيقى ليستدل بها على مراده ويتشكك فى لفظ آخر ، عن ابى حنيفة صريح فى اطلاق الفقه على معناه المتعارف ، ولا يتشكك فى هذه الكلمات ، ولا نطيل فى هذا الموضوع لاننا لا نرمى الى المناقشة وانما نبين وجهة نظر غير ما ذهب اليه جنابه . ونعرض الى اشياء ما وقف فيه المؤلف موقفا حرا من سلوك مالك او احواله فاوهم التنقيص ، وليس كذلك ، ومنه ما علق به على قول الامام وقد عيب عليه إتيان الامراء وعدم الذهاب الى

المسجد ، و اما اتيان الامراء بالحمل منى على نفسى فانه ربما
استشير من لا ينبغي ان يستشار . . .

قال المؤلف: (فهل الحمل على النفس لاتيان الامراء اوجب من
ذلك الحمل لاتيان المسجد (ص 497) ولو اراد المؤلف ان يلتمس العذر
لقال ان اتيان الامراء للاشارة مصلحة عمومية توجب الحمل على النفس
ولا كذلك اتيان المسجد، ولو اراد المؤلف ان يلتمس العذر لقال ان
السلس ان كان هو العلة الحقيقية فان الطهارة تتعذر منه ولذلك فهو
ياتى الامراء ولا ياتى المسجد لان المسجد يطلب فى حق من ياتيه ان
يكون طاهرا ولا كذلك من ياتى الامراء، ومثله ما علق به على ما ذكر
من حاله إنه كان افزع الناس من الشياطين، وهو قوله (وما تكون هذه
فى الغالب حال رجل قد تمرس بالمقاومة القوية فى صورة من
صورها...) (ص 301) وهذا لمز للامام بضعف النفس المستلزم لضعف
المقاومة للسلطة واستنكار الظلم كما هو شأن الائمة وما اعجب هذا
الكلام: فهل لا يكون الرجل قوى النفس الا اذا كان قويا على تحمل
السياط؟ وقد ضرب مالك بالسياط فعلا وتحملها افلا يكون هذا
الذى ذكر من حاله بخصوص الشياطين غير صحيح؟ واعرب من هذا
وذاك انه لما تعرض لترجمة نافع مولى ابن عمر من شيوخ مالك وذكر
بعض الاوصاف التى وصفه بها الذهبى من انه كان صغير النفس،
الكن، الخ .. توكا على هذه الاوصاف ليقول فى مالك انها لا تعطيه
قدوة سالحة، (ص 39) يعنى من حيث انه احد شيوخه المعتمدين ...
ولا نعلق على قوله هذا الا بقولنا: انها نفس القدوة التى اعطتها

للمصريين لما بعث اليهم عمر بن عبد العزيز، بتافع هذا فمكت بينهم مدة يعلمهم السنن والدين كما ذكر ذلك المؤلف نفسه، وعمر بن عبد العزيز اعرف بالرجل من الذهبى وغيره فما رشحه لتلك المهمة حتى كان احق الناس بها.

وهناك بعض عبارات فهم منها الاستاذ المؤلف اشياء وبنى عليها احكاما، وربما كانت لا تدل على شيء مما فهمه منها - على الاقل فى نظرنا - ونحب ان نعرض لها ايضا، ومنها انه لما ذكر لباس الامام من الاقمصة الرقيقة وروى عنه انه قال: ما ادركت احدا يلبس هذه الثياب الرقاق، وانما كانوا يلبسون الصفاق الاربعة، فانه كان يلبس مثل هذا، ويشير الى قميصه، عارض هذه الرواية باخرى يقول فيها ما ادركت فقهاء بلدنا الا وهم يلبسون الثياب الحسان، ثم سجل ما فى ذلك من الخلاف ولو تأمل حضرته لما رأى فى ذلك خلافا، فانه فى الرواية الاولى وقع التعبير بصيغة عامة ثم استثنى منها ربعة وهو فقيه اهل المدينة، وفى الثانية وقع التعبير بان فقهاء البلد كانوا يلبسون الثياب الحسان، وهذه ولا شك انما تعنى ربعة فانه فقيه البلد .

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف ان امر عنى ومنها استشكله ما روى من انه لم يدخل الحمام حياته كلها، وما عرف من حاله انه اذا اراد التحديث دخل مفتسلا فاغتسل وتطيب ... وعلق على ذلك بما لا فائدة فى ايراده (ص 294) ومراد الرواية الاولى نفى دخوله للحمام الصومى الذى ورد النهى عن

دخوله لما فيه من كشف العورة وغير ذلك من المنكرات. وهذا لا خفاء به، فلا محل للاستشكال .

ومثل ذلك توقفه فيما روى من تدبيره لطعامه ، وهذه الوظيفة اليومية من اللحم والخبز والزيت لفظوره (ص 255) وهي مسألة تافهة جدا لا تستحق كل ما وجه اليها المؤلف من عناية حتى ولو لم تختلف الاحوال على الامام من عسر ويسر طعام الافطار ، هو غير طعام الغداء وما يختلط ذاك على احد ، ومنها ما ذكره في (ص 300) من اشتباه الخط المغربي عليه في اسم ولد الامام يحيى، اذ ربما كانت قراءته في مخطوطة المدارك يحيى، وهو كلام ما كان ليصدر من حضرته لو تأمل نص الديباج في هذا المحل، وهو مطبوع بالحرف المصرى لا اشتباه فيه مطلقا، ومنها ما حكاه في (ص 160) عن كتاب مناقب مالك للزواوى من ان حديثنا جرى بينه وبين جعفر - قال المؤلف: (وهو الصادق غالبا) - وفي ختام هذا الحديث بقول جعفر لمالك «وانت عليم الحجاز» ونظن أن جعفر هذا صوابها ابو جعفر، وهو المنصور، لا جعفر الصادق، ولتنظر ترجمة الامام فى الزرقانى على الموطأ، وفى اثناء حديث المؤلف عن تاليف الامام للموطأ تعرض لقول ابى جعفر المنصور لمالك، : عزمتم ان آمر بكتيب هذه التى وضعتها - يعنى الموطأ، فتنسخ نسخا ، ثم ابث الى كل مصر منها نسخة، وتوكأ على عبارة (يعنى الموطأ) قائلا انها لا تصح ان تكون من كلام المنصور (ص 527) وهذا من البديهيّات، فان احدا لم يفهم ان ذلك من قول المنصور وانما هو من كلام الراوى، ومثله كثير فى كلامهم

وقى (ص 186) يروى المؤلف خبراً عن الحسن البصرى مفاده انه قال لرجل طلق امراته ثلاثاً انك عصيت ربك وبانت منك امرأتك، فقال الرجل: قضى الله ذلك على، فقال الحسن: ما قضى الله اى ما امر الله عز وجل وقرا هذه الآية (وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه) فيأخذ منه ان الحسن كان يقول بالقدر وانه هو الذى لقنه لعبد الجهنى وقد ساله عن جور الملوك وادعائهم ان ذلك من قدر الله فاجابه الحسن: كذب اعداء الله، ولو تأمل الاستاذ الجليل ما جاء فى الخبر الاول من تفسير قوله (ما قضى الله) بما امر الله لكفاء ذلك فى دفع القول بالقدر عن الحسن الذى ما رماه به احد قط: والحسن بجوابه لمطلق امراته ولعبد انما اراد نفي الاحتجاج بالقدر وتحصيل مسؤولية العمل لصاحبه لا نسبة ايجاد العمل واختراعه اليه.. وهذا من مذهب اهل السنة معروف .

وتكلم الاستاذ المؤلف على رسالة الامام الى هارون الرشيد ، وهى مشهورة ، فنقل كلام الناس فيها وقال ، (وعلى كل حال فانها ليست مما وصلت اليه اليد ، لنتقدما متنا على نحو ما فعلوا) (ص 331) ولا ندرى كيف لم تصل اليها يده وهى قد طبعت فى مصر طبعات عديدة ، فيا ليتته بحث عنها واتحفنا بما توجبه اليه نظراته النافذة فيها وفى (ص 274) اورد الاستاذ المؤلف حكاية عن حكم الامام فى قضية قتل عفا فيها مولى المقتول عن القاتل وتمسك الامام بوجوب اقامة الحد فاخذ الوالى برأى الامام الذى قال: انما قتلته بالحراة ولم اقتله قودا، (يسنى فلذلك لم يفده

عفو الولي، وقد كتب الاستاذ على كلمة الحراية: لفظ كذا بين
هالين. وهو يشعر بالتوقف فلم ندر هل هو توقف في معنى الحراية،
وهذا لا يخفى على حضرته قطعاً، أو هو توقف في حيثية الحكم
فكان يجب ان يعلق عليه بغير لفظ كذا

ولا ننسى ان ننبه على ان قلم الاستاذ في قوة بيانه ونصاعة
الفاظه تتفقت منه بعض الكلمات التي ليست مما يفتر لثله
كالنضوج والتوايا ورغم كذا. وكذلك لا ننسى ان ننبه على اننا لم
نستحسن ما يتركبه الاستاذ من شبه التضمين الذي تكلم عنه
العروضيون في الشعر حين ينهى فصلا من فصول الكتاب بالتوطئة
الى فصل آخر وجعل آخر كلمة الفصل الذي انتهى منه ترتبط
باول كلمة من الفصل التالي، او بعنوانه ، وربما كانت الكلمة
الاولى فعلا والثانية فاعلا كما في هذه العبارة التي هي آخر فصل
مالك ، الطفل ، : (وعند هذا يظهر لنا) وقد جاءت في اول صفحة
(43) يليها بياض ، فصفحة (44) وهي كلها بياض ، ثم جاء الفاعل
وهو عنوان الفصل التالي: (مالك الغلام) في الصفحة (45) ولا اشك
ان الدقة التي اخذ الاستاذ بها نفسه والتحرير الذي التزمه في هذه
الترجمة هما اللذان اركباه هذا المركب الوعر وان يكن ذلك عنده
وعند غيري ربما كان من المستحسنات .

وبعد ، فهذا عرضي لكتاب (مالك بن انس ترجمة محردة)
الذي نفى به الاستاذ الخولي غبار الخسول والتقليد عن تراجم
الايمة، وضرب به مثالا لمن اراد ان يحرر فكره وقلمه من قيود الموضوع

والتقديس، وقدمه لبنة اساسية فى البحث النقدى النزيه الى المكتبة
العربية التى ما زالت مفتقرة جدا الى مواد وانقاض تبنى بها هيكلها
الجديد الذى يتلائم وعصر التقدم العلمى العتيد، واشهد ان الاستاذ
الخولى قد وفق فى عمله هذا الى ابعد حدود التوفيق واشهد انه قد
اتى بعمل جليل يقل له النظير والكفاء، واعتذر فى النهاية الى
حضرتة ان كان فرط منى ما قد يكون فيه سوء ادب مع مقامه، الذى
اوكد له انه جليل فى نفسى ومحترم جدا احترام العلماء الاكفاء، وعلى
كل حال فان لى فيه قدوة بما تناول من حياة الامام مالك، وهو من
هو، بالنقد الحر: وان يكن هو قد ظفر بالتصويب فيما تناول من ذلك،
فمن لى بان اكون على صواب فيما كتبتة من هذا العرض .

رسالة الكاتب ابن ابي الخصال

التي نال فيها من كرامة المرابطين

عرف المرابطون بالحلم والتسامح والاغضاء حتى انهم لم يريقوا
محجم دم في غير ساحة القتال، وموقف يوسف بن تاشفين من
المعتمد بن عباد معروف، بل ومن غيره من ملوك الطوائف ورؤساء
الاندلس الذين سلموا فسلموا، بعد ان كان منهم من الشغب والخلاف
على اثر واقعة الزلاقة الشهيرة، ما كاد يودى بحياة الشعب العربى
فى الاندلس مرة أخرى لولا مسارعة يوسف بتلبية رغبة الشعب فى
النجدة والانقاذ.

وقد أدت تصفية ملك الطوائف على النحو المعروف فى التاريخ
الى اثارة حملة شعواء على المغاربة عموما والمرابطين خصوصا من طرف
العناصر المتوترة والفئات التى كانت تستغل الوضع الفاسد الذى
كان قائما فى الاندلس لمصلحتها الخاصة، ومن هؤلاء جماعة من الادباء
المنحلى الاخلاق الذين كانوا يجدون ما يرضى غوايتهم عند سادة
المهد البائس، وآخرون من ذوى الطموح السياسى الذين لم يرضوا
الترضية الكافية فلجأوا الى التشنيع والتقول على الدولة الجديدة .

ولعل صاحبنا أبا عبد الله بن أبي الحصال كان من الفريق الثاني، إذ لا نستطيع أن نصفه بأنه كان منحل الأخلاق، وهو إلى أن يعد في العلماء وأهل الرواية والحديث أكثر من أن يعد في الأدباء فضلاً عن اصطناع المرابطين له واستكتابهم إياه من قديم وهم لم يكونوا يقربون إلا أهل المروءة والدين من العلماء والأدباء .

يقول ابن الآبار في ترجمته من المعجم: «محمد بن أبي الحصال واسمه مسعود ابن طيب بن فرح بن خلعة الغافقي أبو عبد الله ذو الوزاريث سكن قرطبة وأوليته من قرطبة بشقورة تسمى فرغليط وبها نشأ ومنها تردد في طلب العلم والأدب وذكر جملة من مشايخه ثم قال «وعني بالحديث فائقته وأما البلاغة فإليه انتهت وعليه قصرت وبموته فقدت» وصفه بهذا أبو القاسم بن حبيش. وقال فيه ابن بشكوال مفخرة وقته وجمال جماعته. قال: «وكان متفنناً في العلوم مستبحراً في الآداب واللغات عالماً بالأخبار ومعانئ الحديث والآثار والسير والاشعار أحد رجال الكمال». وسمعت شيخنا أبا الربيع موسى يقول سمعت أبا الحسين عبد الرحمن بن أبي عامر الأشعري يقول سمعت الفقيه أبا مروان بن مسرة يقول لم ينطق اسم كاتب بالاندلس على رجل مثل أبي عبد الله بن أبي الحصال .. وحكى لنا شيخنا أبو الحسين ابن السراج أن خاله أبا بكر بن خير وأبا القاسم بن بشكوال وأبا القاسم بن غالب المعروف بالشراط قصدوا ذات يوم قبر أبي عبد بن أبي الحصال وقد وعدوا أحد تلاميذهم أن يقرأ هناك عليهم قصيدته البائية التي وسمها بمعراج المناقب ومنهاج الحساب

الثاقب قال: « وكنت فيمن صحبهم لآخذها عنهم فسمعتهم يترحمون عليه ويقولون عند انتهائهم: السلام عليك يا زين الاسلام ».

قال ابن الآبار: « ومع كماله لم يحظ من امراء عصره بآماله، وهي عادة الايام العادية في امثاله، توارى لما بهر، وخفى اضعاف ما ظهر، وصار اخوه أبو مروان بالكتابة عنهم اشهر والذي قعد بأبي عبد الله هو قيام ابن الحاج امير قرطبة على ابن تاشفين وثورته التي نكب عنها، ونجا، ولكن كيف منها وكان حينئذ اوثق حاشيته واسبابه، والصق وزرائه به وكتابه مع ان اختصاصه لم يكن الا بابنه أبي يحيى أبي بكر بن أبي عبد الله حتى وسمه بذى الوزارتين فجرت عليه تخصيصا بصنائه، ومكافأة لكفايته، فكم جلى من تلك الخطوب الجلائل وابلى باليراع والرسائل مكان ذوات العمود والحماثل، ولما استقل ابن الحاج وولى ما ولى من اعمال المغرب . عاد ابن ابي الخصال لصحبته هناك هو وابو بكر بن عبد العزيز وطائفة انضوت من حرمة الى الحصن الحصين والحرز الحريز . وذلك لشغوف هذا الامير على أترابه ، وخفوق ذاته الراجعة في حقوق أصحابه ثم انهم انتقلوا بانتقاله الى سرقسطة أم الثغر الشرقي حين حلها ذابا عن أرجائها ومجاهدا لاعدائها ، حلول البر التقى، وإذ حست شهادته قافلا من غزاته في التاريخ المرسوم ، كسد ما نفق في أيامه من بضائع العلوم وناصع المنثور والمنظوم فلزم أبو عبد الله داره خائفا من تلك الاحقاد القديمة وراضيا بالاياب اليها من الضيعة وفي اكثر عمره ارتد على العقب مأموله وامته بطول مدة ابن تاشفين

خموله .. الى أن حتمت منيته بالفتنة الحميدية فاستشهد رحمه الله
ودفن يوم الاحد الثالث عشر من ذى الحجة سنة 570 .. ومولده سنة
خمس وقيل سنة 463 .

فهذه الاطوار التى تقلب فيها كاتبنا الكبير تدل على انه كان
ذا نفس قوية، وانه لم يستغن بالعلم بل تشوف الى الظهور عن
طريق السياسة، ومن ثم شارك فى ثورة ابن الحاج بقرطبة، وابن
الحاج هذا هو أبو عبد الله محمد بن داود بن عمر اللمتوني أمير قرطبة
من رجالات يوسف بن تاشفين وذوى السابقة فى الجهاد بالاندلس،
وكان قد دفع امرة على بن يوسف وتلكا عن بيعته لارل ولايته
سلطان أبيه ومالاه الملا من اهل قرطبة ، مشيختها وفهانها وذاك
سنة 500 ثم نكب وقبض عليه وفسد تدبيره وهرب من كان معه من
الاعيان الى ان رضى عنه على بن يوسف وولاه مدينة فاس وما اليها
من الاعمال ثم نقله الى ولاية سرقسطة وبلنسية من شرق الاندلس
حيث استشهد سنة 508 وكان ابن ابى الحصال يصحبه فى هذه المرة
كلها يكتب له، ويظهر انه صحب ابنه ابا بكر الملقب بابى يحيى قبل
صحبه لابيه وخدمه كما خدم أباه وهو الذى لقبه بنى الوزارتين كما
سبق عن ابن الآبار، ثم التحق بعد ذلك بخدمة أمير المسلمين على
ابن يوسف وعلى ما يفهم من اسجاع الفتح بن خاقان كان تلقيب
الامير ابى يحيى له بنى الوزارتين فى حالة سكر أيام قيامهم على
على بن يوسف، وابن خاقان وان نوه به كثيرا فان كلامه عنه لا
يخلو من مفاخر .

وعلى كل حال فنحن نعتقد انه بعد وفاة مخدومه الاول الامير ابن الحاج خدم على بن يوسف كاتبا مع اخيه ابي مروان عبد الملك كما عند (المعجب) وربما كان اخوه هذا هو الذي سعى في استدعاء امير المسلمين له اذ يظهر من عبارة ابن الآبار انه كان محظوظا عندهم وعالي المكانة لديهم، واذن فقد أخطأ ابن الآبار في قوله ان صاحبنا لزم داره بقرطبة بعد وفاة ابن الحاج خائفا من تلك الاحقاد القديمة الخ.. فان امير المسلمين كان قد عفا عن ابن الحاج وعن جميع اتباعه وهو منهم فلم يكن لديه ما يخاف منه ولو كان يريد الانتقام منه لما امتنع عليه، واعظم من هذا اننا نرى عبد الواحد المراكشي نسي (المعجب) يذكر انه كتب لعلي بن يوسف مع اخيه ابي مروان ولا يكون ذلك الا بعد عطلة من العمل، وفي هذه الاثناء كتب رسالته المشهورة في التشجيع على المرابطين التي استفزت حلم امير المسلمين فعزله عن كتابته وحينئذ يكون لزم داره متخوفا من تلك الاحقاد على حق في هذا التخوف.

وسياق الخبر كما يستفاد من (المعجب) ان على بن يوسف كان قد استدعى كاتبنا فيمن استدعاهم من اعيان الكتاب الاندلسيين للكتابة عنه وانه كان من انبيهم عنده واكبرهم مكانة لديه كما قال ابن الآبار في اخيه ابي مروان: «فلم يزل ابو عبد الله هذا واخوه كاتبين لامير المسلمين الى أن اخر امير المسلمين ابا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها انه امره واخاه ابا عبد الله ان يكتبوا عنه الى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن

رذمير لعنه الله هزيمة قبيحة (I) وقتل منهم مقتلة عظيمة فكتب ابو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك، وهي رسالة كاد اهل الاندلس قاطبة ان يحفظوها، احسن فيها ما شاء، وقد منعنى من ايرادها ما فيها من الطول، وكتب ابو مروان رسالة في ذلك الغرض افحش فيها على المرابطين واغلظ لهم في القول اكثر من الحاجة فمن فصولها قوله: (اي بنى اللثيمة واعيار الهزيمة ، الى م يزيفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد ؟ .

فليت لكم بارتباط الخيو ل ضانا لها حالپ قاعد لقد آن أن نوسعكم عقابا، والا تلوثوا على وجه نقابا، وان نعيدكم الى صحرائكم، ونظهر الجزيرة من رحضائكم) في امثال لهذا القول، فاحتق ذلك أمير المسلمين وأخوه عن كتابته وقال لابی عبد الله أخيه كنا في شك من بغض ابی مروان للمرابطين والآن قد صح عندنا، فلما رأى ذلك ابو عبد الله استعفاه فأعفاه ورجع الى قرطبة بعد ما مات اخوه ابو مروان بمراكش واقام هو بقرطبة الى ان استشهد في داره رحمه الله اول الفتنة الكائنة على المرابطين (2) .

I (انظر عن حروب ابن رذمير والمرابطين ما اورده كتاب القرطاس اثناء ترجمته على بن يوسف وبالحصوصى حوادث سننى 512 و 513 التى سقطت فيها مدينة سرقسطة بيد ابن رذمير وبلاد اخرى من شرق الاندلس، وهى الحوادث المعنية بهذه الهزيمة التى صدرت فيها الرسالة على ما يظهر وابن رذمير هو الفونس الاول ملك اراغون. 2 (المعجب ص 176 طشعة دار الكتاب.

وهذا النص ان كان افادنا سبب كتابة الرسالة التي نحن
بصددها فان فيه تخطيطا على ما يظهر وبيانه:

١ - ان امير المسلمين كلف الاخوين معا بان يكتب كل منهما
رسالة في الموضوع فكتبارسالتين مقذعتين، ولكن التي كتبها ابو
مروان كانت افحش من التي كتبها ابو عبد الله، والعجيب ان التي
اشتهرت وطارت كل مطار هي التي لهذا الاخير، مع ان الامر ينبغي ان
يكون على العكس وهو ان تشتهر الرسالة التي هي اكثر فحشا والتي
كانت السبب في عزل صاحبها، ثم لم يكلف امير المسلمين الكاتبين
معا بكتابة هذه الرسالة؟ اكان في شك من كفاءتهما فهو يريد
ان يمنحهما ؟

٢ - ان الفصل الذي اثبتته المراكشي وقال انه من فصول
رسالة ابي مروان هو في رسالة ابي عبد الله كما وجدناه في نصها
الكامل بأحد المجامع الاندلسية من مخطوطات مكتبة الاسكوريال تحت
رقم 538 منسوبة الى ابي عبد الله، وسيراه القارىء في هذه الرسالة
التي سنثبتها فيما يلي، وهو قد اقتضبه اقتضابا وتصرف فيه
بالتقديم والتأخير ما يدل على انه اثبتته من حفظه. وليس من
نسخة كانت عنده

٣ - ان احدا من المؤرخين لم يذكر عن ابي مروان شيئا مما
يفيده كلام المراكشي وانما يفيد كلامهم عنه انه كان يحل من امير
المسلمين بمنزلة المحب المكرم، وان الذي نبا به المنزل عنده هو ابو
عبد الله وهو في قول المراكشي نفسه صاحب الرسالة المشهورة

التي كاد اهل الاندلس ان يحفظوها، ثم هو الذي نزع باتفاق معه من مراکش الى قرطبة وانزوى بيته فيها خائفا من نتيجة عمله، على حين ان ابا مروان توفي بمراكش فلم لا يكون توفي وهو في خدمة اميره متمتعا برضاه لانه لم يعلق قط بما يوجب تنحيته عن الخدمة ويسبب له سخط رئيس الدولة ..

4 - ان المراكشي لم يشر الى ان رسالة ابي عبد الله كانت مدحا او ذما، ومقتضى سيرورتها وحفظ الاندلسيين لها انها من القبيل الثاني، فلم لم يعاقب ابو عبد الله بشيء وهو صاحب السابقة في الخروج والتضامن مع الناصر ابن الحاج؟

ففي نظرنا ان المراكشي وقع له وهم في هذا الخبر لانه كتب من حفظه بعيدا عن وطنه، وليست هذه بأولى غلطاته التاريخية التي نبهنا عليها في ترجمته من الذكريات (I) وان القريب الى الصواب ان تكون الرسالة من انشاء ابي عبد الله، وانه هو الذي قال فيه امير المسلمين لاخته ابي مروان: ولقد كنا في شك من بغض ابي عبد الله المرابطين والآن صح عندنا لا العكس الذي جاء في عبارة (المعجب) واذا ذلك استعفى ابو عبد الله فاعفى ورجع الى قرطبة ولزم داره وبقي ابو مروان في منصبه حتى توفي.

والآن نرجع الى الرسالة التي قلنا اننا عثرنا عليها في مجموع اندلسي من مخطوطات المكتبة الاسكوريالية فنقول انها تقع في صفتين من هذا المجموع وثلاث الصفحة وكل صفحة تحتوى على 12
(I) انظر الحطة 28 من الذكريات الخاصة بترجمة المراكشي

سطرا وخطها كباقي المجموع الاندلسى واضح وان كان لا يخلو من تحريف، وهى مسبوقه برسالة صادرة عن تاشفين ابن على الى اهل بلنسية لم يسم كاتبها ومتبرحة برسالة اخرى مر "انشاء كاتبنا مما كتب به عن امير المسلمين عند جوازه من سبتة للجزيرة الخضراء"، والمهم أنه فى نهاية رسالتنا هذه وردت هذه العبارة: "كامل ما كتب به الفقيه الاديب الكاتب البليغ الاديب ذو الوزارتين ابو عبد الله بن ابي الحصال عن امير المسلمين، فلم يبق شك فى انها لصاحبنا ابنى عبد الله لا لاخته ابنى مروان، وبما ان العبارة التى اوردها صاحب المعجب ونسبها لابى مروان هى من رسالة حاجتنا هذه فقد ترجع بذلك ان ليس هناك الا رسالة واحدة فى الموضوع وانها من انشاء ابنى عبد الله لا غير

وسيرى القارىء لهذه الرسالة ان كاتبها افحش فيها غاية الافحاش وتناول المرابطين بالقدح فى دولتهم والظن فى اصلهم فجعلهم من بقايا بنى الاصفر وهم - كما علم - ينتسبون فى صنهاجة الى حمير - ثم غيرهم بالجبن والبداءة واللؤم وجعل دخولهم للانندلس نكبة ووبالا عليها، وانها بحاجة الى التطهير منهم، ولم يدع سبة ولا كلمة تنال من كرامتهم تصريحا او تلويحا الا رماهم بها، كأنه يهتبل هذه الفرصة ليبر عن حقد دفين عليهم، ومع ذلك يقال انه لم يحظ عندهم ولم ينل ما يستحقه من العطف والتقدير، فالمعجب كيف سلم بجطده بعد هذه الفعلة الشنعاء، واقتصار امير المسلمين مع ذلك على اغفائه من الكتابة عنه لهو فى نظرنا مغربة الاخبار فى الحلم والسماحة

والصفح فلو صدر بعض ما في هذه الرسالة من الذم والهجاء من احد كتاب الاندلس او شعرائها في احد ملوك الطوائف الذين يقال انهم كانوا يبرون الادياء ويكرمونهم ويوفون لهم حقهم، لما كان جزاؤه الا القتل، لا ان يستعفى ويذهب لحال سبيله فيأوى الى بيته خائفا يترقب على ما قيل؟..

ومما يؤكد ان صاحبنا كان ناقما على القوم لسبب ما، وربما كان هو خيبته السياسية كما قدمناه، انه توفي مفتالا في فتنة ابن حمدين الذي اراد ان يفتنم فرصة انحلال الدولة المرابطية فدعا لنفسه في قرطبة ولم يتم له امر بدخول الموحدين اليها وقضائهم عليه وعلى رؤوس الفتنة جميعا، فهل شارك هو ايضا في هذه الفتنة بما اوجب اغتياله؟..

وبعد فهذا نص رسالته رحمه الله وعفا عنه، وكنا نود ان نشرحها بما يوضح معناها للعموم فرائنا ذلك يطول وحبذا لو وقع ضبطها بالحركات في الطبع على ما ضبطناه في الخط فذلك مما يعين القارىء المتوسط على فهم اغراضها البعيدة المرمى، ولا شك ان امير المسلمين ادرك جميع معانيها الخفية حتى تأثر بها وسرح كاتبها من خدمته وهذا وحده مما يكفيننا للدلالة على ما كان عند الامراء المرابطين من ثقافة عربية متينة.

(من امير المؤمنين وناصر الدين اما بعد يا فِرقة خَبِثَتْ سرائرها، وانتكشتْ مَرائرها، وطائفة انتفخ سمجرها، وغاض على حين مدء بحرها، فقد آن للنعم ان تفارقكم، وللادام ان تطأ مفارقكم،

حين ركبتموها جلتواء عارية، واصبحتم في ادراع عارها امثالا سواسية،
واختلط المرعى منكم بالهمل، فما يتميز الانقص من الاكمل،
فطاطاتم لها رؤوس عشائركم، وقضيتم بالفسولة على سائركم
لا جرم ان قد صيرتم سمير الندى، والاحاديث الملقنة بالغداقوالعشي،
بما خامركم من الجبن والخور، واستهواكم من لقاء عدوكم بالجانب
الازور، لا تواجهونهم طرفة عين، ولا تعاطونهم حمة حين، بل
تطونهم الضرة هنيا مربيا، وتتخذونهم وراءكم ظهريا، والرماح
نحوكم لم تشرع، والحيل لم تسرع، والنفوس في حياض المنية لم
تكرع فانكم تلت ذئابهم، وفريسة انباهم، قد نقيها في بنوسكم،
وناهضوكم بلبوسكم وحابوركم عاما على اثر عام، حتى الزقوكم بالرفغام،
وتركوكم اسلح من حبارى واشرد من نعام، فالآن حين ملائم ايديهم
متاعا، وواديهم سلاحا وكراعا، قد غزوكم في عقركم، واذاقوكم وبال
امرکم، فلذتم بالجدران، وبؤتم بالندامة والخسران، يا بقايا بنى
الاصفر، وسجاي اذوات الذل والحفر، اكرهتم زحافتهم، وكنتم عليم
الاضافهم، اتى لكم بالمعذرة واين، وقد فرض الله الواحد منكم
بالانين، فقال ان تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، هذا وكلمتكم
العليا، وحلوتكم الحياة الدنيا. ما شنتم من صارم وطيرف ونحس
وركائب وسوام، ونضائد وخيام، فيا اسفا للحق يدمغه الباطل،
والحالى يبهره العاطل، لا بالحنيفية تحرزتم ولا الى الحفيظة والانابة
تحيزتم، ليت شعري بماذا تقلدتموها هندية، واعتقلتوها سمهرية
خطية، وركبتموها جردا سوابق، وملكتوها مغارب ومشارق، ثاوين

في غير عدادكم، منتزعين على اعدادكم يؤدون الاناوة اليكم ، حين
 اشرقتموهم بالهوان، وانتم فيهم غرباء الوجه واليد واللسان
 وصيروكم عبيد العصي. وليسوا بالاكثر منكم حصا (1) بل شرفة
 قليل نفعا، كثير نفعها فيا عجباً لذهوكم، شبانكم وكهولكم، تاكلون
 تمرها، ولا تصلّون جمرها، وتذهبون بحلوائها، ولا تصبرون على
 لاوائها، أي بني اللثيمة واعيار الهزيمة، الى مَ يزيفكم (2) الناقد
 ويردكم الفارس الواحد:

الا هل أتاها على نايها بما فضحت قومها غامدا
 تمنيتم مائتي فارس فردكم فارس واحد
 فليت لكم بارتباط الخيو ل ضانا لها حالب قاعد (3)

ومن لرعاة الابل، بالجد المقبل، لقدما ما اذهبتهم التاند والطارف
 وعجت عجيجا من جذام (4) المطارف، وانتم قد قدحتم في ملكنا، وآذني

(1) بالاصل: ولستم بالاكثرين منهم حصا، والتصحيح هو
 الطرة، لكن ان ناسب المعنى الذي قبله فليس يناسب الذي بعده
 والعبارة على كل حال مقتبسة من قول الشاعر:

ولست بالاكثر منهم حصا وانما العنزة للكائر

(2) بالاصل: يريكمم والتصحيح عن المعجب فضلا عما
 يقتضيه لفظ الناقد من التزييف.

(3) الابيات لامرأة من غامد تسخر من قومها وقد هزمهم
 ربيعة بن مكرم الفارس المشهور وحده.

(4) هذا من قول الشاعر في روح بن زنباع :
 نبا الخز عن روح وانكر جلنده

وعجت عجيجا من جذام المطارف
 يصف تمكن روح عند السلطان ولباسه الخز ولم يكن من اهل
 والمطارف جمع مطرف وهو الثوب المعلم :

بانتشار سلكتنا، فلولاً من لدينا من ذويكم، وضراعتهم الينا فيكم،
 لالحقناكم عجلاً بصحرائكم، وطهرنا الجزيرة من رخصائكم، بعد ان
 نوسمكم عقاباً، ونحد ان لا تلوا (I) على وجه نقاباً، فاللؤم تحت
 عمائمكم، والوهن والفشل طى عزائمكم، لكن ما جبلنا عليه من الاناة،
 وتوخيها قدما من إقالة ذوى الهيئات يكفنا عن استيصالكم، ويحملنا
 على شحذ نهالككم، فاستنسروا يا بضات الهيحاء واستتيسوا بعد
 الوجاء، واحذروا حلماً اغضبتموه، وواديا من الصبر انضبتموه،
 وتوقوا صدرا اخرجتموه، وليثا من اجتمه اخرجتموه، وايم الله نقسم
 انذاراً بكم واعذاراً لكم، لنوردن الفار منكم من الزحف، ما عافه من
 مورد الخنف، ولنتجاوزن السوط الى السيف، ولنبدلن المعدلة فيكم
 بالحيث، فليعلم المحجم منكم عن الاقدام، انه سلم من الحمام الى
 الحمام، وتخطى مصرع الاسد الباسل، الى جذع مائل وبشهادة
 الابرار، الى مشهد الذل والصفار، كما ان من اصيب منكم فى حرب
 او ابلى بطعن او ضرب خلفناه فى الاهل والولد، وبعناه الاثرة
 والكرامة يدا بيد، فاختاروا لانفسكم واعقابكم، وانضوا ثوب الحزى
 عن رقابكم، والسلام على من حمى الاسلام).

(١) بالاصل: تلوا فلعل الواو الثانى سقط عند النسخ وفى
 المعجب تلوثوا وهى احسن.

هل لفظ سوقة استعمال عفى عليه الزمن ؟

كتب صديقنا الاستاذ عبد القادر الصحرى فى مجلة ودعوة الحق كلمة طيبة عن ديوان ملك غرناطة، يوسف الثالث، الذى حققناه ونشره معهد مولاي الحسن للابحاث بتطوان. ونحن نشكره على اعتنائه وما اثنى به على الديوان ومحققه، ونحب ان نراجع فيما لاحظته على استعمالنا لكلمة سوقة فى مقدمة الديوان حين تكلمنا على تاريخ الشعر فى الاندلس بلمحة خاطفة وقلنا ان مؤرخى الادب العربى يقفون به عند لسان الدين بن الخطيب، وقل منهم من تجاوزه الى ابن زمرك وابن عاصم كما فعل الرافعى فى كتابه تاريخ آداب العرب.

وقلنا باثر ذلك «وهذا كله فى شعر السوقة اعنى غير الامراء والملوك. اما هؤلاء فقد وقف التاريخ بهم عند ملوك الطوائف وعلى الاصح عند المعتمد بن عباد الذى هو بحق اشعر امراء الاندلس وملوكها على الاطلاق. والرافعى نفسه الذى عقد فى تاريخه فصلا لادباء ملوك الاندلس وتبع ذكرهم واحدا بعد واحد، لم يعد بهم آخر

القرن السادس. فاذا جئنا اليوم نرف الى العالم العربى بشرى وجود ملك اندلسى شاعر فى العصر الذى فقد فيه او عدم حتى الشعراء، السوق من الاندلس، فانما نكون قد اصفنا الى تاريخ الشعر نرى الفردوس المفقود صفحة ذهبية طالما طوتها عوامل الاعمال وعدت عليها عوادى السنين» .

هكذا جاء لفظ سوق فى كلامنا مستعملا بمعناه اللغوى الذى يقابل لفظ ملك والذى لم يستسغه الاستاذ الصحرولى فكتب عليه ما نصه «والذى نعرفه ويعرفه الاستاذ عبد الله كنون بكل تأكيد هو ان الناس والشعراء من ضمنهم، لا ينقسمون الى امراء وملوك من جهة، وسوق من جهة اخرى. واذا كان لابد من تقسيم من هذا القبيل بالذات، فانهم ينقسمون الى ملوك وامراء من جهة وغير ملوك وغير امراء من جهة اخرى، وليس من اللازم ان يكون هؤلاء جميعا سوق». على ان لفظ سوق استعمال قديم عفى عليه الزمن، ولم يعد هناك مبرر لاستعماله فى عصر ارتفعت المواطنة فيه بالمواطن الى الدرجة التى تفرض احترامه بقطع النظر عن مركزه الاجتماعى او مستواه المادى او العقلى او غير ذلك».

ونقول على كون لفظ سوق استعمالا قديما، هذا صحيح. واما انه عفى عليه الزمن فليس كذلك. ولعل من اشهر الشعر الذى جاءت فيه هذه الكلمة قول حرقه بنت النعمان بن المنذر:

فبينما نسوس الناس والامر امرنا

اذا نحن فيه سوقة نصف

ومن شواهد المروزيين

يا حار لا ارمين منكم بداهة
لم يلقها سوقة قبلى ولا ملك

وهو لزهير بن ابي سلمى.

واللفظ واقع فى شعر لبيد والنايفة وغير واحد من شعراء
العربية الاقدمين فلا نطيل بذكرهم.

ومن المحفوظ ما انشده الخليفة المعتصم عند احتضاره :

الموت فيه جميع الناس مشترك
لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

ولابن بسام :

اف من الدنيا وايامها فانها للحزن مخلوقة
غرمها لا تنقضى ساعة عن ملك فيها ولا سوقه
يا عجباً منها ومن شأنها عدوة للناس مشوقه

وانشد الاستاذ جبر خومط فى كتابه فلسفة اللغة العربية
وتطورها هذا البيت :

مضى ذكر التلنوك بكل عصر
وذكر السوقة العلماء بقاء

واخيرا هذا شوقى امير الشعر فى عصرنا الحاضر يقول فى

بيت له من رواية قبيز على لسان المالكة نيتاس :

اجل قد خلعنا ملكنا وتصرفت
بنما سوقة من جندنا وموال

هذا فى الشعر وفى النثر لست احدى من استعمل هذا اللفظ فى القديم والحديث، ويكفى ان اشير من كلا الفريقين الى الجاحظ واخوان الصفا وجبر خرمط فى كتابه المذكور وسعيد العريسان فى مقدمة كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشى الذى استعمله هو الآخر مرارا مما يدل دلالة كافية على ان اللفظ لم يعف عليه الزمن وان الناس ما زالت تستعمله منذ وضعه الواضع حتى الان بمعناه الذى جاء به فى كلامى.

ولعل ما حمل الاستاذ على استنكاره هو ما يسبق اليه ذهن بعض الناس من انه بمعنى السوقى فيكون ذما ، وليس هو كذلك فان السوقة عند العرب هم الرعية، يقال للواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، وربما جمع على سوق بضم ففتح ويقابله الملك، وسميت الرعية سوقة لان الملك يسوقهم ويصرفهم على ارادته . وليس كل لفظ التبس معناه فى ذهن العامة يجب تركه، فلا يزال بعضهم يفهم من قوله تعالى (غشاء احصى) ومن قوله (القارعة ما القارعة) ما يسبق الى ذهن صبيان الكتاتيب من لفظ الآيتين الكريمتين ، ولكن لا احد يرى ترك اللفظ الموهم فيهما مجارة للفهم الخاطىء.

بقيت كلمة صغيرة على قول الاستاذ ان المواطنة ارتفعت بالمواطن الى ما قال ، ومن ثم فانه لم يبق مبرر لاستعمال ذلك اللفظ ، واطنه لا يخفى عليه انه فى مجال الحكم لم يتغير اى شئ وانه ما زال الناس كما كانوا فيما سبق يساقون من قبل الحكم

ملوكا كانوا او غير ملوك ، ولينظر في حال ارقى البلاد اليوم واشدها تمسكا بما يسمى بالديموقراطية ، اليس يرغم فيها الناس على خوض غمار الحروب التى لا فائدة لهم منها اطلاقا (I) وتؤخذ اموالهم لتصرف فى كثير من الابواب التى لا تنفع فيها قطعا ، ويحجر عليهم فى كثير من التصرفات وان اقتضتها مصالحهم لاعتبارات شتى لا تدخل فى حفاظ على نفس او مال او دين ، فهل هذا الا السوق والدفع وانزبن الذى منه اخذ لفظ السوق ؟

هذا على الصعيد الجماعى واما على الصعيد الفردى فان ما عومل به سقراط فى ظل اقدم حكم ديموقراطى عرفناه وما عومل به باسترناك فى هذه الايام على عهد المواطنين الرفقاء الاشتراكيين الديموقراطيين، يكفينا لمعرفة ما اذا كان هناك مبرر لاستعمال لفظ سوقة او لا

ولعلنا وقد هذبنا اللفظ ونم نعد نقول حتى ما فسر به من الرعية وصرنا مواطنين لا رعايا فقلنا بدله الشعب، ألم تأخذ هذه الكلمة هى ايضا معنى الفضاضة التى لم تقبلها فى لفظ سوقة؟ السنا حين نريد ان نضع من قدر الشخص نقول فيه انه رجل شعبى؟

وشئ آخر فان الذين قالوا ملك وسوقة جعلوا الامة طبقتين، ونحن الآن نجعلها ثلاث طبقات فنقول ملك وحكومة وشعب وملك هنا تعنى ما يشمل الرئيس. فقد زيد فى الشطرنج بقل وهو الحكومة فى عصر المواطنة. واظن الاستاذ لا يختلف معى فى ان هذا التقسيم

(I) الاشارة هنا الى حرب كوريا

يقتضى امتيازات ومعاملة خاصة لكل طبقة من طبقاته، ولا ادل على ذلك من هذه المعالجة التي تقع في هذه المجلة التي يشرف عليها هو نفسه. ألم يلاحظ انه عند ما ينصب ميزان النقد للمدد السابق في كل عدد لاحق، كيف يتجنب الناقد انتاج الوزراء وذوى المقاصات الكبيرة ممن يضر وينفع فيمر عليه مر الكرام ولا يتناوله من اى جهة كأنه غير منشور في المجلة ، اللهم إلا اذا كان سيكيل له المدح والثناء كيلا؟ اما انتاج السوق، وهى هنا لم تبقى تقابل الملك فقط بل الملك واعضاء الحكومة، فانه يتناوله من جميع اطرافه ويقول فيه كلمته ولو لم يكن لها محل من الاعراب.

واذن فان معنى السوق لا يختلف عن معنى الرعية والشعب ان لم يكن اصح منهما، ولفظه ما يزال مستعملا ثم يعف عليه الزمن، ونظن انه لن يعفى عليه حتى يرحمنا الله بعصر لا يكون فيه فرق بين المواطنين سواء كانوا حاكمين او محكومين .

واخيرا اكرر شكرى للصديق الاستاذ عبد القادر الصحراوى على ما قرط به ديوان ملك غرناطة ونوه بعمله فى تحقيقه .

مساهمة المغرب فى تقدم الثقافة العربية

يحكى ان صاحب بن عباد لما سمع بكتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه اشتدت رغبته فى اقتنائه والاطلاع عليه. وعندما حصله وتصفحه قال: «هذه بضاعتنا ردت اليها، كنت اظن انه يشتمل على شيء من اخبار بلادهم، فاذا هو لا يعدو اخبار بلادنا. ردوه الى صاحبه، لا حاجة لنا به».

ومنذ قال صاحب هذه الكلمة والناس يحملونها محمل الزاوية على ابن عبد ربه وكتابه، وهى كذلك حقيقة تاريخية عن واقع الحياة الادبية فى الاندلس على عهد ابن عبد ربه، وهو عهد خلفاء قرطبة من بنى امية.

فقد كان ذلك العهد فى الحقيقة امتدادا لعهد الخلفاء الامويين فى دمشق، السياسة سياستهم، والاجتماع والادب ما كانا عليه ايام عبد الملك بن مروان وابنائهم فى العاصمة العربية الخالدة. وفيما كانت بغداد تبني مجدها ومجد العرب العلى على اساس النقل والترجمة

وتطور الفكر والحضارة بالاقتباس من الامم التي سبقتهم في هذا الميدان، كانت قرطبة ما تزال تركز صبغتها العربية فتوفد رجالا للتضلع من الثقافة العربية الاسلامية في منابعها الاصلية بالمدينة وغيرها، وتستقبل آخرين من اعلام هذه الثقافة الواردين عليها من المشرق كآبى على القالى وصاعد البغدادى، فيلقون من الحفاوة والاکرام ما كان يلقاه الاطباء والفلاسفة حينذاك في بغداد عاصمة العباسيين .

ولامر ما كان ظهور كتاب «الآغانى» لآبى الفرج الاصبهاني في الاندلس قبل ظهوره في المشرق موطن مؤلفه.

واذن فان ابن عبد ربه لم يكن الا حاكيا لصدى الثقافة المنتشرة في بلاده، ومعبرا امينا عن التيارات التي توجه هذه الثقافة.

وبديهي اننا لا نعننى انصراف بغداد عن الاهتمام بالثقافة العربية الاسلامية وتشجيعها، ولا اهمال قرطبة اهمالا كلياً للعلم والفلسفة، وانما نقصد ان هذه هي الحالة التي كانت غالبة على كل من العاصمتين .

وحدثنا عن الاندلس يشمل المغرب العربي كله، ففي القيروان بالمغرب الاوسط، وفي فاس بالمغرب الاقصى، لم يختلف الاتجاه عما رايناه في قرطبة، وان لم تبلغ هاتان العاصمتان قط مبلغ قرطبة في نمو الحياة الادبية وازدهارها لاسباب معروفة.

اما متى تبوأ المغرب مكان الصدارة في الحياة الفكرية العربية، وأسهم مساهمته الفعالة في تقدم هذه الحياة، فذلك حين توجه على يد امراء المسلمين من ملوك المرابطيين، ثم على يد خلفاء الموحيدين،

وتابع طريقه بعد ذلك الى هذا اليوم. فقد كانت الانتكاسة التي حلت بالاندلس بعد انقراض دولة الامويين وقيام ملوك الطوائف تؤذن بانحسار المد العربى فى هذه البلاد، لو لم يسارع البطل المغربى العظيم يوسف بن تاشفين لانقاذها. وفضل هذا الملك فى استرجاع الاندلس الى حظيرة العروبة والاسلام بعد ان اشرفت على الضياع لا يعادله الا فضل فاتحها الاول طارق بن زياد المغربى.

ومعلوم ان الشرارة التي اعدت الغرب الاوربى فاقامت فيه هذه المدنية الحديثة انما انبعثت اليه من الاندلس فى هذا العهد، فان فلسفة ابن رشد وابن طفيل وابن باجة وابن زهر وطبهم هما اللذان فتحا اعين الاوربيين على حقائق العلم الصحيح ونتائج المعرفة المبنية على التجربة والمشاهدة. وهؤلاء الاعلام انما نبغوا فى ايام المرابطين وانا آتوا اكلهم الشهى فى ايام الموحدين. فمن الثابت تاريخيا ان الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المومن هو الذى حمل ابن رشد على تلخيص فلسفة ارسطو وتهذيبها وكتابة ما كتب عليها من الشروح والتعليق. وكان هذا الخليفة اشبه الملوك بالمأمون العباسى فى الشغف بعلوم الحكمة والعمل على نشرها. وكان هو نفسه متحققا بكثير من مسائلها مشاركا فى جملة من فنونها ويقول عبد الواحد المراكشى فى كتابه المعجب « انه استظر من الكتاب الطبى الملكى اكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ثم تخطى ذلك الى ما هو اشرف منه من انواع الفلسفة ».

وكان قد استوزر الفيلسوف ابا بكر بن طفيل، وهو الذى دله

على ابن رشد قاستدعاء وافضى اليه برغبته المذكورة كما حكى ذلك المراكشي في تاريخه عن تلميذ له اسمه ابو بكر بن داود القرطبي عنه قال: «استدعاني ابو بكر بن طفيل يوما فقال لى: سمعت امير المؤمنين يشتكى من قلق عبارة أرسطو طاليس او عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض اغراضه ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب اغراضها بعد ان يفهمها جيدا لقرب مأخذها على الناس، فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل. واني لارجو ان تقى بها لما اعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة. وما يصنعنى من ذلك الا ما تعلمه من كبر سننى واشتغالى بالخدمة وصرف عنايتى الى ما هو اهم عندى منه. قال ابو الوليد: فكان هذا الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطو طاليس».

واما عن النهضة الادبية فان ما عرف الناس منها على عهد المرابطين ثم الموحيدين اعظم بكثير مما عرفوه على عهد من قبلهم. والمجموعات الادبية الكثيرة التى تضم عددا عديدا من اسماء الشعراء والكتاب النابغين فى المغرب والاندلس انما صنعت فى ايام توحيد المغرب. وباسماء ملوكه وامرائه، مثل قلاند الفتح بن خاقن وذخيرة ابن بسام وصفوة الجراوى وما اليها. وهى الدواوين التى تضمنت طلبية صاحب بن عباد، ولو رآها لما قال كلمته تلك، ولكن انى له ان يراها وهى انما الفت بعد زمنه فى عهد اكتمال الشخصية المغربية وازدهار الثقافة العربية فى هذه البلاد.

والعجب من المستشرق «راينهرت دوزى» فى ادعائه ان الحياة

الادبية بالاندلس قد اضمحلت بعد استيلاء المرابطين عليها، وهما نحن
اولاء الرى العكس، وقد خطاه فى ذلك المستشرق الاسبانى «كارسيا
كومينز» ولكنه عاد فوقع فى مثل خطئه بحكاية الاقوال الضيائية
التي نسبها بعض المؤرخين الى يوسف بن تاشفين. وهى عقدة يصعب
على الكتاب المسيحيين ان يتخلصوا منها مهما تحلوا بصفة الانصاف.
والآن نذكر بعض الاعمال التي قام بها افراد من المخاربة فى
سبيل نشر الثقافة العربية الاسلامية ورفع لوائها الخفاق فى كثير
من الآفاق .

فالى جانب طارق بن زياد ويوسف بن تاشفين يجب ان يذكر
الامير ابو بكر بن عمر اللمتونى الذى تنازل عن الملك لابن عمه
يوسف، ومضى هو ينشر الدعوة الاسلامية، وفى ركابها طبعا اللغة
العربية بين اقطار افريقية الغربية. فزهد فى المال والجاه والنعمة
بارض المغرب الفيحاء، ودخل الصحراء التي يلفح سمومها، ويقتل
حرلها، وتوغل فى بلاد السوادين، مبشرا بكلمة الله، مقدما بين يديه
المصحف الكريم، فلم ينته حتى وصل الى حدود غينيا. وهكذا خفقت
راية الاسلام فوق السينكال ومالى والنيجر، وتبع ذلك انتشار العلوم
الاسلامية والعربية- التي ما فتئت جامعة القرويين تغذى ابناء هذه
الاقطار- بلبائها حتى يومنا هذا.

وعلى ذكر القرويين فاننا لا ننفل دور هذه الجامعة فى خدمة
الثقافة العربية الاسلامية وتقدمها ونشرها فى اقطار المعمور. ونقول
فى اقطار المعمور ونحن تعنى ما نقول. فقد كرع من حياضها رجال

لا يحصون من أهل المشرق والمغرب ومن أوروبا أيضا وطلت منذ تأسيسها سنة 245 وهى منارة اشعاع فكرى فى العالم الاسلامى الى جانب شقيقاتها جامعة الزيتونة وجامعة الأزهر وجامعة النجف الشيعية .

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا ذكر النابغين من أبناء المغرب فى مختلف العلوم اسلامية وقديمة ولذلك فاننا نكتفى ببعض الامثلة التى فيها غنية عن الاكثار. ونبتدىء بالعلوم الاسلامية لشرفها.

فى هذا الميدان من الاختصاص العلمى لانقدم الا شخصا واحدا وهو القاضى عياض الذى قيل فيه:

مشارك انوار تبنت بسبته

ومن عجب كون المشارق بالغرب

وسبته هى بلده. وفى هذا البيت تورية بكتابه «مشارك الانوار فى غريب الحديث والآثار»، وهو كتاب من الشهرة بمكان. وقد قيل فى اجابة صاحب هذا البيت :

وما فضل الا رجاء الا رجالها

والا فلا فضل لترب على ترب

وكان هذا الفاضل محدثا وفقهيا واديبا ولفويا كبيرا .

وخلف من الكتب الممتعة ما جملة احد اعلام الفكر فى العالم الاسلامى والعربى. وترجمه بصفته الادبية الفتح بن خاقان فى قلائده. والف فيه العلامة المقرئ كتابه ازهار الرياض وهو يقع فى اربعة مجلدات. ومن كتبه الاسلامية الشهيرة كتاب «الشفاء». هذا الكتاب الذى

غزا العالم الاسلامي كله، عربيه وعجميه، بحيث اصبح من الكتب المقدسة التي يتبرك بتلاوتها ويستشفى بقراءتها. وهو في تحليل حياة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته، والذب عن المطاعن والشبهات التي يوردها الملاحدة في هذا الصدد.

واشتهر كذلك من كتبه التاريخية كتاب «المدارك» وضعه في حياة الامام مالك واصول مذهبه وترجيحه على المذاهب، وتراجم كبار اصحابه والفقهاء من اتباع مذهبه من اهل الانظار الاسلامية. ويقع في اربعة مجلدات.

وكتبه كثيرة يضيق المقام عن تتبعها، ويكفي من القلادة ما احاط بالحق .

ومن نبأ اهل المغرب في علم العربية من جاذب سيبويه حبل الذكر، وتقصص معه جلاباب الشهرة، وهو ابن أجروم فذاك الف «الكتاب» فضمنه علم النحو بجميع قواعده وشواهد، وعصم لسان العرب من اللحن على كونه اعجميا، وهذا وضع «الأجرومية» فجعلها مقدمة الكتاب ومدخلا له، لم يلجأ أحد الا من بابها، وغبر زمان طويل لم يكن اعتماد العرب في تثقيف السنة ابنائهم الا عليها مع كون صاحبها اعجميا ايضا. ولقد بلغ من تقدير العرب لهذا الرجل ومقدمته الصغيرة ان أطلقوا اسمها على علم النحو فقالوا: «الأجرومية»، وعنوا النحو حتى التبس ذلك على احد الاعلام من رجال النهضة الحديثة، وهو الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة «المقتطف»، وظن العرب اخذوا هذا الاسم من لفظ Grammaire اليوناني الاصل الذي يعنى النحو.

وفى علم اللغة ناهيك بابن الطيب الفاسى الذى أربت كتبه
على الحسين. من اعظمها فائدة واكثرها عائدة حاشيته الكبرى على
قاموس الفيروزبادى التى استقى منها كثيرا شارحه الشيخ مرتضى
الزبيدى فى تاج العروس واعترف بأنه شيخه فى هذا العلم.

اما الشعر والادب فعندنا الشاعر ابن جبوس الفاسى، وهو
يعدل بابن هانىء متنبى المغرب، والكاتب ابو جعفر بن عطية ويعدل
بابن زيدون، والشاعر الجراوى صاحب كتاب «صفوة الادب» المعروف
بالحماسة المغربية، والاديب الشاعر المتفنن مالك بن المرحل، وكان
غاية فى النوادر والملح والاخبار، وامتاز من بين شعراء المغرب بتنوع
مقاصده وكثرة اغراضه وسعة عارضته وقوة ملكته، وله عية دواوين
شعرية ومؤلفات فى اللغة والادب وفنون المحاضرة، منها كتاب
«الضرب بالعصى والرمى بالحصى» الذى حاور فيه ابن ابى الربيع
النحوى، وغيره. ويشبهه فى المتأخرين ابن زاكور الاديب الشاعر
المؤلف، وله ديوان شعر معروف وشرح على ديوان الحماسة سماه
«عنوان النفاسة»، وشرح على قلائد العقيان، وكتب اخرى من
هذا القبيل.

وبين ابن المرحل وابن زاكور شعراء آخرون كثيرون لا فائدة
فى ذكر اسمائهم من غير ذكر لآثارهم. ومما صر ابن زاكور محمد بن
الطيب العلمى وحده ترجم فى كتابه «الانيس المطرب» لاثنى عشر
اديبا من اهل عصره، وذكر جملة من اشعارهم ورسائلهم فيها الكثير
الطيب. بل ان عصرينا المرحوم محمد غزيط قد ذكر فى كتابه

«فواصل الجمان» نحووا من ثلاثين اديبا ممن ادركهم هو، وترجمهم بطريقة النشر الفنى الذى كان بارعا فيه. فالمجال فى هذا الباب واسع وما المما به منه فيه مقنع.

واذا التفتنا الى فن التاريخ والتراجم فاننا نرى رصيد المغرب فى هذا الفن مما يفنى ويقضى. فالمراكشى وابن عذارى وابن ابي ذريح وابن القاضى والفشتالى والافرانى والزىانى والناصرى وابن جعفر الكتانى وابن زيدان وغيرهم اسماء لامعة خدمت التاريخ السياسى والادبى لهذا الجناح من العالم العربى خدمات جلى لولاها لساد الظلام على فترات تاريخية من حيوات اجيال بهم كل عربى ان يعرفها، لارتباطها بماضى موطنه الكبير، ولما اشتمل عليه من احداث واعمال يحق له ان يفخر بها ويعدها من مآثر امته العظيمة.

ولا ننسى الجغرافية والرحلات، فالشريف الادريسى كان اول من وضع خريطة مدققة للعالم بعد بطليموس. وقد صنعها فى شكل كرة من الفضة ومثل عليها اقسام اليابس والماء، وتحرى فى ذلك ما لم يتحره احد قبله بحيث بقيت خريطته هذه مدى سنين اصح خريطة للعالم. وائف كتاب «نزعة المشتاق فى اختراق الآفاق» نشر فيه هذه الخريطة وتوسع فى جغرافية الارض فلكية وطبيعية وفلاحية وعمرانية بما لا مزيد عليه فى الدقة التى يمكن ان يتوصل اليها العلم آنذاك..

وجاء الرحالة ابن بطوطة بعده فجاب اقطار المعمور وعرف من المجاهل فى افريقيا وغيرها ما لم يعرفه احد قبله وكتب لنا رحلته

المتعة وتحفة النظارة، التي ما تزال تستهوى الرواد وعشاق الاسفار
فى كل بلد حتى الآن.

اما العلوم القديمة او الكونية التى تعد تراثا مشتركا بين
الشعوب، فان المغرب لم يقصر فيها عن غاية بلغتها امة من الامم فى
المصور السابقة، بل شارك فى تقدمها وعمل على نشرها حتى كان ما
اشرق من نورها على اوربا فى المصور المتوسطة انما اشرق عليها
من جهته كما مر آنفا. ومن المشهور ان البابا سيلستر الثانى قد
درس بفاس، وكان يبهر معاصريه بتفنه فى العلوم وانه الذى ادخل
الى اوربا الارقام العربية المستعملة فيها الى الآن. وهى احد الشكلىين
اللذين كان للعرب فضل ابتكارهما، هذا الشكل الذى اخذه الاربينيون
وبه العمل فى المغرب، والشكل الذى يعرف بالهندي وبه العمل فى
المشرق العربى. نص على ذلك الرياضى المعروف ابن الياسمين فى
كتابه تلقيح الافكار.

وابن الياسمين هذا كان من الشخصيات العلمية الفريدة. وهو
الى تمكنه فى الادب والشعر امتاز بتضلعه فى العلوم الرياضية
واشتهرت ارجوزته فى الحساب والجبر اىما اشتها، وهى تتضمن
خلاصة كثير من القوانين والمعادلات الجبرية التى توجد فى كتب
الجبر الحديثة. كما له كتاب «تلقيح الافكار فى العمل برسوم الفبار،
يعنى الارقام الحسابية العربية بشكليها المذكورين، وهو كتاب قيم
جمعه من مذكراته التى كان يلقيها على طلبته فى العلوم الرياضية

وبجانب ابن الياسمين يذكر ابن البناء العددي الذى طبقت

شهرته الآفاق، ورفع من ذكر بلده مراكش بما نبغ في علوم العدد والحساب والهندسة والنجوم. وقد ترجمت كتبه الى اللغات الاوربية من زمن طويل. وتبنى بعض الرياضيين بعض نظرياته في هذا العدد، كما كشف الستار عن ذلك الرياضى الفرنسى شال. ومن شدة تأثير كتبه فى تعلم العلوم الرياضية ان كلمة Almanach التى تفيد معنى التقويم الزمنى انما اخفت من اسم كتابه «المنهاج» كما يقول سارطون يعنى «منهاج الطالب فى تعديل الكواكب» وهو من كتبه المشهورة، وله فى الحساب كتاب «التلخيص» سار كل مسار وكتبت عليه الشروح المديدة، وقال فيه ابن خلدون: «انه ضابط لقوانين اعماله مفيدة» وله ايضا «رفع الحجاب» وهو اكبر من التلخيص، قال عنه ابن خلدون: «وهو كتاب جليل القدر ادركننا المشيخة تعظمه وهو جدير بذلك». — الى كتب اخرى فى الفلك والهندسة والفلاحة والعلوم الروحانية.

وكان ابو على الحسن بن على المراكشى من اعظم رياضى العرب فى القرون الوسطى، اعترف له بذلك علماء الغرب المحدثون، وهو صاحب كتاب «المبادئ والفايات فى علم الميقات» الذى يقول فيه صاحب الظنون «انه اعظم ما صنف فى هذا الفن» ونسب سبيدو بصواب تصحيحاته فى الجغرافية الفلكية وبسببه الى استعماله الخطوط الدالة على الساعات المتساوية، فان اليونان لم يستعملوها قط. ولو ذهبنا نذكر جميع الرياضيين المغاربة وخصوصا الفلكيين منهم وما لهم من آثار. لما وسعنا هذا المجال الضيق، وفى خزانتنا

من تأليف علماء المغرب في هذا العلم فقط عشرات الكتب والرسائل
فما بالك بما في غيرها، بله ما اندثر ولم يبق له اثر.

ونبغ في الطب يوسف بن سيمون اليهودي رفيق موسى بن
ميمون وزميله في العمل وابو العباس الجزائى الذى كان كاتباً
وشاعراً وفيلسوفاً وطبيباً وكيميائياً، وابو القاسم الوزير صاحب
كتاب «المفردات الطبية» المشهور، واسرة ادراك التى تسلسل الطب
فى عدة من افرادها وابن شقرون المكناسى صاحب «الشقرونية فى
علم تدبير الصحة» وابو القاسم الغول وله ايضا نظم طبى محبوب
احسن تبويب .

وبكر المغاربة يوضع دوائر للمعارف العامة قبل ان يظهر هذا
النوع من التأليف فى العصر الحديث بقرون عديدة ومن احسن ما
ينطبق عليه هذا الوصف كتاب «الاقتوم فى مداخل العلوم» ليعبد
الرحمن الفاسى. تكلم فيه على نحو مائة وخمسين علماً فاستوعب
مبادئها واستوفى حدودها بأوجز عبارة وأوضحها، وهو نظم من الرجز
فى عدة آلاف بيت.

هذا ولم نذكر الى تخليد الآثار وعمارة الاماكن والديار، فمصر
واهرامها، وبغداد وقصورها، والحمرات وزخارفها، لا يمكن ان تغفل
على ما شاهده المغاربة من مصانع هائلة، وما انشأوه من مدن عامرة
وما ابتدعوه من فن جميل، فلئن بنى المنصور بغداد والمعر القاهرة،
فلقد بنى ادريس الثانى فاس، وابن تاشفين مراکش، وتانك عاصمتان
اسلاميتان كبيرتان فى اقليمين متباعدين، وهاتان عاصمتان

اسلاميتان كبيرتان في اقليم واحد طالما زُهِيتَا على عاصمتي الشرق
بلبركها وجيوشها وعلماؤها وادباؤها حتى لقد قيل كثيرا ان
بلاطيهما كانا يموجان في مناسبات مختلفة بما لم يصعد
في بلاط بغداد من افواج الكتاب والشعراء والفلاسفة والمؤرخين
والفقهاء وغيرهم.

وان ننس من المصانع الهائلة الدالة على علو همة منشئها، فلا
ننسى المآذن الثلاث، الكتبية بمراكش، والخيرالدة باشبيلية،
وصومعة حسان بالرباط.

تلك الاثافي التي تقدم دليلا على عظمة فن المعمار بالمغرب والتي
لو لم يكن للنصور الموحدي اثر الا هي لكفى. وكذلك يُقال
في مآثر السلطان مولاي اسماعيل العلوي ومثباته بمكناس التي
حار الناس في امرها فنسبوا صناعتها الى الجان. وقديما نسب العرب
كل امر غريب الى عبقر.

اما في باب زخرفة البناء وتشجيده بالكلس والجص وصنع
المقرصات البدعة وتلوينها وتذهيبها، وتنظيم قطع الفسيفساء،
الجميلة وتنسيقها، والكتابة والنقش على الجص والخشب بكل تنوع
وتفنن، فهذه آثار بنى مرين بفاس وغيرها ومن اعجبها مدارسهم
العلمية الشهيرة، وهذه قبور السعديين بمراكش كلها تشهد بما لهذا
المغرب العظيم من سبق في مضمار الفنون الجميلة، والابداع في
هندسة البناء الرفيعة، وليس الصيان كالبيان.

ان هذه الاعمال الكبيرة التي ذكرناها، والشخصيات العظيمة

التي قدمناها، لو حذفت من التاريخ لطويت صحف من اعظم صحف
المجد والخلود للامة العربية، ولحسرت الانسانية جانبا من التراث
الفكرى والحضارى الذى تمتاز به الآن.

وهذا خير تقويم لمساهمة المغرب فى تقدم الثقافة العربية بل
أقربه الى الانصاف واقله تبجحا. ولعل من المناسب ان ننقل عبارة
شهيرة للشيخ محمد بيرم التونسي صاحب كتاب «صفوة الاعتبار»
جاءت فى كتابه هذا، وهى قوله:

«لعمري ان صناعة الانشاء فى الدول باللغة العربية كادت
تكون الآن مقصورة على دولة مراکش». فاذا كان هذا الفاضل قد
سجل ملاحظته هذه عن تفوق المغرب فى العالم العربى فى وقته فى
فن الانشاء (وهو يعنى كتابة الرسائل الديوانية) فكم من باب من
ابواب المعارف ينتظر تسجيل ما للمغرب فيه من يد كانت وما تزال
ذخرا للعروبة وفخرا.

السليقة عند العرب المحدثين

كان العرب الاولون يتكلمون اللغة العربية بالسليقة اى بالمران والتعود من غير تلقين ولا تعليم كما نتكلم نحن العامية اليوم فيقيمون بها السنتهم وتنشأ عندهم ملكة التعبير عن الاغراض المختلفة بكلام عربى مبين الى ان جاء الاسلام وانتشرت دعوته فى الاقطار فاختلطوا بغيرهم من الامم والشعوب الاعجمية اى التى ليست بعربية فسرت المعجمة الى لسانهم وظهر فيهم من يلتوى كلامه فيفهم غير ما يقصد كما حكوا عن ابنة ابي الاسود الدؤلى التى ارادت ان تعجب من شدة الحر فنقلت صيغة التعجب الى الاستفهام بمجرد اختلاف نطقها فى حركة الدال من الفتح الى الضم فى جملة ما اشد الحر .

ولا تعنى السليقة ومعناها الطبيعة مجرد الاعراب ومراعاة قواعده عند الكلام فحسب وان كان الشاعر قد قال:

ولست بنحوى يلوك لسانه ولكى سليقى اقول فاعرب

ولكنها تعنى ايضا التصرف فى وجوه الكلام بالاستشاق والتعريب والقياس على ما وضعت العرب وتكلمت به من صيغ

واساليب، حتى ما يتعلق منها بالبلاغة ومطابقة الكلام لمقتضى الحال.
هذا القدر هو الذى يهمنا فى هذا البحث، فانا لا ندعى ان
ملكة الاعراب مما امكن الاحتفاظ به او استمرت مراعاة كلاً أو
بعضاً بعد الصدر الاول الذى ظهرت فيه العجبة وشاع اللحن واضطر
العرب الى وضع علم النحو للمحافظة على سلامة لغتهم واستقامة
السننهم بخلاف الامر الثانى الذى نتلمس بقاياه فى لغتنا العامية
ولهجاتنا المختلفة والذى تسلسل عبر العصور وما يزال اثره
محسوساً فيما نستحدثه من الفاظ او نقيسه من عبارات على ما
رسخ فى نفوسنا وانطبع فى اذهاننا من رصيد لغوى ذى قواعد
واصول عربية لا جدال فيها ترجع تارة الى اصل الوضع واخرى الى
قاعدة الاشتقاق والتعريب وما كان من ذلك بسبيل.

فهذه اثاره من السليقة العربية لا تزال عند العرب المحدثين
يتوارثونها خلفاً عن سلف وجيلاً عن جيل، يتصرفون بها فى لغتهم
فيبدونها بما تحتاج اليه من كلمات معبرة واسماء لمسميات جديدة
فى دائرة معرفتهم الضيقة وعلى صعيد مدركاتهم الحسية والبصورية
المحدودة. ولذلك نرى ان اللغة العامية ما فتئت تنمو وتزدهر الى
جانب اللغة الفصحى، وانها لم تقف قط عاجزة عن تسمية الادوات
الجديدة ووضع المصطلحات الضرورية لمستحدثات الحضارة، فى حين
كانت الفصحى منكشمة بانكماش المسؤولين عنها ومنزوية عن
مواجهة الحياة المتجددة بما يلزمها من اوضاع ومصطلحات عديدة
فى غير ما علم وفهن.

وبالضرورة لم يكن عمل السليقة يتجاوز الحدود المرسومة
للأجيال المتلاحقة التي انحصرت معارفها في المظاهر الحضارية
والوسائل المهنية مما قضت عليهم الحاجة الملحة باصطناعه ومزاولته.
كما انه لم يكن مصيبا دائما ولا موافقا للقواعد والقياس، وعلة ذلك
ظاهرة. فان الحس اللغوي عند العامة لم يكن من القوة بحيث يتجنب
الخطأ ويحتمى من الزلل، وقد اصطلحت عليه العوامل المختلفة من
غلبة العجة وهبوط المستوى الثقافي وانتشار الامية وسوى ذلك،
فلا ينتظر منه ان يكون اقوى مما هو عليه. والسليقة مهما قويت
وسلمت من العلل فلا بد لها من شذوذ وتعثر، فان العرب العرباء
انفسهم قد خالفوا القياس وارتكبوا الشذوذ، وهم وضعة للغة
ومهدوا سبيلها للناس، فكيف بالعامة بعد عصور واجيال من
تراجع اللغة ونضوب معينها.

ولكن ان اخطأ العرب الاولون او خالفوا القياس في كلمات
معدودة، فان العرب المحدثين بالعكس من ذلك قد اخطأوا كثيرا ولم
يصيبوا الا قليلا. ونحن هنا في هذه الكلمة سنوجه عنايتنا الى ما
اصابوا فيه واتوا به مطابقا للاصول من غير ان يكون مرجعهم في
ذلك نحوا ولا صرفا ولا استقراء لقاعدة من قواعد العلم، وانما هو
بقية من السليقة العربية ونزوع العرق بالقوم الى اصلهم الاصيل.
كما يحدث ان تظهر بعض العلامات في المواليد الطبيعية مما يرجح
الى الخلق او الشكل او اللون الذي كان عليه اجدادهم السابقون
بمامل الوراثة الذي اصبح قانونا علميا مسلما به من الجميع.

وقضية ذلك اننا نعتبر الكلمة التي من هذا القبيل عربية اصيلة
يجب ان تاخذ طريقها الى المعجم العربي من غير توقف لتوفرها على
المطلوب من موافقة القياس اللغوي وجريانها على السنة العموم بحكم
ان واضعها قدر الحاجة الماسة اليها وسد بها فراغا كان الجميع
يشعر به. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان ذلك يدل على ان
السليقة العربية لم تمت وانها بقليل من المعالجة التي لا تعدو تصحيح
التعليم وتبسيط قواعد اللغة، ستنبعث من جديد، والفعالية التي
كانت لها في امداد العامية وارفادها بالاوضاع والمصطلحات
الضرورية للتعبير صوابا او خطأ، ستتحوّل الى تطوير الفصحى
واغنائها بما هي في حاجة اليه من ذلك مع سلوك نهج الصواب في
الغالب الاعم كما كان عليه الحال يوم كانت السليقة العربية باتها
لا تشكو ضعفا ولا انحلالا.

وغنى عن البيان اننا سنعطى امثلة ولا نستقصى، لان غرضنا
الاول هو اثبات بقاء السليقة العربية وعملها ولو في نطاق محدود لا
الاحصاء والاستقراء والتتبع. ثم اننا قد نضرب المثل من العامية
المغربية، وليس مقصودنا تمييزها بشيء بل مجرد الكلام عما نعرفه،
مع ما في ذلك من الدلالة على ان السليقة هي في كل مكان حلة
العرب من مشرق او مغرب.

وهذه هي الامثلة نقدمها على حسب ما اتفق من غير مراعاة
ترتيب ولا ملاحظة تصنيف، حيث ان نتيجة البحث تستخلص منها
مجتمعة من غير تفريق:

الفنان

اطلقه العرب الاولون على الحمار الوحشى لتفتنه فى العدو ولكن هذا الإطلاق قد توحش مع حمار الوحش فلم يستعمل من عهد الاعشى ومن اليه من الشعراء المتقدمين. وجاء العرب المحدثون فاطلقوه على الشخص الموهوب بهبة فنية من شعر او تمثيل او موسيقى وسار بهذا المعنى كل مسار. وقد توقف فيه كثير من الباحثين اللغويين اولا لانه لم يرد عن العرب الا بالمعنى السابق وراينا كثيرا من الكتاب والادباء المحافظين يتجنبونه فى التعبير فنههم من يقول فنى ومنهم من يقول مفن، ومنهم من يضعه بين قوسين ولكن كثرة الاستعمال فرضته على الجميع، لاسيما وهو مخرج على القواعد العربية اصح تخريج، فقد جعله المعجم الوسيط صيغة مبالغة من الفن ويمكن ان يكون من قبيل النسبة كالحداد والبناء والطار ونحوها، ولا يخفى ان وزنه اكثر دورانا على الالسنه من فنى ومفن، فضلا عن تخصيص فنى بالحبير فى صناعة او علم، ولذلك تقبله الجمهور قبولا حسنا ولم يبخ به بديلا. وقد احسنت لجنة المعجم الوسيط اما احسان بادخاله للمعجم وعدم وضع آية علامة بازائه مما يدل على توليده او حدوثه لانه لفظ عربى اصيل.

القديس

هو ما بحث عنه فلم يوجد. والظاهر ان نصارى العرب هم الذين وضعوه، لانه عندهم بمنزلة الول عند المسلمين. وهو مأخوذ

من القدس بمعنى الظهر والنزاهة. وقد ورد هذا الوزن في اللغة اسما وصفة للدلالة على الكثرة، فالاسم مثل هجير اى دأب وعريس لموضع الاسد وبرنيق لضرب. من الكماة وفي المعربات سجيل ومريح وقسيس. والصفة مثل الصديق والسكيت والشرير وهي فيه اكثر من الاسم. وعلى كل حال فالقديس لفظة محدثة وهي لا شك مقيسة على ما ورد من هذا الوزن. وانما يبقى النظر في صحة هذا القياس. فابن دريد يقول في الجمهرة بعد سرده لكثير من مثل هذه اللفاظ كما نقل عنه السيوطي في الزهر: واعلم انه ليس لمولد ان يبنى فعلا الا ما بنته العرب وتكلمت به، ولو اجيز ذلك لقلب اكثر الكلام فلا تلتفت الى ما جاء على فعيل مما لم تسمعه الا ان يجيى فيه شعر فصيح. ولكن المجمع الموقر ما اظنه يمانع في جواز القياس على هذا الوزن وقد اثبتت لجنة المعجم الوسيط كلمة القديس في المعجم بدون علامة مطلقا.

هزيان

سيفة مبالغة من الزين مثل مفضال وممطاء ومنحار، وهو يكثر في لسان اهل المغرب بمعنى حسن وجيد. ونرى كثيرا من اخواننا المشاركة يستغربه لاول ما يسمعه وهو كما رأينا لا غرابة فيه واشتقاقه صحيح. وقد دخل الى اللغة الاسبانية بحكم المخالطة فكثيرا ما نسمعه من الاسبانيين الذين قطنوا المغرب وهم ينطقونه بنبرهم (مسيانو) والغرض من اثباته هنا هو التنبيه على عمل السليقة اذ كان هذا اللفظ من كلام العامة وما زلت اذكر احد رفقاء الطلب،

وكان يتعاطى الادب، (١) حين نظم قصيدة في مدح بعض الرؤساء وتوقف
في قافية بيت من ابياتها فقال لى ما قولك فى كلمة شبيهة بالاسبانية
وهى مزيان؟ والبيت هو هذا:

وأجعل قبولك مهرها وكفاهها
ان القبول من الرضى مزيان
فضحكت وضحك ثم عدل الى قوله
ان القبول على الرضى عنوان
ولم تكن حينئذ بمثابة من ينظر فى وجه اشتقاق الكلمة وماخذها .

الكسكس

لم تقف السليقة عند العرب الحديثين على العمل فى دائرة
القواعد والقياس على الماثور من كلام العرب الاولين، بل تخطت
الحدود وارتجلت كما كان هؤلاء يرتجلون فى الزمن القديم. ومن ذلك
هذا الوزن فى الآلة. فكما ان القدماء وضموا أسماء للآلة على غير
الاوزان المعروفة كسيف وقلم وسكين، كذلك وضع المتأخرون اسم
الكسكس للآلة التى يطبخ فيها الكسكس وليس لها عندنا اسم غيره.
انهم عرب المغرب، وهم اثنين يعتنون ما لا يعنى غيرهم بهذا
اللون من الطعام. وعنهم عرفه الناس. وبما ان طريقة طبخه خاصة،
لأنها فى الحقيقة تبخير لا طبخ، فأنها تحتاج الى هذه الآلة الخاصة
وهى «انية» تشبه المصفاة ذات ثقب فى قعرها فتوضع على طنجرة
غليانة وبدخلها الكسكس الذى يتبخر بفعل غليان الطنجرة ويكون
ذلك هو طبخه .

(١) هو المرحوم محمد بودقة.

لا شك انهم رأوا البربر يفعلون ذلك. وسموهم يسمون هذه الآلة تَسْكُسُوت فعدلوا عن هذا الاسم الذى يحمل طابع البربرية وقالوا الكسكاس الذى هو من الازان العربية المألوفة. وقد قال علماؤنا من قبل بهذا الوزن البركار تعريفا لآلة الرسم المعروفة كما وجد له نظير جديد فى الآلات الحديثة وهو التلفاز (ويخلق ما لا تعلمون).

الشراذ

لما سمي بالفرنسية cascade وهناك كلمة أخرى تدل عليه وهى الشلال، وكلتاهما من عمل السليقة المحدثه. ونظن ان الشرار وان لم تشتهر اوضح دلالة واصح مأخذا فانها من ثر الماء ثرا وثرورا غزر وكثر، اما الشلال فهى من شلت العين الدمع ارسلته. والمراد ليس المفاضلة بين الكلمتين ولكن الاشارة الى ان السليقة حينما تلح عليها الحاجة الى التعبير فانها تنطلق هنا وهناك وتنطق بالكلمة المطلوبة. ومن ثم باتى المترادف فى اللغة فان الجماعات البشرية المنتشرة فى الارض، ولو كانت من جنس واحد، لا ينتظر بعضها بعضا لسد مفارقة وكفاية حاجه.

والامثلة من هذا القبيل كثيرة ولكننا لا نحرص على الاحصاء كما قلنا سابقا وانما نقرر بقاء السليقة وعملها .

الطيارة

والطيارة مثال لما توفقت فيه السليقة اكثر من توفيق الخبرة. فان الاقلام المثقفة جرت على استعمال الطيارة ولا يكاد احد يكتب

الطيارة، وشركات الطيران والصحف فسن اعلاناتها والاحصائيات الرسمية انما تعبر بالطائرات، وذلك وان يكن صحيحا الا ان احدا لا يمتري في ان الطيارة التي تجرى على السينة الجاهير اقوى دلالة واكثر تعبيراً، فانها تدل على الكثرة والمبالغة بصيغتها في حين ان الطائرة انما تدل على مجرد الوصف. وما اشبهها بالسيارة التي لم يقل فيها احد السائرة ولو قالها لماً سارت ، فهل الفرق بين السير والطيران في الاعتياد والغرابة هو الذي جعل الادباء يقبلون في الطائرة الوصف المجرد ولا يقبلون في السيارة الا صفة المبالغة؟؟. وايا ما كان الامر فقد غلبت السليقة هنا الخبرة. ودل ذلك على وجودها وعلى قوتها الكامنة في النفوس التي لا تحتاج الا الى قليل من العناية لتتقلب حساً لغويا فعالاً.

وما احرانا ان نعامل هذه الكلمة وما كان على غرارها بما يعامل به السماع من التقديم على القياس، لا سيما وهي على ما بينا اكثر مطابقة لاعتبارات احوال الاشتقاق ومقتضياته.

الفاظ الحياة العامة

الميزانية، الاقتصاد، الجريدة، قلم التحرير، الجمعية، الادارة، المسرح، التمثيلية، المقهى، الملعب، العمارة، الثقة، الكشافة، الجواله، طابع البريد، الخريطة الجغرافية، الاستيناف، المحامي، الكلية، الجامعة، المتحف، . هذه وغيرها مما يصعد بالمشات من الفاظ الحياة العامة، كلها من عمل السليقة عند العرب المحدثين، وهي ما بين موضوع ابتداء للمعنى الذي يدل عليه باشتقاق او نسبة او غير ذلك

وما كان لفظا معلوما يدل على معنى عام فاشوب الدلالة على المعنى الجديد وحمل عليها حملا وسار على السنة العموم واستعمله الكتاب والشعراء والمؤلفون واصبح من صحيح متن اللغة الذى لا غناء عنه لاحد. وما لا شك فيه ان هذه الالفاظ قد اشترك فى وصفها اشخاص باعيانهم من صحفيين وتراجمة وعلماء وحيات لغوية مخصوصة ولكن الكثرة الكاثرة منها انما هذبه الذوق العام والاستعمال الواسع النطاق بحيث ما استقر فى وضع القبول حتى جاز امتحانها عسيرا وخلف وراءه الكثير مما لم يحصل على اجازة الجماهير له وهذا هو عمل السليقة، وهكذا كان الواضح العربى الاول يعمل ثم يتلقى الجمهور عمله بالقبول او الرفض.

مصادر شتى

وضعت مصادر عديدة منذ فجر النهضة العربية، منها ما كان على طريقة المصدر الصناعى للدلالة على نظرية او مذهب او لمجرد التقوية كالوصولية والانتهازية والفوضوية والاشتراكية والفعالية والحساسية ومنها ما كان اشتقاقا من الاسم الجامد قبل ان يفكر احد من الجمعيين فى ضرورة هذا الاشتقاق بل قبل ان يكون هناك اى مجمع عربى. فقد كثر الكلام عن (تترك) العناصر الذى كان يراد به ادماج الاقوام المتساكنين فى البلاد العثمانية ومنهم العرب فى العنصر التركى وذلك فى مطلع القرن الحالى. ثم قيل على هذا النمط تصير الادب فى مصر وسودنة الادارة فى السودان ومغربة القضاء فى المغرب. وقيل ايضا التأقلم والتطور والاستغراب والاستشراق، ومنه

المصادر الأخيرة وضعت لها كذلك افعال. وبعض هذه الاوضاع ما زال لم يخضع للبحث المجمعى ولا وضع تحت انظار حراس اللغة الحالدين، مما يؤيد رأينا فى السليقة وعملها الذى لم ينقطع قط وربما سبق عمل الخبرة، ورب للتكثير.

الفعال من الاسم الجاهل

قالوا تأقلم وتطور واستغرب واستشرق من الاقليم والطور والغرب والشرق بالمعاني المعروفة . وقالوا حج وزار وخلل وقدس بمعنى زار الخليل والقدس بعد ما حج الى مكة المكرمة وزار المدينة المنورة، وكانهم لما قاتلوا حج وزار وحذفوا المفعول للعلم به هنا لان الحج لا يكون الا لمكة والزيارة لا تكون الا للمدينة شعروا بالحاجة الى ما يؤدئى المراد من زيارة الخليل والقدس فاشتقوا الفعلين المذكورين من اسمى هذين المكانين لما فى ذلك من الاختصار وعدم اعادة فعل زار والاتيان بالخليل والقدس بعده وهذا من المقاصد البلاغية. ويقولون فى احد الامثال المغربية: اذا خلجت عسلجت يعنون ان الارض اذا صارت خلجانا من كثرة المطر انبتت العسلوج بكثرة، والمراد بالعسلوج هنا الكلاً والمثل من اقوال الفلاحين، فاستحدثوا فعلا من الخليج وءاخر من العسلوج. واغرب من ذلك انهم اخذوا فعلا من السفط وضمنوه معنى الارسال فقالوا سفطت له وسفط لى اى ارسلت له الشيء او ارسله الى، ولا شك انهم كانوا يقولونه فى الاول على الشيء المرسل فى سفط كالسلعة التى تستوجب الحفظ ثم توسعوا فيه بعد فاطلقوه على الارسال مطلقا. وانا نبهت على هذه الكلمة بمينها لغرابة توجيهاها وهى ترينا الى اى مدى تنصرف السليقة عند العرب المحدثين.

وقالوا مَعْنَى عَلَى وهو يُمَعْنَى من المعنى اذا عرض له في الكلام.
 وقالوا تلبا الطبيع وهو ملبي اذا خثر من اللبأ الذي هو اول اللبن
 ويكون خائرا وقالوا فبر الشيء اذا اقلفه او غاب عليه كأنه ادخله
 القبر وفي القراءان الكريم ثم اماته فاقبره ولكن هذه حقيقة وتلك
 مجاز . وقالوا البوجدى اخذا من مركب وهو ابوجد الذى تنسب
 اليه حروف الهجاء المستعملة فى حساب الجمل وارادوا به المبتدى
 القليل العلم كأنه لا يزال فى مرحلة التعليم الاولى . وقالوا التصبين
 من الصابون وصبين ثيابه وهو صبان واخيرا اطلقوا على محل
 التصبين مصبنة . وهذا الباب طويل جدا فلنكتف منه بهذا القدر .
 وعلى كل حال فان السليقة لم تتوقف فيه توقف الخبرة وان كانت
 هى مثلما تشترط الخبرة لم تستعمله الا بمقدار .

الابدال والاتباع

كما ابدلت العرب قديما بعض الحروف من بعض فان العرب
 المحدثين فعلوا ذلك ايضا بسليقتهم فقالوا فلفة فى فلتة وغلبت على
 لسان عرب المغرب بمعنى الخطأ الشنيع وبعضهم يظن انها مأخوذة
 عن الاسبانية وليس كذلك فان ابدال الطاء من التاء معروف فى
 اللغة العربية حتى ان العرب تقول فى المعنى الذى نحن بصدده
 غلط وغلبت . وقالوا وذن فى اذن والهمزة اذا كانت فى الصدر
 وهى مكسورة او مضمومة تبدل واوا . وقالوا الكحط فى الفحط
 بل انهم لا ينطقونه الا بالكاف وهو وارد . والاتباع من سنن العرب
 فى كلامها يجعلونه تاكيدا واتباعا ، ومنه عند العرب المحدثين

قولهم جاء قبل الحين والصالحين زاجوا بين الكلمتين ولاحظوا في الثانية من غير شك ان الصالحين من اهل الزمن السابق فمن يجيء قبلهم يكون مجيئه قبل حينه. ومنه قولهم الجوع والنوع والبكا بلا دموع الكلمتان اللتان وقع فيهما الاتباع هما من قول العرب جانح نائح. ومنه قولهم السخط والنخط، النخط المخاط الذي يسيل من الانف وهو ما يتسخط. ومنه قولهم الوسخ والمسح والمناسبة المعنوية فيهما ظاهرة، اما في اللفظ فان الروى واحد واذا سكن السين من الوسخ كما ينطقون به يكون الوزن ايضا واحدا. ومنه قولهم في الفعل خلط وجلط والتجليط بهذا المعنى غير معروف ولكنه شاع الآن واستعملت من مادته الجلطة الدموية فلعل له اصلا بقى محفوظا في الالسنه ولم تثبت المعاجم، والامر هنا على كل حال اتباع فلا يشترط فيه ان يدل على تمام معنى الكلمة الاولى.

امثلة اخرى

ومن بقايا السليقة قولهم فنى تصغير السوق والدار والقدر والاذن والعين والشمس وغيرها سويقة وقويرة وقديرة ووذينة وعوينة وشميسة على القاعدة المقررة من الحاق التاء بالثلاثي المؤنث عند التصغير، وابداهم الواو من الياء في تصغير العين لعله لكرامتهم الجمع بين ياءين متتاليتين. واذا كنا نحن ما زلنا نتردد في استعمال كلمة تقييم لحا لاصلها الواوى فانهم بعكس ذلك يتصرفون كما تملى عليهم الحاجة والحس اللغوى السليم. وامثلة هذا الباب كثيرة، وانما ذكرنا منها ما يلفت اليه النظر.

نكتة بلاغية

قد يكون فى استعمال ضمير الجماعة للمتكلم المفرد ما يشعر بالتواضع خلاف المهود من انه يكون لتعظيم النفس وذلك كما فى قول القائل مثلا: ونحن لا ترى هذا الرأى، ألا ترى ما فى قوله لـ فرد: وأنا لا أرى هذا الرأى من الدعوى التى هى سبيل التعاطف؟ وهذا ما جرت عليه اساليب العرب المحدثين فيقولون مثلا تجيء عندنا ونزورك فتكون مقبولة اكثر من تجييء عندى وأزورك كأنهم يشعرون أن المتكلم لما اعتضد بغيره برىء من الانانية وان توجيه الدعوة الى المخاطب باسم جماعة ابلغ فى الاهتمام به. وهكذا ينعكس بهذه الملاحظة ما قرر من ان المعظم نفسه هو الذى يستعمل ضمير الجماعة المتكلمين. وهى نكتة بلاغية نأخذها من تتبع الاساليب الكلامية عند العرب المحدثين ونستدل بها على اثاره من سليقة عربية مصقولة لا تزال تبدع وتجيء .

على اننا اذا امعنا النظر فى اساليب الكلام الفصيح وتنوعها سواء فى الكتابة او الخطابة نجد ان هذا المعنى ملحوظ عند البلغاء فكثيرا ما نجدهم يصرون تارة بضمير الجمع وتارة بضمير الافراد لما يقتضيه موضع التعبير فى الجملة من الاتيان بهذا الضمير او ذاك، ولكن لم يقع النص صراحة على هذا القدر، بل ترك لادراك الذوق السليم . ومن المعلوم اننا اليوم كثيرا ما نستعمل ضمير الجمع فى الخطاب تعظيما للمخاطب وهو ادب جديد دخل على لغة الحوار ولم يكن العرب يستعملونه قبل الا قليلا حتى انه لم يجىء

فى القراءان الا مرة واحدة وذلك فى قوله تعالى (حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون) ومع ملاحظة هذا الادب فان الفتنة التى نبهنا عليها لم تضعف بل بقيت مرعية فيه فيقال تجيئون عندنا ونزوركم، ولا يكون فى ذلك تماظم من المتكلم بل تعظيم للمخاطب.

هذا عمل السليقة واثرها فى لساننا العربى المبين حتى بعد ان ضعفت الملكات وسادت الصجمة. واذا كنا قد جلينا بعض مظاهر الحس اللغوى او ما بقى من السليقة عند العرب المحدثين، فى هذه الكلمة المختصرة فاننا نشعر ان الموضوع قابل للتوسع وان التوفر على استيعابه يفضى الى نتائج مهمة فيما نرمى اليه من اعادة الاعتبار الى بعض الكلمات التى كانت من وضع العامة لا سيما ما وافق القياس منها، فنفسح لها الطريق الى معاجمتنا ونضع بذلك حدا لهذه الجفوة الحاصلة بين العامة والفصحى، تحسينا للظن بهذا الشعب العربى النبيل الذى ما زال يحتفظ بكثير من خصائص اجداده الكرام، وما لفته العامة هذه الا بنت للفصحى يجب تعهدا بالتهذيب والتنقيح لتقرب من مستوى الفصاحة وتلحق بنسب امها الرؤوم . ونحن مهمنا وثقنا به واعتمدنا على عروبتة فى الاخذ بما صح من كلامه فانما نرجع اليه حيويته ونقوى مصنويته ونجمله ينطلق الى الغايات البعيدة فى اعمال البعث والتجديد فى هذا الميدان وفى جميع ميادين الحياة الاخرى. وما ذلك على همته العالية بعزيز.

ابو البقاء الرندى وكتابه «الوافى فى نظم القوافى»

طارت شهرة أبى البقاء الرندى بقصيدته النونية المؤثرة فى رثاء الاتدلس، التى اجمع النقاد على أنها خير ما قيل فى البكاء على ذلك الفردوس المفقود، على كثرة ما قيل فى البكاء عليه. والعجيب هو ان تعجب ترجمة أبى البقاء من كتب الادب وتاريخه برغم هذه الشهرة الطائرة حتى لقد وقع الخلاف فى تاريخه وعصره بل فى اسمه وكنيته ولم يوجد من يحقق ذلك الى الآن. وانما يوجد من يذكره وقصيدته وينوه بهذه الدرة البتيمة ثم يمر مر الكرام بكل ما عدا ذلك مما يلقي ضوءا كاشفا على حياة هذه الشخصية الادبية الفريدة، ولعل السبب فى ذلك هو أن صاحب نفع الطيب، المعلقة الاندلسية الكبرى، سكنت عن ترجمته، فلم يتح للباحثين الوقوف عليها بعد ذلك فى مصدر آخر فتضامنوا مع علامتنا المقرئ فى هذا السكوت المخلّ

واذا كان الكلام من فضة والسكوت من ذهب كما جاء في الحكمة، فقد تنعكس القضية في بعض الاحيان وذلك هو ما وقع في توهيم صديقنا الاستاذ البحاتة الكبير السيد محمد عبد الله عنان للعلامة المقرئ في شأن صاحبنا ابي البقاء وعصره.. والاستاذ عنان هو الوحيد من المؤرخين الذين تعرضوا لتحقيق تاريخ هذا الشاعر وخرجوا عن عهدة ذلك السكوت المزرى. وقد اصاب في تحديده عصره وتاريخ حياته وإن لم يصب فيما نسبته للمقرئ من وهم في هذا الصدد. تحدث الاستاذ عنان في كتابه القيم «نهاية الاندلس» في الكتاب الاول منه عن ظروف قيام مملكة غرناطة والاحداث المؤسفة التي لا يست سث الظروف ونتج عنها سقوط القواعد الاندلسية الكبرى، بلنسية وقرطبة واشبيلية فما دونها، وتعرض لما اثارته هذه المحنة في النفوس من لوعة وأسى ثم قال: «ونظم شاعر العصر أبو البقاء صالح بن شريف الرندي مرثيته الشهيرة التي ما زالت تعتبر حتى اليوم من اردع المراثي القومية وابلغها تأثيرا في النفس، وفيها يبكي قواعد الاندلس الذاهبة، ويستنهض همم المسلمين أهل العدو لانجاد الاندلس وغوثها، وساق نص القصيدة بعد ذلك.

وبهذا حدد تاريخ هذا الشاعر والعصر الذي كان يعيش فيه، ثم زاد ذلك وضوحا في التعليق الذي كتبه على القصيدة وقال فيه: «يبدو من سياق القصيدة، وذكر القواعد الاندلسية التي تبكيها وهي بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة واشبيلية، وهي التي سقطت كلها في يد النصارى بين سنتي 635هـ و 650هـ أن الشاعر قد عاش

في هذا العصر. ومن جهة أخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية
 مراحة أنها نظمت حينما نزل ابن الأحمر للنصارى سنة 665هـ عن
 عدد كبير من القواعد الاندلسية ، وقد كتب صاحب الذخيرة (وهو
 مؤلف مجهول) مؤلفه في عصر السلطان أبى سعيد المرنسى (710 -
 733) وأورد في كتابه قصيدة أبى البقاء باكملها، وهو دليل قاطع على
 ان ناظمها عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجرى، (1)
 وهو تحقيق نفيس جدير بالاعتبار، ولكن الاستاذ يقول معه: «وقد
 التبس الامر على المقرئ في تعيين العصر الذى قيلت فيه هذه القصيدة
 والذى عاش فيه ناظمها صالح بن شريف فوصفه بأنه خاتمة أدباء
 الاندلس (ازهار الرياض ج 1 ص 47) وذكر فى نفع الطيب ان أبياتا
 أخرى اضيفت اليها تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرها ليست
 من نظم صاحبها لانه توفى قبل سقوطها (اي غرناطة) مما يدل على
 اعتقاد المقرئ بأن أبى البقاء عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة (اواخر
 القرن التاسع الهجرى)».

ويزيد هذا الكلام تأكيدا فى الكتاب الرابع حين يعرض للمحدثين
 عن اعلام الادب فى مملكة غرناطة فيقول: «ومنهم أبو البقاء صالح بن
 شريف الرندى. وكان ادبيا شاعرا جزلا. بيد اننا لا نعرف كثيرا عن
 حياته. ولا نعرف الا انه كان من أهل رندة كما يدل على ذلك لقبه.
 وقد عاش أبو البقاء حسبما رأينا فى بداية هذا الكتاب فى النصف
 الثانى من القرن السابع الهجرى . وعاصر الفتنة التى تمخضت عن

(1) انظر كتاب نهاية الاندلس ص 36، 37، 38.

قيام ملكة غرناطة وسقوط معظم القواعد الاندلسية في يد النصارى.
وقال في المحنة مريثته الشهيرة التي آتينا على ذكرها في موضعها.
والتي خلدت الى يومنا.. وقد وهم المقرئ فاعتقد أنه عاش في اواخر
القرن التاسع الهجرى، ووصفه بأنه خاتمة ادباء الاندلس
حسبما أسلفناه .

ويظهر أن الذى حمل الاستاذ عنانا على توهيم المقرئ هو وصف
هذا الاخير لابی البقاء بخاتمة ادباء الاندلس، وليس ضربة لازب ان
يكون هذا الوصف دليلا على ما ذكره الاستاذ فانهم يصفون به فى كل
عصر المبرزين من أهل العلم والادب والفضل فيقولون خاتمة العلماء
كما قالوا فى أبى البقاء خاتمة الادباء، ويقولون آخر قضاة العدل
ولا يلزم ان يكون من قيل فيه ذلك خاتمة أو آخر باطلاق.. وإنما
يلزم هذا الوصف فى شخص واحد هو خاتم الانبياء عليه
الصلاة والسلام .

على ان المقرئ إنما تبع فى ذلك غيره، وهو مجرد ناقل فقط:
والذى وصف أبى البقاء بذلك الوصف أولا هو ابن عبد الملك المراكشى
كما نقله عنه ابن الخطيب فى الاحاطة، ويأتى نصه قريبا. فهذا دليل
على ما قلناه من أن الوصف لا يستلزم معناه باطلاق، وإنما المراد به
العصر الذى قيل فيه.

ثم إن الاستاذ يرجع الضمير فى قول المقرئ عن أبى البقاء انه
توفى قبل سقوطها الى غرناطة ليعتضد بذلك فى توهيمه أنه كان
يعتقد أن أبى البقاء عاش فى اواخر ايام ملكة غرناطة أى فى اواخر

القرن التاسع الهجرى، وهو تحمل ظاهره والصواب أن الضمير يعود على بسطة وغرناطة وغيرهما من البلاد التي سقطت بعد وفاة أبى البقاء والتي تضمنتها تلك الابيات. الزيدة على قصيدته لا على خصوص غرناطة لتكون وفاته قبل سقوطها بل قبيله حتى يكون من عاش في أواخر القرن التاسع وهذا كله لو كانت العبارة التي ساقها الاستاذ هي عبارة المقرئ، كيف وهو قد روى كلامه بالمعنى فتوهم منه ما لا يوهمه والصقته بالمقرئ، وهو منه برى .

وهالك نص كلام المقرئ في النفع (ج2 ص595) بعد انشاده لقصيدة أبى البقاء: «انتهت القصيدة الفريدة، ويوجد بأيدي بعض الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف. وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبه. ومن له ادنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الابيات ليست تقاربها في البلاغة. وغالب ظنى أن تلك الزيادة لما اخذت غرناطة وجميع بلاد الاندلس، اذ كان اهلها يستنهضون هم الملوك بالمشرق والمغرب، فكان بعضهم لما أعجبتهم قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات، وقد بينت ذلك في أزهار الرياض فليراجع .

وأظن أن هذا كلام واضح لا يوهم شيئاً ما أشار له الاستاذ فالقبليّة الضيقة في كلامه يقابلها بمعدية واسعة في كلام المقرئ ، وسبق وفاة أبى البقاء لسقوط غرناطة. فحسب، واقع موقع تأخر سقوطها وسقوط غيرها من البلاد من موته . بل ان المقرئ يجعل ابيات الزيادة انما قيلت بعد اخذ غرناطة وجميع بلاد الاندلس

تتميما لتلك المناحة والحاقا بتلك المرتبة ما افاتها ذكره لتأخر زمن
 من البلاد الاندلسية الواقعة في قبضة العدو إستنهاضا لهم الملوك
 في البلاد الاسلامية عساها تنبث لاسترجاعها. وهذا ان اوحى بشي.
 فانما يوحى بما احدى اليه الاستاذ من تحقيق تاريخ حياة الشاعر ابر
 البقاء الرندى وتعيين عصره الذى هو كما قال النصف الثانى من
 القرن السابع الهجرى الذى شهد سقوط القواعد الاندلسية الكبرى
 من اشبيلية وقرطبة وغيرها لا بسطة وغرناطة وغيرها.

هذا ويشير العلامة المقرئ فى النسخ الى انه بين تلك الزيادات
 فى ازهار الرياض. والنسخة المطبوعة التى بأيدينا من هذا الكتاب
 ليس فيها شيء من ذلك.. وحيث انه كثيرا ما يقع الكلام على هذه
 الزيادة فقد احببت ان اثبتها هنا نقلا عن قطعة مخطوطة متداخلة من
 ازهار الرياض ومن النسخ مما توجد بخزانتنا ضمن مجموع قديم ،
 وما هى ذى كما ثبتت فيه:

واين غرناطة دار الجهاد فكم

اسدى الشدى (1) وهم فى الحرب فرسان

واين حراؤها العليا وزخرفها

كانها من جنان الخلد عدنان (2)

والماء يجرى بساحات القصور بها

قد حف جدولها زهر وريحان

(1) كذا ولعلها اسد الثرى ويبقى المعنى مع ذلك غير تام .

(2) كذا .

وابن جامها المشهور كم تليمت
 فى كل وقت به آى وقرآن
 وعالم كان يهدى للجهول هدى
 مدرس وله فى العلم تبيان
 وعابد خاشع لله مبتهل
 والدمع منه على الخدين طوفان
 ووادى شلين يحكى فى تحنشه
 سيوف هند له (3) فى الجو لعان
 وابن بسطة دار الزعفران فهل
 رأى شبيها (4) لها فى الحسن انسان
 كذا المربة دار الصالحين فكم
 قطب بها علم غوث له شان
 وابن مالقة مرسى المراكب كم
 ارست بساحلها فلك وغربان
 وكم بداخلها من شاعر فطن
 وذى فنون له حنق وتبيان
 وكم بخارجها من منزه فرج
 وجنة حولها زهر وبستان
 وابن جارتها الزهرا وقتها
 وابن يا قوم ابطال وفرسان

(3) كذا .

(4) فى الاصل شبيه بالرفع .

وكم شجاع زعيم فى الوغى بطل

بدا له فى العدا فتك وامعان

كم جدلت يده من كافر ففدا

تكيه من ارضه اهل وولدان

ووادى آش غدت بالعر عامرة

ورد توحيدها شرك وطفيان(1)

قواعدك^٢ اركان البلاد

هكذا جعلت ترتيب هذه الابيات فى المخطوطة بين قوله: «واين

حصن وما تحويه من نزه»، وبين هذا البيت «قواعد الخ».

ومما ثبت فى هذه المخطوطة زيادة بيت ايضا بين قوله «تلك

المصيبة»، وقوله «يا راكبين»، وهو مما ألحق فى الطرة كالآبيات

قبله ونصه:

يا ايها الملك الحمراء رايتك

ادرك بسيفك اهل الكفر لا كانوا

وفى الختام ألحق بالقصيدة كذلك هذه الابيات الثلاثة :

حل للجهاد بها من طالب فلقد

تزخرفت جنة الماوى بها شان

والشوق للحرور والولدان تحوكتا(2).

فازت لعمري بهذا الفضل شجمان

(١) كذا .

(٢) كذا .

ثم الصلاة على المختار من مضر

ما حسب ربيع الصبا واحتز اغصان

وقد اوردنا هذه الابيات على علائها، ولا اكره إلينا من رواية

شعر مكسور وأدب لا هو منظوم ولا منشور، للعبقريين لا أقول للفائدة

- التاريخية، فانه ما انحطت ادبيات قوم الا وانحط قدرهم، وما

ضغفت معنوياتهم الا وضغفت مقاومتهم، وإذا فلا غرابة أن يكون هذا

شعر القوم بعد عجزهم عن الاحتفاظ بتلك الجزيرة الفيحاء...

وبعد فقد ترجم لابي البقاء لسان الدين ابن الخطيب في كتابه

الاحاطة ترجمة واسعة، وثبت من ادبه جملة وافرة ما بين شعر ونثر.

واليك ما قاله في التعريف به نقلا عن مخطوط الاسكوريال من كتاب

الاحاطة الذي يحمل رقم (I673) ص 207:

«صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن ابي القاسم بن علي

بن شريف النفري، من اهل رندة يكنى ابا الطيب. (حاله) قال ابن الزبير

شاعر مجيد في المدح والفضل وغير ذلك، وعنده مشاركة في الحساب

والفرائض؛ ونظم في ذلك. وله تواليف ادبية وقصائد زهدية، وجزء

على حديث جبريل عليه السلام، وغير ذلك مما روى عنه. وكان في

الجملة معدودا في اهل الخير وذوى الفضل والدين، تكرر لقائي اياه.

وقد اقام بمالقة اشهرًا، ايام إقراني، فكان لا يفارق مجالس اقرائي

وانشدني كثيرا من شعره. وقال ابن عبد الملك: كان خاتمة الادباء

بالإندلس. بارع التصرف في منظوم الكلام ومنشوره، فقيها حافظا.

مرضيا متفنا في معارف شتى، نبيل المقاصد متواضعا مقتصدا في

اقواله. وله مقامات بديعة فى اغراض شتى. وكلامه نظما ونثرا مدرن.
 (مشيخته) روى عن آباء الحسن ابيه والدباج وابن الفخار الشريفى
 وابن قطرال وابى الحسين ابن زرقون وابى القاسم بن الجند. (تواليف)
 الف جزءا على حديث جبريل، وتصنيفا فى الفرائض واعمالها، وآخر
 فى صنعة الشعر سماه الكافى (I) فى علم القوافى. وله كتاب كبير
 سماه روض الانس ونزهة النفس. (دخوله غرناطة) وكان كثير
 الوفادة على غرناطة والتردد اليها يسترفد ملوكها وينشد امرأها،
 والقصيدة التى اولها: «اواصلتى يوما وهاجرتى ألفاء اخبرنى شيخنا
 ابو عبد الله الموشى أنه نظمها باقتراح السلطان رحمه الله، وقد اوعز
 اليه ألا يخرج عن بعض بسانين الملك حتى يكملها فى معارضة محمد
 بن هانىء الالبيرى (شعره) وهو كثير سهل المأخذ عذب اللفظ رائق
 المعنى، غير مؤثر للجزالة».

هذه هى ترجمته عند ابن الخطيب. وهى تشهد اولاً لما حققه
 الاستاذ عنان من انه عاش فى النصف الثانى من القرن السابع. وتفيد
 ثانياً ان وصفه بخاتمة الادباء فى الاندلس هو من قول المؤرخ ابن عبد

(I) ثبت بالطرة فى هذا الموضع من الاحاطة بنفس الخط
 المكتوبة به ما يلى : « عندى أنه الوافى وعلى ملكى منه نسخة عليها
 خط المؤلف المترجم به » ، وبما ان مخطوط الاسكوريال انما هو مختصر
 الاحاطة، وقد اثبتنا فى غير هذا الموضع ان كاتبه هو ابو جعفر البقنى
 احد مختصرى الاحاطة، فيكون كاتب هذه الطرة هو البقنى وبالتالي
 صاحب المختصر المنقول منه.

الملك المراكشي فالتقى في ذلك تابع وناقل فقط، وقد نقله قبله ابن الخطيب ولم يفهم واحد منهما ان ذلك على الاطلاق وان الادب في الاندلس انتهى بانهاء حياة ابي البقاء. ونلاحظ ان اسمه في الاحاطة صالح بن يزيد لا ابن شريف وان شريفا اسم جده الخامس... وذكره في موضع آخر من ترجمته فسماء صالح بن ابي خالد يزيد بن صالح بن شريف بحذف اسماء ثلاثة من اجداده، وذلك يدل على انه كان مشتهرا باسم جده شريف كما هو عندنا الآن .. وقد ذكر هو في الباب الواحد والعشرين من الجزء الثاني من كتابه الوافي، وهو الذي ذكر فيه النوع المسمى بالاطراد ممن محاسن الشعر وبديعه فقال: «وكتب الى صاحبنا الوزير الاديب ابو العباس بلال الحريري رحمه الله :

الم اذا شئت تحظي بصالح وشريف

بصالح بن يزيد بن صالح بن شريف»

فنظم هذا الوزير اسماءه كما ذكرها ابن الخطيب في الاخير ثم نلاحظ قول الاحاطة «ويكنى ابا الطيب» مع ان المعروف عندنا انه يكنى بابي البقاء. والواقع انه في طالعة كتابه الوافي كنى بابي الطيب بن ابي الحسن .. وكذلك ثبتت كنيته ايضا في ازهار الرياض اما في النفع فكنى بابي البقاء كما هو الشائع، وكذلك كنى في القطعة المخطوطة التي نقلنا عنها الابيات المزیدة على قصيدته. وكذلك كناه الاستاذ بالنسب في كتابه تاريخ الادب العربي في اسبانيا (1)

(1) ص 97 وقد نسوه بقصيدته النونية وترجم منها بعض الابيات بالاسبانية ولكنه لم يذكر ترجمة لصاحبنا كانه لم يقف على ترجمته بالاحاطة .

ومؤرخ مدينة رندة السنيور ركاينة(2).. فيظهر انه كان له كنيستان ولكن الثانية منهما أشهر وأسير. وكذا الامر فى والده فان ابن الخطيب لما ذكره فى جملة شيوخ ولده كناه بأبى الحسن كما كنى فى طائفة كتاب الوافى، ولما ذكره نانيا فى تسمية ولده القصيرة كناه بأبى خالد .

ولعل أهم ما يلاحظ فى الترجمة التى له فى الاحاطة ان لسان الدين لم يذكر فيها رواء له من الشعر، وهو شئ كثير فى الجملة، قصيدته النونية الشهيرة، فاما انه لم يقف عليها واما انها لم تشر انتباهه.. ولا يقال انها لم تشتهر الا مؤخرا، فقد رأينا أن صاحب الذخيرة السنية قد رواها فى كتابه، وهو ممن مات قبل ابن الخطيب بنحو من نصف قرن. على أن الشعر الذى رواء له ابن الخطيب يتساوى والنونية نفسا وصنعة، وبعضه ما ضمنه هو كتابه الوافى. ومنه فى وصف الليل من قصيدة سلطانية:

وليل بته كالدهر طولا	تفكر لى وعرفه التمام
كان سماء روض تحل	بزهر الزهر والشوق الكمام
كان البدر تحت القيم وجه	عليه من ملاحته لثام
كان الكوكب الدرى كعاس	وقد رق الزجاجة والمدام
كان سطور أفلاك الدرارى	ندى والنجوم به ندام
كان منار قطب بنات نمش	قيسى والرجوم لها سهام
كان يناته الكبرى جواز	جوار، والسها فيها غلام

(2) ص 103 حيث ذكره عرضا مع بعض ادباء هذه المدينة

كان بناته الصغرى جمان على لباتها منها نظام
 كواكب بت أراعاهن حتى كانى عاشق ومى الزمام
 الى أن مزقت كف الثريا جيوب الافق وانجاب والظلام
 فما خلت انصداع الفجر الا قرابا ينتضى منه حسام
 وما شبعت وجه الشمس الا بوجهك ايها الملك الهمام

ومنه وارتكب فيه النوع المسمى بالتوشيع من البديع :

كيف التخلص ممن عينيك لى ومتى ؟

وفيهما القاتلان الفنج والخور

وكيف يسلو فؤادى عن صبايته ؟

ولو نهى الناهيان الشيب والكبر

انت المنى والمنايا فيك قد جمعت

وعندك العالتان النفع والضرر

ولى من الشوق ما إن (I) لا دواء له

وعندك الشافيان القرب والنظر

وفى وصالك ما أبقى به رمقى

لو ساعد السعدان الدهر والقدر

وكان طيف خيال متمك يقنمنى

لو يذهب المانعان السمع والسمع

وهى قصيدة طويلة، قال ابن الخطيب: ومن قصيدة مغربة فى

الاحسان له :

(I) سقطت لفظة إن من الاصل وهى لازمة لاقامة الوزن .

وليلة نهبت اجفانها
والليل كالمهزوم يوم الوغى (2)
كانما استخفى السهمى خيفة
لذلك ما شابت نواصي الدجى
وفى الثريا قمر سافصر
كان عنقودا بها مائل
كانها تسبك ديناره
كانها الظلمة مظلومة
كانما الصبح لمشتاقه
كانما الشمس وقد اشرفت
ومنه فى وصف القلم :

واصفر كالصّب فى رونق
بديع الصفات حديد الشبابة
يمبر عما وراء الضمير
ومنه فى السيف والقلم

تفاخر السيف فيما قيل والقلم
كلاهما شرف لله درهما
ومنه فى الخبرى

وازرق كمثل السما
شح من الصبح بانفاسه
وباح لليل باسمراده

والفجر قد فجر نهر النهار
والشهب مثل الشهب عند الفراق
وطولب النجم بشار فثار
وطارح النسر اخاه فطار
عن غرة غير منها السفار
اذ صار كالعرجون عند السرار
وكفها تدير منه سوار
تحكم الفجر عليها فجار
اقبال دنيا بعد ذل افتقار
وجه ابي عبد الاله استنار

تظن به الحب ما نحل
يطول الرماح وان لم يطل
ويفعل فعل القلب والذبل

والفضل بينهما لا شك منقسم
وحبذا الخطتان الحكيم والحكم

فيه لمن ينظر شمس عجيب
كانما الصبح عليه رقيب
لما رأى الليل نهار الاديب

(2) بالاصل: فى يوم الوغى، ولا يخفى ان فى هنا زائفة .

قال ابن الخطيب وقال من جملة قصائده المطولات التي تفنن
فيها رحمه الله :

وغاية يفنى عن العود صوتها
وساقية تسقى وساقية تجري
بعيث يجر النهر ذيل مجرة
يرف على حافاتهما الزهر كالزهر
وقد هزت الأرواح خضر كتائب
بالوية بيض على قضب سمر
رمى قزح نبلا إليها فجردت
سيوف سواقيها على دارع النهر
وهبت صبا نجد فجرت غلائلا
تجفف دمع الطل عن وجنة الزهر
كان بصفح الروض وشى صحيفة
وكالآفات القضب والطرس كالنور (x)
كان به للاقحوان خواتما
مفضضة فيها فصوص من التبر
كان به للرجس القضب أعينا
ترفرف في اجفانها أدمع القطر
كان شذا الخيري زورة عاشق
يرى أن جنح الليل أكم للمر

(x) بالاصل كالنبر ونظن أن ما أثبتناه هو الصواب.

وبعد قطع أخرى فى معان مختلفة، وكلها مثل هذه التى رويتنا
عدوبة الفاظ وسهولة معان، وصنعة وبديعاً، أتى ابن الخطيب بنموذج
من نثره نقلاً عن كتابه روضة الانس وهو رسالة أجاب بها بلديه
أبا بكر البرذعى عن مكاتبة أنفذها اليه فى وصف جارية رآها
بسوق الرقيق. ثم ختم ترجمته ببيتين من شعره، مما يكتب على
القبر، يطلب فيها الدعاء ممن يمر به.

وقد علم ما تقدم فى ترجمته أن من جملة تأليفه كتاباً فى
صناعة الشعر اسمه الوافى فى نظم القوافى .. وقد وقفت على هذا
الكتاب ضمن مجموع من كتب الخزانة العامة بتطوان يحمل رقم (491)
ويقع فى (83) ورقة من الحجم المتوسط ، من مسطرة (26) سطراً ،
وخطه مغربى واضح، صحيح فى الجملة، ولم يسم ناسخه نفسه ولا
ذكر تاريخ النسخ فى آخره. وجاء فى طالعته بعد البسملة والصلاة
على النبى (ص) :

« قال الشيخ الجليل الفقيه القاضى أبو الطيب بن الشيخ
الأجل الفقيه المكرم المرحوم أبى الحسن الشريف الرندى رحمه
الله تعالى بمنه ونفعنا به ».

فإن تصدق هذه التحلية يكن أبو البقاء قد تولى القضاء ، وهو
ما لم يذكره ابن الخطيب فى ترجمته .. أما قوله الشريف، فليس
بصواب، والصواب ابن شريف. وقد علمت فيما مضى من ترجمته
أنه نفزى، ونفزة قبيلة من البربر قد تنتسب فى حمير ولكنها لا
تدعى الشرف بمعناه الخاص. فلا شك أن هذا الوصف معروف عما
ذكرنا من اسم جده شريف.

وهناك قوله فيه بعد الخطبة: «وبعد فان الأدب جليس ممتع ،
وانيس مفتح. وخل لا يخل، وألف لا يصل وإلى هذا فان
الشعر ديوان العرب وايوان الادب وزهرة الكلم وروضة الحكم ، وهو
لا محالة محبوب بالطبع، شهى للسمع، فطرة الله التي فطر النفوس
الفاضلة عليها، وهدى العقول الكاملة اليها... وقد اوردت في كتابي
هذا جملة كافية في صناعة الشعر لمن أحب أن يأخذ بأزراره، ويطلع
على أسرارها، ويتفنن في بديعها، ويتبين سقطه من رفيعه. هذا وان
كان من سلف قد سبق في هذا المضمار، وكاد لا يبقى منه الا
كتقدير الاضمار، فأنت ترى كيف أتى السابق بما أدرك، ثم أتى اللاحق
بنقض واستدراك، وفي كل شجرة نار، واستجد المرخ والغفار
وسميت كتابي هذا بالوافي، في نظم القوافي. وقسمته اربعة اجزاء،
تضمن ما فيه الاجزاء بحول الله تعالى .»

فاسمه اذا الوافي لا الكافي كما ذكر في الاحاطة، وتقدم ما
لاحظ به ناسخها على ذلك في الطرة

وإليك محتويات هذه الاجزاء الاربعة على حسب التقسيم الذي
قسمها اليه المؤلف. فالجزء الاول فيه اربعة ابواب، الباب الاول في
فضل الشعر ومن تكلم به وأثابه عليه. وقد ذكر فيه مدح حسان
وكعب بن زهير للنبي (ص) والفرزدق لعلى زين العابدين ووفود
الشعراء على عمر بن عبد العزيز، ثم من تكلم بالشعر من الخلفاء
الراشدين وائمة العلماء وخلفاء بني العباس وأمراء بني حمدان
وملوك الاندلس وافريقية .

الباب الثانى فى الشعراء وطبقاتهم. وقد جعلهم ثلاثة اصناف،
ايضا محدث ومولد ثم بعد ذلك كل عصر ينسب اليه اهله .

الباب الثالث فى عمل الشعر وآدابه. وذكر فيه ما يستعان به
على قول الشعر والاوقات المناسبة لعمله، وأخباراً طريقة مما يدخل
فى باب البديهة والاجازة والمطالعة ومن أطرفها خبر الهيثم الاشبيل:
«وكان فى عصرنا أحد الاعاجيب فى هذا الشأن» يعنى البديهة.

الباب الرابع فى أغراض الشعر وآدابه، كذا ولعلها أبوابه،
وحصرها فى ثمانية أنواع، النسيب والمدح والتهنئة والرثاء والاعتذار
والعتاب والذم، وأورد فى كل نوع منها ما يناسبه من تعريف أو
تقسيم ونماذج من أقوال الشعراء المتقدمين عنه والمعاصرين له، ومن
شعره هو بالخصوص. وهاك ما قاله فى تعريف النسيب على سبيل
المثال: «النسيب، للروح نسيب، وهو ريحانة الانس، وسلوانة
النفس ، لانه يستفز ويروق ، ويهز ويشوق ، ولذلك جعلوه صدرا
فى المدائح، وسببا للمناجح كما قال أبو الطيب: إذا كان شعر
فالنسيب المقدم». وبلغ ما أنشده لنفسه فى هذا الباب (32) ما بين
قطعة وقصيدة، مع رسالة تعزية وبعضه مما ورد فى الاحاطة، وفيه
كذلك أشعار طريقة لمعاصريه .

والجزء الثانى، وهو فى محاسن الشعر وبديعه، فيه اربعون
باباً: الباب الاول فى الابتداء، الباب الثانى فى الانتهاء، الباب الثالث
فى الاستطراد، الباب الرابع فى المطابقة، الباب الخامس فى المقابلة،

الباب السادس في المناسبة، الباب السابع في التشبيه ، الباب الثامن في الاستعارة، الباب التاسع في التخييل ، الباب العاشر في التفرع، الباب الحادى عشر في الترجيح، الباب الثانى عشر في التمثيل، الثالث عشر في التمثيل ، ويريد به هنا ارسال المثل ، وفيما قبله نوعا من التشبيه، الباب الخامس عشر في المضارعة ، الباب السادس عشر في الترويد ، الباب السابع عشر في التصدير، الباب الثامن عشر في الاتباع ، الباب التاسع عشر في التبديل ، الباب العشرون في التضمين، الباب الحادى والعشرون في الاطراد ، الباب الثانى والعشرون فى التفسير، الباب الثالث والعشرون في المبالغة ، الباب الرابع والعشرون في التتميم، الباب الخامس والعشرون في التسهيم ، الباب السادس والعشرون فى التجرز ، الباب السابع والعشرون فى الالتفات ، الباب الثامن والعشرون فى التحريف، الباب التاسع والعشرون فى الاستثناء والاستمدراك ، الباب الموفى ثلاثين فى القلب، الباب الحادى والثلاثون فى التصحيف، الباب الثانى والثلاثون فى الترميح ، الباب الثالث والثلاثون فى التسجيع، الباب الرابع والثلاثون فى التسميط ، الباب الخامس والثلاثون فى لزوم ما لا يلزم، الباب السادس والثلاثون فى التفصيل، الباب السابع والثلاثون فى التختيم ، الباب الثامن والثلاثون فى الاحالة ، الباب الموفى اربعين فى اللغز

ويطول بنا الكلام اذا تتبعنا ذكر محتويات هذه الابواب، وكلها من أنواع البديع المعروفة، وإن سمي بعضها بغير ما اشتهر به وقد

طرز أبواب هذا الجزء بما يبلغ (20) ما بين قطعة وببيت من شعره.
وبأشعار نادرة لمعاصريه .

والجزء الثالث فى عيوب الشعر، وهى ثلاثة: الاخلال والسرقة
والضرورة. وقد تكلم على هذه الاقسام ومثل لها من كلام الشعراء
قدماء ومحدثين بما لا مزيد عليه من الاحسان. ولم يخص الاخلال
بفصل مستقل وإنما جعله تسعة أضرب ثم تكلم عليها واحداً
فواحداً، وأما السرقة فتعد لها ثلاثة فصول الاول فى ضرورها
والقابها، والثانى فى مراتب الاخذ، والثالث فيما يشبه السرقة
وليس منها، ثم أتى بفصل فريد فيما يجوز فى الشعر لغير ضرورة،
وهذا الفصل هو آخر هذا الجزء.

والجزء الرابع فى حد الشعر والعروض والقافية. وفيه فصل
فى القاب البيت التى تختلف باختلاف أحواله . وفصل فى
انواع الشعر والقابها، ويعنى بها أوزانه قال: انواع الشعر أربعة
وعشرون خمسة عشر قديمة تكلمت بها العرب وتسعة محدثة ولدى
المحدثون. وقد تكلم على الاوزان او بالحرى البحور القديمة المعروفة،
أعاريضها ضرورها وما يعرض لها من زحاف وعلة، وختم ذلك بذكر
الاجزاء التى يتركب منها كل بحر، منظومة مع شطر من عمله يبين
فيه اسم الوزن المراد، وذلك مثل قوله فى الطويل:
ومثل طويل الشعر ما أنا قائل

فعولن مفاعلين فعولن مفاعل

إلى آخرها . وهذا النظم مشهور، وإنما ذكرناه لنتبه على

أنه من عمله . ثم عقب ذلك بذكر الاوزان المحدثة وهى الوسيط

والوسيم والمعتمد والمتند والمسرد والمطرود والحبيب والفريد والعميد .
ومضى فى ذكر اجزاء تفاعيلها وامثلتها على ما سبق له فى البحور
الشعرية القديمة. ويلاحظ أنه ذكر الحبيب مع الاوزان الحديثة، وقد
علم أن الاخفش استدركه على الخليل وذهب الى أن العرب تكلمت به
فهو اذن من البحور القديمة ويسمى لذلك المستدرك، وبعد هذا وذاك
ياتى بفصل فى القافية ثم باخر فى عيوب الاعاريض والقوافى وبه
يختم الكتاب .

ومن هذا المرض السريع لمحتويات الكتاب يعلم أنه كتاب عام
على صغر حجمه، ويؤخذ منه أن مؤلفه كان على جانب كبير من
الثقافة الادبية، خصوصا وأنه كثيراً ما يدل بنظره فى القضايا التى
يعرضها مما يتصل بالذوق والصنعة والنقد بوجه عام، والميزة التى
ينفرد بها هى ما يحتوى عليه من قطع شعرية وقصائد وابيات
للمؤلف ولبعض المعاصرين له من اهل الادب، وحكايات عنهم واخبار
ومساجلات تتصل بالموضوع الذى يكون فيه .. فهو لذلك حمى
بالنشر إحياء لذكرى مؤلفه ولهذه الفائدة الجليلة .

هذا ويوجد منه نسخة أخرى بقسم المخطوطات فى المكتبة
العامة بعاصمة الرباط تحت رقم 290 ولم نطلع عليها.

ابن الابار وكتابه الحلة السيرا

تأليف الدكتور عبد الله الطباع

ظلت المباحث المغربية والاندرلسية الى امد قريب من هذا العصر وقفا على أقلام المستشرقين الذين كانوا هم الباعثين لها من الركود الذى اعتراها بعد وقوف حركة البحث التاريخى والادبى فى العالم العربى مدى ثلاثة القرون الاخيرة. وان العجب لياخذ المرء حينما يطلع على لمجهدات الطائفة التى بذلها اولئك الاعلام فى هذا الصدد، فمن ناشر لامهات الكتب التى تعتبر المرجع الاول فى تلك المباحث نشرا دقيقا محققا مقربا بالتعليق الزافية المفيدة، والفهارس التفصيلية المتعددة، ومن مؤلف فى غير ما فرع من هذه المباحث تأليف محيطه بالموضوع، محررة تحرير الجوهر الا فيما لا يمكن التخلص منه كنزعة دينية غالبية، او وهم ناشىء عن ضعف فى الثقافة العربية والاسلامية. وما تزال أعمال الرائدین الاولین من هذه الطائفة من المستشرقین أو قل المستعربین أمثال دوزى وامارى ودى سلان وأسين وبالنسيا فضلا عن أتى بعدهم منارا يستهدى به الدارسون والطلاب فى مختلف الكليات والجامعات فى انحاء العالم كلما تعلق

الامر بناحية من نواحي البحث التاريخي او الادبي في
المغرب والاندلس .

ولما عمت اليقظة جميع انحاء العالم العربي في مطلع هذا
القرن وقامت فيه هذه النهضة العلمية المباركة كان اخواننا الشرقيون
هم اول من انتبه الى هذه المباحث وتناولوها بأقلامهم مترجمين لاعمال
المستشرقين المذكورين أو مؤلفين، وكانت طبيعة تقسيم الاعمال
وتوزيع الاختصاصات تقضى بأن يختص أبناء المغرب بتناول هذه
المباحث أو ان يسبقوا اليها على الاقل لانها امس بهم وهم احرى ان
يكونوا اكثر اتقاناً لها من غيرهم، ولكن تأخر النهضة العلمية في
المغرب والتثقيف بغير العربية الشائع في جل أبنائه لم يفسح المجال
لظهور باحثين متمكنين على الصعيد المغربي والاندلسي من أبناء
المغرب الا ما ندر كالاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب في تونس،
والمرحوم محمد بن أبى شنب في الجزائر، على أن اولئك الرواد
الشرقيين لم يكونوا يلمون بهذه المباحث الا لماماً وكان يظهن على
بعض أعمالهم ضعف محسوس حتى برز منهم في الميدان فرسان
مجلون كمحمد كمرد على والامير شكيب ارسلان واحمد زكى باشا
واحمد تيمور باشا، ثم جاءت بعدهم ثلة أخرى من الباحثين المتضلعين
كالاستاذ محمد عبد الله عنان والدكتور حسين مؤنس والدكتور
شوقي ضيف والدكتور جودة الركابي وغيرهم.

واحست مصر وهي السبابة الى كل ماثرة أن القيام بهذه
الدراسات على أرض المغرب وفي عين المكان يؤتى اكله جنياً، ويأتى

بأعظم النتائج، فهبت بفتح معهد للابحاث فسى بلاد المغرب، ولكن
الاستعمار الفرنسى كان لا يزال يقبض على مقاليد الامور فى هذه
البلاد بيد من حديد فلم يسمح بفتح المعهد. وتحولت انظار المسؤولين
المصريين الى العدو الاخرى، الى ارض الاندلس، فلم يكن الا قليل
حتى رأينا المعهد المصرى للدراسات الاسلامية يفتح أبوابه فى مدريد
عاصمة اسبانيا والبعثات العلمية المصرية تتوالى على جامعات الاسبان
فيتخرج منها المختصون البارعون فى اللغة الاسبانية وما يتعلق
باسبانيا الاسلامية من تاريخ وحضارة وأدب وفن، أمثال الدكتور
عبد العزيز الاهوانى ولطفى عبد البديع ومختار العبادى ومحمود مكي
وجمال محرز وغيرهم. ويخرج المعهد مجلة تعنى بهذه الابحاث فيكتب
فيها كبار المختصين وتصدر من أوثق المراجع فى هذا الشأن .

ومرة أخرى يتخلف المغرب وكان حقه أن يكون سابقا فسى
الميدان، ويتقاعس أبناءه الذين عرفوا اللغة الاسبانية من قبل عن
واجبهم فلا يكون لهم أى اثر ملحوظ فى هذا المجال، وينتبه قطر
شرقى آخر شقيق للامر هو لبنان فيوفد أيضا بعثة دراسية من
خيرة أبنائه المثقفين الى اسبانيا فلا يلبث أن يتوفر هو ايضا على
متخرجين مختصين فى الدراسات الاندلسية أمثال مؤلفنا الهذى
اليه يساق الكلام وهو الدكتور عبد الله أنيس الطباع .

عرفت الاستاذ الطباع أولا من نشره لكتاب فتح الاندلس لابن
القوطية، ثم لقيته بعد وقد حصل على دكتوراه الدولة من جامعة
مدريد باطروحته التى قدمها الى كلية الادب من هذه الجامعة عن ابن

الابار وكتابه الحلة السيرة، فرأيت فيه شابا يطفح بالنشاط الادبي وتنقصه الروح العلمية مع التشبع بالمفاخر العربية والاشادة بالمثل الاسلامية واطلعتنى على أطروحته المذكورة فاذا بى امام عمل علمى ناجح، وبحث جامعى كامل، وقد وضع تصميمه فكر منظم نقاد وكتب فضوله قلم مثقف سيال، واذا بى استغرق وقتى كله فى مطالعة هذه الاطروحة، وانصرف عما كنت بصدد من أعمال أخرى، مطالعة او كتابة او استجمام، واى نجاح تبغيه لكتاب اكثر من ان يصرفك عن شؤونك الخاصة حتى عن ساعة استرواحك، اذ يصير شغلك به راحة لنفسك، كما قال الرسول (ص) لمؤذنه أرحنا بها يا بلال، وكانت الصلاة قرّة عينه عليه السلام؟ وهكذا لم اضع أطروحة الدكتور الطباع من يدي حتى أتيت على ختامها، ثم جعلت أتصفح بعض فصولها للمرة الثانية مراجعا ومتمليا، وانا أود ان لا افرغ من مطالعتها لولا انى كنت مضطرا لاعادتها عاجلا الى المؤلف الذى كان على جناح سفر وهذه النسخة هى اصله الوحيد من الكتاب.

انا اعتبر ابن الابار محظوظا من بين نظرائه من علماء الاندلس الكثر الذين لم يكتب عنهم لحد الآن ولا بحث واحد يصرف بهم وباعمالهم الادبية ، فهو فى طرف عشر سنوات فقط قد قبض له باحثان متمكانان كتباً ترجمته باسهاب واخرجوا للناس عنه كتابين قيمين ما تزدان به المكتبة العربية وخاصة فى فن التراجم. وكان الله عز وجل عوضه ما لقيه فى حياته من جحد ونكران وشقاء وحرمان بهذه العناية التى لقيها من جيلنا الحاضر، فنوهت بذكره واشادت

بعمله وانصفته من خصومه وردت اليه كامل اعتباره الذى اصطلمت
على سلبه أياه العوامل السياسية والحزبات الشخصية. وقد كان
الكتاب الاول الذى صدر عنه منذ عشر سنوات تقريبا هو كتاب ابن
الابار، حياته وكتبه، لصديقنا المرحوم الدكتور عبد العزيز عبد
المجيد، وهو بحث كان قد اقترح من طرف معهد مولاى الحسن للابحاث
بتطوان لنيل جائزته السنوية فحصل عليها وطبع بعناية المعهد
المذكور. ومن غريب الاتفاق أنى كنت قدمت لهذا الكتاب بصفتى
اذ ذاك مدير معهد مولاى الحسن، وهما أنا أقدم الآن لاطروحة الدكتور
التي هي الكتاب الثانى عن ابن الابار، فأنا أعتبر نفسى محظوظا ايضا
من اجل هذا الشرف الذى خصنى به الصديقان العزيزان مؤلفا
ترجمتى ابن الابار هاتين.

واذا كان لى ان أقول كلمة عن الكتابين والميزة التي لكل
واحد منها بحكم نظرى فيها معا وتعرفى على صاحبيهما الفاضلين،
فانى سوف لا أحييد عن الواقع اذا قلت ان عمل الدكتور عبد
العزيز عبد المجيد كان مركزا على فكرة التعريف بابن الابار وكتبه جميعها
وهو الموضوع الذى اقترحه معهد مولاى الحسن، وقد جاء كتابه موفيا
بهذا الغرض بحيث اجازته لجنة المعهد بالاجماع وهي لجنة مركبة من
نخبة أهل العلم والادب بتطوان اذ ذاك، فى حين ان عمل الدكتور
عبد الله الطباع كان منبثقا من تفكيره الشخصى وهو وان اشترك
مع عمل سلفه فى الترجمة لابن الابار والتعريف بأثاره الادبية فان
أفراء الكاشفة كانت موجة الى كتاب الحلة السيرة من تأليف ابن

الابار بصفة أقوى ولذلك فهو يعتبر دراسة خاصة لهذا الكتاب الذي هو أهم كتب ابن الابار، وقد اجتاز بها صاحبها امتحان الدكتوراه فهي اذن دراسة ناجحة كما ينبغي أن يكون النجاح. ولزيادة التعريف بهذا الكتاب القيم نقدم للقاء الكريم صورة عن تصميمه ومنهجه العلمى ملفتين: النظر خاصة الى الموضوعات التى حظيت باهتمام المؤلف وعنايته فخرج فيها بأراء جديدة يصح اليها الاطمئنان .

قسم المؤلف أطروحة الى قسمين. فخصص القسم الاول للكلام عن حياة ابن الابار والقسم الثانى لدراسة كتابه الحلة السيرة، والقسم الاول يشتمل على ستة فصول، فالفصل الاول جعله مدخلا لدراسة الرجل فذكر فيه صورا عن حياة العرب فى اسبانيا بلد المتناقضات وعرف باسم المترجم ونسبه ومولده ونشأته الثقافية. والفصل الثانى تعرض فيه لحياة ابن الابار فى بلده بلنسية وفى تونس رسولا اليها من أمير بلده، ثم مقيما بها نهائيا فى خدمة ملوكها المنفصيين والفصل الثالث تكلم فيه على مذهب ابن الابار السياسى ونشيعه الذى حقق المؤلف أنه تشيع عاطفى لا عقدى ولا مذهبى برغم العبارات الموهمة التى وردت فى كتابه درر السقط، وهو تحقيق لم يسبق اليه تحقيق بالقبول، والفصل الرابع وضعه للكلام على مؤلفات ابن الابار والقيمة العلمية له. والفصل الخامس عقده لابن الإبار الكاتب وأسلوبه. والفصل السادس لابن الابار الشاعر وفيه دراسة مفصلة لقصيدته السينية (أدرك بخيلك خيل الله أندلسا). اما الثانى الذى خصصه لدراسة الحلة السيرة، وهو زبدة الكتاب فله

قدم فيه عرضاً موجزاً لجميع تراجم الحلة وتوسع في تراجم الرجال
 البارزين منهم ونقد هذه التراجم من الناحية الموضوعية لتأريخ
 الاعلام واتبع ذلك نقداً للحياة السياسية والاجتماعية في الاندلس
 مع ابداء آراء على جانب كبير من الاهمية في اسباب انهيار ذلك
 الفردوس العربى. وكان اعتماده في هذه الدراسة على ما نشره
 دوزى ومولر من كتاب الحلة، الاول في كتابيه: «ملاحظات حول بعض
 المخطوطات العربية» و «بنى عباد الاشبيليين» والثانى فى مجلة
 الدراسات العربية التى تصدر بمونيخ، فهو اذا لم يعتمد على المخطوطة
 الاصلية للحلة التى يجرى طبع الكتاب عليها الآن فى ليدن، ولكنه
 يعتقد أن هذه المنشورات الثلاثة تشكل وحدة للحلة السيرة بحيث
 يصح الاعتماد عليها فى دراسة الكتاب وهو اعتقاد صحيح لا سيما
 وقد أعطانا هذه النتيجة المفيدة التى لم يكن ليخرج بأحسن منها
 حتى ولو أجرى بحثه على أصل الكتاب، وهى التاريخ لاولئك الاعلام
 الذين ساهموا فى ازدهار الشعر العربى بافريقية والاندلس ودراسة
 البيانات العربية الثلاث فى الاندلس على عهد الامويين وملوك الطوائف
 وفى سائر المغرب العربى على عهد ملوكه الآخرين، وقدم لنا دراسة
 قيمة لقيمة الحلة الادبية وللشعر المروى فيها بالنسبة الى الشعر
 الاندلسى عامة. ومن رأيه فى هذا الشعر - وهو كما لا يخفى شعر
 ملوك وأمراء فان الحلة انما ألقت فيه - انه شعر لطبقة غنية مترفة
 كان بالنسبة اليها تسلية وترفا فهو لذلك أقل قيمة من شعر غيرهم
 من الأدباء .

وفى دراسته لقيمة الحلة التاريخية أكد أن ابن الأبار كان
أسبق من ابن خلدون إلى نقد التاريخ، وهذه قضية مهمة أقل ما
يستفاد منها أنها قد تكون عنصراً من عناصر التأثير في لفت نظر
ابن خلدون إلى النقد التاريخي .

وتطفع أطروحة الدكتور الطباع بعد ذلك بالمصادر التي اعتمدها
في بحثه وهي مصادر إسبانية وفرنسية وألمانية وإنكليزية فضلاً عن
المصادر العربية. وعليه فلا غرو أن تأتي هذه الأطروحة على الصفة
التي قدمناها وفاء بالموضوع واستيعاباً لمناحي البحث مما لا نملك
أنفسنا معه أن نهنته من صميم القلب ونتمنى له حياة سعيدة في
خدمة العلم والأدب حتى يوافينا دائماً بشمرات ناضجة من نتائج
بحثه تكون فخراً له وثناء للدراسات العربية .

البنيس وألفاظ أخرى*

في سنة ١٩٢٢ نشرت كتاب المنتخب من شعر ابن زاكور ، وهو منتخب عملته من ديوان هذا الشاعر الرقيق المحسى بالروض الأريض في بديع التبشيع ومتنى القريض والذي لا يزال مخطوطاً . وقد قدمت له بمقدمة عرفت فيها بابن زاكور وأدبه ، وبينت لماذا عملت هذا المنتخب من شعره ولم أنشر ديوانه كله . كما بينت طريقته في الاختيار والترتيب ، وعنوان القصائد وضبط الأسماء كلها بالشكل ونسرت الألفاظ الغريبة التي توقفت فيها أو قدّرت أن القارئ قد يتوقف فيها وعممت له فهرساً على المواضيع وآخر على الحروف . وذلك غابة ما أمكنتني عمله إذ ذاك في خدمة هذا الشاعر وتقديمه للناشئة المغربية والأدباء على العموم في بلادنا العربية .

واعترافاً بالحق أقول أنني لما مررت بقول الشاعر في أحد موشحاته :

بنت كرم حبيت كرمها	لاني بلقيس
وسقاها فبدت نصرتها	ارسطاطاليس
خلتها لما غشت سورتها	في حشا (البنيس)
زجل الرهبان يوم المهرجان	في رحى عبدون
أو فؤادي اذا علاه الخفقان	فهو كالجنون

وقفت طويلاً عند هذا البنيس إذ لم أعرف مدلوله ، وراجعت ما يدي من كتب اللغة فلم أجده له ذكراً ، بل راجعت كتباً أخرى حسبها مظنة لذكره

* المقالة الأصلية سقطت من النسخة المصورة؛ فاستعضت عنها بنفس المقالة المنشورة في مجلة

المجمع العلمي العربي التي كان ينشر فيها العلامة عبد الله كتون رحمه الله / الأندلسي

كعجوبة النكيت وخاصة هذا الباب الذي عنده التواجي لوصف ما يشتمل عليه
 مجلس الأنس من أداني الشراب وكسات وطامات وبواخي وخروف وراودق
 وقنافي وأباريق وغير ذلك ، كما استعرضت باب الخربات في ديوان أبي نواس ،
 ومجموع الأغاني والألحان الذي يجمع الأشعار المستعملة في نوبات الموسيقى
 الأندلسية أي أدوادها الأربعة عشر ، نشر ادمون بائيل وهو يشتمل على
 قصائد وموشحات ومقطوعات غنائية كثيرة ، فلم أعثر فيه كل ذلك على لفظه
 البئيس المطالبة مع العلي بأن ابن زاكور إنما يحذو حذو شعراء الأندلس والوشاحين
 منهم بالخصوص في موشحه هذا وغيره .

وكان هذا البحث ارضاء طلب الاطلاع فقط ، وإلا فإن معاني الشعر لم تكن
 خافية . وقد تركت اللفظة على ما هي عليه ونسبت البحث عنها فيما بعد .
 ثم وقفت في دقة بعض المخطوطات على ما يلي :

« من رحلة ابن رُشيد » : أنشدني ابن حبان ، أنشدني أبو عبد الله بن حنبل ،
 أنشدني أبو الحجاج يوسف بن حكم لنفسه ، وقد رغبته منه في شيء من المداد :
 جاءك تشكو بالقاء ، إذ لم تجد رباً ، وقد سقيتها تدريجاً
 وسأت (بنيس المداد) فقال لي من أين لي أن أملاً الصبريحاً
 ورأيت أن الود ليس بخالص إن كان ما أنقى به يمزوجاً »

وأظن أن ادم ابن حبان هنا يحرف عن أبي حبان ، وهو الخوي الأندلسي
 المشهور ، لقبه ابن رُشيد صاحب الرحلة المنقول منها هذا الإنشاد في ثغر
 الاسكندرية عند إبابه . وقد رجعت الى مخطوطة الاسكوريال الوحيدة من
 هذه الرحلة للتحقق من هذه الآيات فلم أجدها فيها أنشد أبو حبان ابن رُشيد
 من شعره أو شعر غيره في الجزء الخامس منها ، ولا في غيره من الأجزاء
 الغنية الموجودة في مكتبة الاسكوريال ، فلعلها كانت في الجزء المفقود من
 هذه الرحلة .

والمقصود من هذا كله أن لفظة البنيس وردت في هذه الآيات مضافة إلى
المداد ، فتفيد أنها وعاء يستعمل للخمر وغيرها .

ولما كنت أنذاكر قبل بضع سنوات مع الصديق المرحوم القاضي طنبجة
سابقاً السيد محمد بن رحمون ، أنشدني هجواً هذا البيت للشيع المشرقي :

وما البنيس إلا إناه خمر وبال تحقيق قد وجب انكساره

فذاقت منه هذا البيت بلهفة ، إذ حدد فيه معنى البنيس وشرحه شرحاً لغوياً
معجباً كما لو كان يعرف ما في نفسي من أمر هذه اللفظة فثنى غاني وأزال
حيرتي . على أن البيت لم يقصد لشرح المعنى اللغوي لكلمة البنيس وإنما هو هجاء
لشخص من أولاد بنيس ، وهم أسرة مغربية معروفة اشتهرت بهذا الاسم وأصلها
من مدينة فاس . فاعتنم قائله هذا الاشتراك اللفظي بين اسمه وبين البنيس بمعنى
إناه الخمر فوزى به وحكم حكماً شرعياً بوجوب كسره فبلغ قصده من الهجاء
وأفادنا رحمه الله ^(١) هذه الفائدة الجليلة .

وفي هذه الأيام بينما كنت أطالع كتاب المدارك للقاضي عياض ، نسخة خطية
خاصة ، إذ وقفت في ترجمته للقاضي أحمد بن يحيى بن مخلد على هذه الحكاية :

« وذكر أنه كان في مجلس نظره ، وقد غص بالفقهاء والمدول والظلم ،
حتى دخل عليه المتوهم المعروف بابن شمس الضحى ، وكان من ذوي البيونات
والثروة . فقال باقاضي المسلمين أريد أن تأمر وكيلا فلان ^(٢) بزرع لي بقويبي

(١) الشيخ محمد بن عبد بن مصطفى المرقى صاحب البيت المذكور من علماء المغرب
في الثلث الأول من هذا القرن ، اشتهر بكتابه الدر المكنون في ترجمة الشيخ
محمد كنون وهو مطبوع على الحجر بفاس وبكتابه اظهار الطوق في منع التوسل
بالنبي والول الصدوق ، طبع بمر . وكان يتاحى الأدب وولى القضاء بفاس
الجبيلة مدة .

(٢) كذا بالأصل ولها وكيلا فلاناً .

(بنائس) فثبت لي خوالي فأحصل على ربحي . فما بقي أحد في المجلس إلا ضحك
 سوى القاضي ، فإنه وجه واستمبر وقال : يا بني : لقد ظنك من ألقى هذا على
 لساك . ثم قال لأهل مجلسه : وأستأني على سخرتكم وضحككم منه . أنا لله
 وأنا إليه راجعون على قلة التفصيل وعزوب القول . فإن البكاء على هذا أولى
 واليق ، فما بيننا وبين زوال العافية إلا التذموم عن شكرها . اللهم اسدل
 علينا سترها ^(١) واحفظ عقولنا لمعرفتك ، وارزقنا ذرية طيبة صالحة زكية نقر
 أعيننا بها . فاستغنى من حضر .

فاستفدت منها زيادة على مفزاها الخلق الذي أشار له القاضي ابن مخلد ولا أجله
 أورد الحكاية ، أن البنيس إناء من فغار ولذلك جعله الممتوه صاحب الحكاية
 بزة للخاية . والخاية من الفغار معروفة ، كما استفدت أنهم كانوا يجمعونه على
 بنائس ولم يبق حينئذ حول هذه اللفظة أدنى شيء من الإجماع . فهي تطلق
 على إناء صغير يصنع من الفغار كالجرة والحب والخاية ، ويغلب استعماله للخر
 وإن كان قد يستعمل لغيرها من المائعات كالمداد على ما رأيت . وكانت هذه
 اللفظة من الدارج على ألسنة أهل الأندلس ولا نعرف ما إذا كان أصلها اسبانياً ،
 على أننا يجئنا عنها فيما عندنا من المعاجم الاسبانية فلم نجد لها . أما في المغرب فلم
 تجر إلا على ألسنة أهل الأدب مما يدل على اقتباسها من الأشعار الأندلسية .
 وبخلاف البنيس ، لفظ الشرجب وجمه شراب ، وقد يقولون شرجم بالميم
 كما يقولون في رجب رجم ، وفي لغة ، فهذا اللفظ مما يجري على الألسنة هنا
 في المغرب كثيراً كما كان جارياً على ألسنة أهل الأندلس وربما ورد في أشعارهم .
 وهو يعني ما يسمى الآن في هندسة المباني بالنافذة Le guichet, La fenêtre
 وفي نظري هو أدل منها على المعنى المراد فإن النافذة أعظم من الشرجب والطائفة

والكوة وحتى الباب وغيرها مما يقع منه النفوذ ، ولولا أن الاستعمال خصصها حديثاً بما ذكرنا فما فهم المراد منها ، وذكرى للطاقة هنا إنما هو باعتبار الاستعمال المغربي لها في معنى النافذة ، وربما كان استعمالاً أندلسياً أيضاً وهم يجمعونها على طيقتان وطاقات . ومعنى أن مدلول الطاق وجمعه الطيقتان في اللغة هو ما عُقِد من الأبنية باباً أو نافذة أو غيرهما فاطلم بعد ما استعملوه في النافذة خصوصاً بها ثم أنشؤا بالبناء وإن اشبهه بالطاقة بمعنى القدرة لكن السباق يُصَيِّتُه . ومع هذا يبقى لفظ الشرجب متمكناً في معناه الذي يدل على الإِثْناء والسعة وينسحب أيضاً للدلالة على ضخامة البناء وأُثْنائِه ، ولا كذلك دلالة الطاقة في العرف المغربي فأحرى الكوة . .

وجاء في فتح الطيب تعريف للشرجب بكتفه بعض الإيهام فربما ظهر غير منسجم مع ما ذكرنا من أن معناه هو النافذة . وذلك في الجزء الثاني في ترجمة أبي جعفر بن سعيد ، أثناء حكاية وقعت له مع بعض الدُجَّان وهو في نزعة بنهر اشبيلية . . ونص المفسود منها : « ولما وصل صحبة والده إلى اشبيلية افتتن بوادئها ، واعتكف على الخلعة فيها ، مصعداً ومخدراً بين بساتينه ومنازعه . فر لبلة بطريانة ، فقال نحو منزله فيه طرب سمعه فاستوقفه هناك . وهو في الزورق متكئ ، وأصحابه وأصحاب أبيه مظهرون انخطاطهم عنه في المرتبة . فأخرج رأسه أحد الأنذال المعتادين بالنادر من (شرجب) والشرجب هو الدرايزين من خشب فيه طاقات . . وطريانة مقابلة اشبيلية وبها المنازه والأبنية الحسنة . . الخ » ففسيره للشرجب بالدرايزين غير متوافق مع المعنى الذي ذكرناه له ، ولكن يعض الإيضاح بتطابق التفسير والمعنى المذكور ولا يبنى بينهما خلاف .

فإن سعيد الذي كان في نزعة على متن الرادي الكبير وبشاطته الذي يلي حبتي طريانة خاصة ، لما سمع الطرب توقف تحت المقرة الذي كان يوجد به

المطربون ، « والمآزى في المتعارف مكان مرتفع كالعلية يشرف على البحر أو على
 الخلاء ونحوهما من المناظر الطبيعية الجميلة » فأخرج أحد الأندال رأسه من
 شرجب في المآزى وجعل يتعاطى مع ابن سعيد فحش القول كما يفيد آخر الحكاية ،
 فلمهم أنه أطل عليه من شرجب بل أخرج رأسه منه ولا يكون ذلك إلا من
 نافذة . . . ولما كانت هذه النافذة ذات شباك يتتبع معه يروى الرأس حيناً بطار
 الإنسان منه ، وقال ان فيه طاقات ، والطاقة هنا بمعنى المستعمل عند المغاربة
 على حسب ما أشرنا إليه آتياً أي النافذة . فيخرج من ذلك أن الشرجب نافذة
 ركب عليها شباك فـد يكون بحيث يصح اخراج الرأس منه والنظر إلى
 الخارج بالأحرى . ففي عبارة النفع اختصار ، وهو الحذف من غير دليل أو
 اختصار وهو الحذف مع الدليل فلم من السياق .

والرافع أننا كذلك نستعمل لفظ الشرجب في النافذة ذات الشباك ، ويكون
 من حديد كما يكون من خشب . ولكن ذلك ليس بلازم إذ قد يكون
 الشرجب خالياً من الشباك بل هو الأكثر .

ومن لطيف الأدب الوارد في الشباك قول عبد المؤمن بن علي أول خليفة للموحدين
 وكان هو وزيره أبو جعفر بن عطية ماريين ببعض طرق مراکش فأطأت عليها
 جارية بدعة الجمال من شباك فقال : قدت نؤادي^(١) من الشباك إذ نظرت
 فأجاز وزيره أبو جعفر حورا تنو إلى العشاق بالفل
 ثم قال عبد المؤمن كأننا لحظها في قلب عاشقا
 وأجاز أبو جعفر سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي

وعا ورد في الشرجب من جميل الشعر قول المتصمد بن هبادة مخاطب الوزير
 ابن عمار :

ألا حيّ أوطاني بشبّ ، أبابكر وسليمان هل عهد الوصال كما أدري
وسلم على (قصر الشراييب) من فتي له أبداً شوق إلى ذلك القصر

قال الفتح في القلائد عقب هذين البيتين : « وقصر الشراييب هذا مشاهير
في البهاء والاشراق ، مباني لزوراء العراق ركضت فيه جياد باحاته ، وأومضت
بروق أمانيه في ساحاته ، وجري الدهر مطيعاً بين بكوره وروحانه ، أيام
لم تحل عنه قمامته ، ولا خلت من أزاهر الشباب كثرته الخ » .

ولفظ آخر هو الزليج بكسر اللام مع تشديد هاء وبني النصفاء والقاشاني ،
هذين اللفظين اللذين يستعملان في الشرق العربي ولا نعرفهما سبباً المغرب .
والأول ليس بعربي والثاني لعله منسوب إلى قاشان لصنعه فيها . أما لفظنا فله
أصل في المادة القوية (زج) ولعله أخذ منها . وفي القاموس : « والزليج بضمتين
الصخور المائس » والمهم أن هذه الصنعة الدقيقة قديمة في المغرب والأندلس ،
ولا تزال حية ونشيطة فيه ، ولا اسم لها عندنا إلا الزليج ، ويقال لصاحبها
الزلايجي وجمعه الزلايجية ، يستعمل منها فعل زلج الرباعي المضعف وتصاريفه ،
فهل آن الآن وأن لتأخذ هذه النكتة طريقها إلى المعجم العربي وتحل فيه محل النصفاء
والقاشاني^(١) أو تقوم إلى جانبها على الأقل اسماً لهذا النوع المغربي الممتاز من
مدلول بنبك الكتين ؟ . .

وبما ورد فيه كلمة الزليج ثراً هذه الفترة من وصف الأفراني لقصر (البديع)
الذي بناه المنصور الذهبي في مدينة مراکش بين سنتي ٩٩٦ هـ - ١٠٠٣ هـ
وذلك في كتابه نزعة الحادي ، ص ٩٤ طبع فاس ونصها : « وفيه من الرخام
الجزع والمرمر الأبيض المنقّص والأسود ، وكل رخامة طلي رأسها بالذهب

(١) النصفاء غير القاشاني ، وكلمة زليج تطبق على القاشاني المترقي وحده وهي
خليفة يدخل صاجتنا العربية .
(لجنة اللغة)

الذائب ، وبوجه بانتصار الصافي ، وفُرشت أرضه بالرخام العجيب النحت الصافي
 البشرة ، وجُمِلَ في أضعاف ذلك (الزليج) المتنوع اللونين حتى كأنه خماثل
 الزهر ، أو يرد موشى من عمل صنّعه أو 'نُتِرَ' ، وفترة أخرى من نفس
 الصفحة في وصف الكتابة والنقوش التي كانت على جدران القصر وسوره وفي
 هذه : « وفيه من الانتصار المرفومة في الأستار والآيات المنقوشة في الخشب
 (والزليج) والجلوس ما يسر الناظر ويروق المتأمل فيبهر العقول » ونقل الناصري
 في الاستقصاء نفس العبارات وأصلها للكتب القشتالي في تاريخه : مناهل الصفا .
 أما في الشعر فقد جاء أغلب الزليج في عدة قصائد وآيات ، ونختار منها
 المقطعة الآتية للأديب ادريس بن علي السناني التي قالها في وصف روض لأحد
 الأكابر بفاس وهي 'نُتِرَ لأول مرة :

روض يروق الناظرين بهيج	بيان فيه الزهر والزليج
فكلامها في بهجة وتنوع	'يحيي النفوس بحسنه وبهيج
إن جنته نبغي انتشاق أريج	وأفلاك دون الباب منه أريج
قد عربدت أشجاره بمدامه	شجر الجين 'بديرها الصريج
والطير تشدد في الفصون بنضمة	في شدوها التفرج والتفرج
فلقاه هند الصباح مسرة	والنصن غصن والخلج خلج
أبقاه ربي زاهراً في نصرة	ماجم الحرم الشريف حبيج

ونسجل هنا ورود كلمة (الصريج) في هذه القطعة والآيات الثلاثة السابقة
 التي ورد فيها ذكر البئر ، ملاحظين كثرة استعمالها في المغرب ودورانها على
 السنة الصوم ونسبة أحواض مائية شهيرة بها كصريج المنارة براكش الذي
 بناه عبد المؤمن الموحدي وكان يبرن فيه الجنود على العرم والتجديف ، وكدرسة
 الصريج بفاس وغيرهما ، في حين أننا قلنا نُتِرَ على استعمالها في الآثار الأدبية
 الشرقية ، وفي الكتابات الوصفية التي يحررها أدباء الشرق ماعدا أثر واحد

هو كتاب صهاريج التّوالز للبيد توفيق البكري فهو الوحيد الذي استعمل هذه الكلمة من الكتاب الشرقيين فيما علنا .

وما دمت قد ذكرت هذين التّفنيين أو المصطلحين المنعّملين في البناء وما إليه وهما الشرجب والزليج فيعلم لي أن أشير هنا إلى أني قرأت في كتاب المؤرّر الأول لمجامع اللّغوبة الطّلبة المنعقد في دمشق سنة ١٩٥٦ نشر الإدارة الثقافيّة التابعة للجامعة العربيّة بحثاً قيماً للدكتور مصطفى جواد في وسائل النهوض باللّغة العربيّة وتيسير قواعدها وكتابتها ، وما جاء فيه عند الكلام على مصطلحات البناء نقله عن أساس البلاغة كلمة الحُضْرَة للمصطلح المسمى بالفرنسيّة matériaux أي مواد البناء من آجر وجير وغيرهما ملاحظاً أن المجامع العربيّة لم تضع له مقابلاً ، ونقله للمصطلح المذكور عن الزمخشري في عمله ، وانما أريد أن أقول اننا هنا في المغرب نستعمل في هذا المعنى كلمة الأتقاض فتأتي في ألفاظ المؤرّقين وحسابات المُفَاوِلين وهي كلمة لا غبار عليها لأنّها نسبة لشيء بما يؤدّل إليه على طريقة المجاز المرسل^(١) كقوله تعالى «إني أراقي أعصر خمرًا» في تسمية العَصير .

وفي هذا البحث العظيم الفائدة استشهد صاحبه الدكتور جواد على استعمال اسم بمعنى تسلّم بنص لابن بدرّون في شرحه لقصيدة ابن عبدون الشهيرة قائلاً : «فهو مستعمل عند أدباء الأندلس منذ المائة السادسة من الهجرة في أقل اعتبار» وأنصف إلى هذا الشاهد شاهداً آخر يدل على أن أدباء المشرق قد عرفوا هذا المعنى لفعل اسم واستعملوه في تاريخ قريب لتاريخ ابن بدرّون وهو قول البوصري في قصيدته المعروفة بالبرّدة :

ما سامني الدهر ضجاً واستجوت به	الأ وثلثُ جواراً منه لم يُضم
ولا التمتُ غنى الدارين من يده	الا (استلّمتُ) النّدى من خير (مُستلّمتُ)

كذلك في الجزء الثاني من المجلد الرابع والثلاثين من مجلتي هذه قرأت للدكتور
حسني صبح في مقاله المذبذب بنظرة في معجم المصطلحات الطبية ما علق به على كلمة
سلاية التي وضعها المفجم المذكور لكلمة Alais الأفرنجية وفسرها بفواشة الأحياء ،
والى بعد إعلان إعجابي بختلق الدكتور صبح وتدقيقه في مطابقة الألفاظ لمانيتها
المرادة ، أذكر أن هذا المصطلح يستعمل له في المغرب لفظ السقط ويقال لبائعه
السقاط بل يمكن بيعه السقاطين ، وأظن أنهم في الأندلس كانوا يستعملونه أيضاً
لهذا المعنى . وكل من زار غرناطة فلا بد أنه مر على المكان المعروف بالسقاطين
الى يومنا هذا وهو مكان ضيق يشتمل على دكاكين صغيرة متقابلة مما يكون
عليه وضعت دكاكين الجزيرة ، وإن كان في الوقت الراهن يباع فيه بضائع
تجارية متنوعة . وكلمة (سقط) في اللغة تطلق على الولد لغير تمام كما أنها بالنسبة
تطلق على رديء المتاع وكلا الدلالاتين قريب مما نطقها عليه من حشا الحيوان
الماكول (الذي يشمل الكوارع والكبد والطحال والدماغ والقلب والرئة
فضلاً عن الكرش والمصارين خلا الأهاب . والواقع أن نطق الكلمة عند المحوم
يختلف باختلاف الجهات ، ففي فاس مثلاً يقولون السقط بسكون الفاء ،
وفي طنجة يقولون السقط بفتحها مع تسكين السين في النطقين معاً على عادة
العامة في الإبداء بالأكن خلافاً للقاعدة العربية . ومما يكتن الأثر فإن
الاستعمال القائم لكلمة لا يقع على رديء المتاع بل على حشا الحيوان ، فهل يصح
لي أن أقترح الكلمة للمصطلح المذكور لاسيما والدكتور صبح ترك المكاتب
فارغاً فلم يأت بمقترح جديد بعد قد مصطلح المفجم ؟

التفكير فريضة إسلامية

واشتات مجتمعات في اللغة والأدب

أن يظفر بكتاب قِيم هدية من مؤلفه، وأن يكون هذا المؤلف هو رائد الفكر العربي الحديث الأستاذ عباس محمود العقاد، ثم أن يكون الكتاب من آخر ما صدر له، وأن يتفَضَّل بتجليده تجليداً لطيفاً، ويتوجَّه بعبارة الإهداء التي تشعرك باهتمامه بك وحظوظك لديه، إن ذلك لمنتهى التقدير وغاية الودّ.

والحقيقة أنهما كتابان أولهما يدخل في باب الدراسات الدينية، وهو الذي يحمل اسم «التفكير فريضة إسلامية»، وثانيهما يتناول مباحث لغوية وعنوانه «أشتات مجتمعات في اللغة والأدب»، ولعلَّ الأستاذ راعى في تنويع الهدية أن تكون شاملة للموضوعين اللذين يستأثران باهتمامي ويغلب عليّ أن أنزع إليهما وهما موضوعا الدين والأدب، وذلك منه فضل آخر يدل على مزيد من اللطف والرعاية.

إنني هنا لست بصدد تقديم الأستاذ الكبير فإنه أعرق من أن يعرف، وأعتقد أنه ليس في العالم العربي اليوم مثقف لا يقدر ما قدّمه العقاد للغة العربية والأدب العربي والفكر العربي بعامة من خدمات جلى تتصل بالإحياء والتجديد والتأصيل، فضلاً عن دراساته الإسلامية الرائعة التي قوّمت من زيغ الاعتقاد عند الجيل الطالع، وهدت من خلال الاستخفاف

بالمدينة الإسلامية الذي سرى إلى كثير من الدارسين الشرقيين بالعدوى من أساذتفهم الغربيين المنطوين على حقد كمين؁ وتعضب غير قليل ضد الإسلام ودعوته السامية.

والذي يوحى بالإكبار لمجهود هذا الرائد وشخصيته الفذة أنه منذ كان وهو على هذا السنن اللاحب والصراط المستقيم؁ لم تحفظ عليه فلة في التقليد الأعمى ولا في التفكير المنحرف؁ حتى مذهبه السياسي كان دائماً مع الوطنية الصادقة وقادتها الأبرار من طبقة مصطفى كامل وسعد زغلول؁ فلما صارت الوطنية مهنة واحتراماً نأى بجانبه ولم يرض أن يكون مطيةً لمتزعم ولا لمتسلط.

وفي دائرة العمل لرفع شأن الدين الإسلامي والدفاع عن اللغة العربية التي تستهدف اليوم لحملات كثير من الجهال والعققة من أبنائها؁ أصدر الأستاذ العقاد كتابيه اللذين نحن بصدهما فلننظر فيهما نظرة عجلي إذ كان من غير الجائز أن نستوعب الكلام عليهما في مقال واحد يرمي إلى التعريف أكثر مما يرمي إلى التحليل.

فكتاب التفكير فريضة إسلامية يكفي عنوانه لمعرفة الاتجاه الذي وجهه فيه المؤلف أنه اتجاه فلسفي يُحدّد نظرة الإسلام إلى الحياة والكون وما تشاجر حولهما من آراء ومذاهب منذ أن وُجدت الفلسفة وحاول الإنسان تفسير غوامض هذا الوجود؁ وحين يكون الميدان للتفكير والنظر الفلسفي

للتفكير والنظر الفلسفى والحجاج فناهيك بأصالة العقاد وبعد غوره
 روضوحه. وكذلك تناول مؤلفنا الموضوعات الآتية: فريضة التفكير
 فى كتاب الاسلام ، الموانع والاعذار ، المنطق ، الفلسفة ، العلم ،
 الفن الجميل ، المعجزة ، أمام الاديان ، الاجتهاد فى اليمن ،
 التصوف ، المذاهب الاجتماعية ، العرف والعادات ، فضلا عن الخاتمة .
 فأشاد فى الفصل الاول بمقام العقل فى الاسلام على اختلاف وظائفه
 وخصائصه من عقل وازع وعقل مدرك وعقل حكيم وعقل رشيد ،
 واستخرج دلالات ذلك كله من القرآن ، ثم عرج فى الفصل الثانى
 على ما سماه بالموانع والاعذار وقد بناء على انه اذا كان تحكيم العقل
 امرا الهيئاً فيمتنع تعطيله مرضاة لمخلوق او خوفاً منه . وقال فى هذا
 الصدد : «والاسلام لا يقبل من المسلم ان يلغى عقله ليجرى على سنة
 آبائه واجداده ، ولا يقبل منه ان يلغى عقله خنوعاً لمن يسخره باسم
 الدين فى غير ما يرضى العقل والدين ، ولا يقبل منه ان يلغى عقله
 رهبة من بطش الاقوياء وطغيان الاشداء . ولا يكلفه فى امر من هذه
 الامور شططا لا يقدر عليه ، اذ القرآن الكريم يكرر فى غير موضع
 ان الله لا يكلف نفسا ما لا طاقة لها به ، ولا يطلب من خلقه ما
 لا يستطيعون وفرق فى فصل المنطق بين المنطق كعلم يتوصل به الى
 تحقيق الحق وتمييز الخطأ من الصواب والمنطق كاداة للجدل والمراء
 والظلبة والافحام باى صفة ، فبين ان موقف التحفظ الذى وقفه بعض
 العلماء المسلمين من المنطق انما كان موجها اليه بالمعنى الاخير وافاض
 فى ذلك بما لا كفاء له فى قوة الحجة والبرهان . كذلك فعل فى فصل

الفلسفة بعد أن حدد مبادئها قديماً وحديثاً والم بمذاهب أقطابها من يونان وغيرهم، فذكر أن الأمة الإسلامية وكانت أرحب صدراً واسمح فكراً مع الفلسفة اليونانية من بلاد العالم اليوناني الذي نشأت فيه، كما يؤخذ من مصائر الفلاسفة بين أبناء العالم اليوناني ومصائر الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين في بلاد الإسلام، ولا يتسع المجال للإشارة إلى ما في هذا الفصل من آراء صائبة وأحكام سديدة وإنما يحسن التملي بقراءته .

وفصل العلم في الكتاب ليس سرداً للأقوال المعروفة في تعجيد الإسلام للعلم وأعلانه من شأنه، ولكنه ما ينتظر من عبقرية العقاد من بيان حقيقة العلم والمراد به عند الإطلاق من طرف جهابذة العلماء الكونيين، وتطبيق تعاليم الإسلام على ذلك وإظهار مساوقته لآخر مفاهيم العلم في نصوصه وقوانينه .

ويستهل الأستاذ العقاد فصل الفن الجميل بهذه المقدمة الجميلة وكثرة الانصباب والتماثيل في المعابد والبيع ليست بالمقياس الصحيح لنصيب الفنون الجميلة من الدين الذي يدان به في المعبد أو البيعة، لأن المعابد الوثنية كانت تتسع للانصباب والتماثيل وليست النماذج الصالح للاديان في الهداية إلى معاني الجمال والخص على الفنون الجميلة، وهي في جلستها لا تخلو من العبادات البشعة والشعائر القبيحة والعقائد التي لا تجتمع والجمال في شعور واحد.. فيقرطس الهدف من أول وهلة ويوحى للأغراب الذين لا يقدرّون ما جاء به الإسلام من فكرة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وقطع السبيل

على اتباعه في التعلق أو التطلع الى ما سوى الله الواحد الاحد ؛
بانهم لا يمدون ان يكونوا من غرر بهم الشيطان فقالوا ، اجعل لنا
إلهًا كما لهم آلهة لجهلهم عظمة الاسلام وعظمة العمل الذي قام به
النبي (ص) في تعظيم الاوثان والاصنام .

ثم يسترسل الفصل في بيان متدفق لمكانة الفنون في الاسلام
كما تسترسل الفصول الباقية من الكتاب في بلاغة مشرقة واحاطة
شاملة لكل ما يتعلق بمادتها الاساسية من حيث ارتباطها
بالاسلام وتعرض دعوته لها، مما يمنعنا من تتبعه مخافة التطويل مع
عدم اغناء ذلك عن قراءة الكتاب لمعرفة قيمته والاستفادة منه
اتم استفادة .

وننصرف للنظر في الكتاب الثاني فنجد ان عنوانه واشتاتنا
مجتمعات في اللغة والادب، هو بعكس سابقه اقل تعبيراً عن محتواه؛
ذلك المحتوى الذي يكبر بكثير عما يدل عليه هذا العنوان المتواضع.
ولست اقصد الكم بل الكيف، والكيف هنا يعني المسائل المبحوثة
وطريقة بحثها، فانها وان كانت عبارة عن مقالات متفرقة كتبت
بمناسبات مختلفة، الا انها مما ينتظم في سلك واحد، وتضمنه جامعة
البحث اللغوي الذي يعنى بابرار مكانة اللغة العربية بين اللغات
العالمية الصالحة لاداء رسالة العلم والثقافة في هذا القرن
الشرين وتصحيح الاخطاء التي يقع فيها الزارون عليها والمستخفون
بها جهلا او تجاهلا. وهكذا ينسجم موضوع الكتاب خلافا لما يعطيه
اسمه من انه اشتات، وباعتبار انه هو موضوع الساعة في المباحث

اللغوية التي تتناولها الاقلام اليوم للغة العربية او عليها، وما اتى به المؤلف من مقارنات وادلى به من انظار تمد فتحا جديدا في تقييم هذه اللغة ورد اعتبارها اليها، فاننا نرى انه لو جعل كتابه هذا احدى عبقرياته واطلق عليه عبقرية اللغة العربية - لما كان مسرفا في ذلك ولما أنكره عليه احد .

ويرجع الاستاذ العقاد خطأ اتهام العربية في كفايتها الى قصور الترجمة الاولين انذين بدأوا بالنقل عن اللغات الاجنبية في فجر النهضة الحديثة، ويضرب الامثلة على ذلك. ثم الى التطفل على الكتابة الادبية من غير اهلها، فاذا اراد ناقد من هذا القبيل ان يعمل خلو الشعر العربي من الملاحم المطولة مثلا لم يحجم عن ان يجعل سبب ذلك عدم طواعية اوزان العروض العربي او التزام العرب للقافية الواحدة في اشعارها ان لم يقل بقصور الخيال العربي بل السامى اطلاقا عن صياغة هذا النوع من الشعر .

ويتتبع الكتاب والترجمة تقليدا في هذه الاخطاء وتحل العربية زورا ليس لها فيه يد .

ثم تاتي مسؤولية المستشرقين في اشاعة هذا الاتهام، والمستشرقون قوم غرباء عن اللغة العربية، درسوها في المعاجم والقواميس فحفظوا شيئا من متنها وغابوا عن بلاغتها وبيانها فلم يفهموا مجازها ولا استعارتها ولم ينشأ عندهم ذوق ادبي يمكنهم من الاطلاع على اسرارها وخصائصها فحكموا عليها حكما جائرا تبهم فيه كثير من ابناء العرب المقصرين. والقليل منهم من تنبه الى خطامه ،

كما ان القليل النادر من المستشرقين من عرف قيمة العربية ونوه بها. وكانت احكام اولئك المستشرقين على اللغة العربية والادب العربى والثقافة العربية بعامه، وهى كما راينا مستندة الى قصور بالغ فى اكتناه هذه الاشياء، اكثر اثرا فى الصاق تهمة المجز بلفة الضاد نظرا لكونهم على ما استقر فى اذهان بعض الناس انما يتكلمون عن علم فاقوالهم لا يرقى اليها الشك .

ويتحدث الاستاذ العقاد عن بعض المقارنات التى يقوم بها اناس ممن يهتمون اللغة العربية فى اشياء عرضية تفارق بها غيرها من اللغات فيقول :

« ولا سبيل الى تحقيق كفاية هذه اللغة للنهوض بأمانة العلم والثقافة من طريق هذه المقارنات التى لا تقوم واحدة منها على اساس صالح للمقارنة. انما المقارنة الصحيحة التى تسفر عن تحقيق كفاية هذه اللغة بين سائر اللغات هى المقارنة على اساس ثابت من علم الالسنه الحديثه، وهو العلم الذى يبحث فى تطور اللغة من حيث هى كيان حتى تام صالح لاداء وظائفه ومجاراة امثاله فى مترك البقاء . فاذا قيس اللسان العربى بمقاييس علم الالسنه فليس فى اللغات لغة اوفى منه بشروط اللغة فى الفاظها وقواعدها. ويحق لنا ان نعتبر انها اوفى اللغات جميعا بمقياس بسيط واضح لا خلاف عليه وهو مقياس جهاز النطق فى الانسان فان اللغة العربية تستخدم هذا الجهاز الانسانى على اتمه واحسنه ولا تهمل وظيفة واحدة من وظائفه كما يحدث ذلك فى اكثر «الابجديات» اللغوية . . فلا التباس فى حرف من حروفها بين مخرجين ولا فى مخرج من مخارجها بين

حرفين وقد تصححت فيها الحركات الصوتية الثلاث بين الفتح والضم والكسر، فمضت فيها فصاحة النطق على ابطال الامالة بين هذه الحركات واخراجها كلها مستقيمة مميزة ، كما يشاء معنى «الافصاح» وهو فى جوهره ازالة اللبس فى الاصوات والحركات . ولم يحدث لاجدية اخرى غير الاجدية العربية انها جربت زمانا طويلا فى كتابة اللغات من كل اسرة لسانية فلم تقصر فى هذه التجربة عن شاو الاجديات الاخرى، اذ كتبت بها العربية والفارسية والتركية والاردية والاسبانية وهى تنتمى الى الاصول السامية والطورانية والهندوسية والجرمانية. وقد وجد فيها الكاتبون ما ينوب عن الحروف الملتبسة ولم يوجد فى الاجديات المختلفة ما ينوب عن حروف العربية الصريحة فى مخارجها ، بما استوفته من جهاز النطق الانسانى فى كل آلة من آلاته .

وعلى هذا النمط يسيل دفاع الاستاذ العقاد عن العربية فى اصالة قواعدها ووضوح اعرابها ودلالة مفرداتها وجمالها وتميزها بخصائص فى التعريف والعدد وضمائر الجنس وغير ذلك مما لا يمكن ان يستوفى الكلام عليه فى مقال عابر، وانما نقول فيه انه لم يرد بمثله على المتهمين للغة العربية قط ، سواء من حيث ابطال مزاعمهم فى تخلف هذه اللغة عن مسايرة ركب العلم والحضارة العصرية او من حيث رفع منارها على اللغات كافة فى القديم والحديث وهذا كلام قد يستعظمه من يسمعه ولكن بينه وبين التسليم به ان يقرأ هذا الكتاب الصغير الحجم الكبير العلم المسمى باشتاب مجتمعات فى اللغة والادب .

ولعل من ابلغ السخرية التي وجهها الاستعاذ العقاد للذين
يدعون الى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية هذا الفصل المعنون
بالحروف العربية اصلح الحروف لكتابة اللغات .

ولقد قرأت في هذه الايام القريية بحثا لبعض المفكرين في
دلالة الفعل على الزمن في العربية وضيق هذه الدلالة عنها في
اللغات الاجنبية وخاصة الفرنسية، واتمنى لو قرا هذا الباحث
فصل الجملة الاسمية وفصل الظروف في اللغة العربية من كتاب
اشتات مجتمعات ليهتدى على الاقل الى طريقة مقارنة اللغة العربية
باللغات الاجنبية .

ولكن مالي وللمتقولين على كفاءة اللغة العربية وقد وهب الله
لها كفوًا بمصاولتهم جميعا امد الله فني عمره وابقاه سالما معافى
خبر العروبة والاسلام .

ابن سناء الملك

ومشكلة العقم والابتكار في الشعر

للدكتور عبد العزيز الاهواني

من الكتاب من لا يحب ان يدخل الى دنيا الادب من بابها
الواسع؛ من حيث يمر العشرات والمئات بدون ان يشعر بهم احد،
وانما يعنى نفسه ويتحامل عليها، او هو لا يعنىها ولا يتحامل
عليها، ولكن يابى ان يدخل الا من الباب الضيق الذى يصدف عنه
الكثيرون، فاذا به ممن يلحظه الناس لأول دخلة، وكلما تكرر منه
الدخول لقي الترحيب والتأهيل. وصديقنا الاستاذ الدكتور عبد
العزيز الاهواني من هذا القبيل من الكتاب. لقد تشبع بالثقافة
الواسعة والنظر الاصيل، وصار لا يرضيه الا العمل المتكامل
والموضوع الطريف الذى لم تبتذله الايمدى، ولم ينزل سومه فى
السوق لكثرة ما عرض وتقلب في الانظار، وهو لذلك لا ينتج الا
قليلًا، وان كان قليله لا يقال له قليل.

لقد سبق ان كتبنا على تأليفه القيم: (الزجل فى الاندلس) وبيننا
ما فيه من انظار صائبة ومن جديد فى الموضوع، وبين ايدينا الآن

كتابه عن ابن سناء الملك، ومشكلة العقم والابتكار في الشعر) وهو اسوة الكتاب السابق في خاصيته .. وله علاقة متينة بموضوعه . ولا نترى في ان صديقنا اصبح من اكبر المختصين في الادب الاندلسي وتاريخه، بما سبق له من انقطاع الى دراسة هذا الادب في مركزه ومحيطه، وما نقل من مكتبات الاندلس وخزائنها حتى لم يفته منها مصدر او مرجع. والعلاقة بين كتابيه المذكورين هي العلاقة بين الزجل والتوشيح التي كان له فضل السبق الى بيانها والحديث عنها في كتابه الاول، وقد انعم الزجل فيه درسا وبحثا بحكم قصره عليه، كما وفي التوشيح حقه من ذلك في كتاب ابن سناء الملك باعتبار ان هذا الشاعر كان رافع رايته في المشرق وألف فيه كتابه المعروف، دار الطراز .

على ان موضوع الكتاب في الحقيقة هو معطوف الواو في اسمه، اعني مشكلة العقم والابتكار في الشعر. وما ابن سناء الملك وشعره وموشحاته التي درسها دراسة مقارنة الا امثلة طبق عليها ما اتى به من آراء وما انتهى اليه من احكام في هذه القضية الهامة التي لا تخص ابن سناء الملك بل تتم سائر شعرا عصره فما دونه من العصور. والمؤلف يرى ان ابن سناء الملك انحرف بالشعر عن مفهومه الاصيل، من التعبير عن عاطفة الشاعر نحو الناس والاشياء وتصوير احساسه بما يدرك ويتخيل، الى هذا المجهود العقلي الذي كان يبذله في توليد المعاني من الالفاظ والاستدراك على الشعراء الذين سبقوه في اشياء تافهة لا صلة لها في الغالب بوجودان الشاعر ولا

بانفعاله ، وانما هي حركات ذهنية ونشاط فكري انتهى به الى العقم حيث كان يظن انه يبتكر ويخترع. فكان ما حرص عليه اشد الحرص من الابتكار والاختراع وانحرافا في فهم الشعر وخطا في ادراك مهمة الشاعر. بل ويكاد شعراء عصره جميعا - وقد عاش تحت ظلال الدولة الايوبية في القرن السادس - يتورطون جميعا في هذا الخطا والانحراف، وان يكونوا اقل منه درجة في ذلك ، بحيث يمكن ان يوصف العصر كله بالعقم والانحراف .

ومما يؤكد ان هذا هو موضوع الكتاب وان ابن سناء الملك، قد أخذ كنموذج للتطبيق، ان المؤلف لم يعن نفسه بدراسة عصر الشاعر وبينته الخاصة كما يفعل الكتاب الذين يترجمون لهذا الشاعر او ذاك، ويحاولون ان يقدموا منه ومن شعره صورة لعصره ولاعلام الفكر فيه .

ان المؤلف يعتقد ان ابن سناء الملك وشعراء عصره لا يمثلون مجتمعهم في شيء، وانهم كانوا يعيشون في الماضي وفي دواوين من سبقهم من الشعراء اكثر مما يعيشون في زمنهم وبين جماهير شعبهم، ولذلك فان دراسة الاحوال الاجتماعية والسياسية لعصرهم لن تفيد شيئا في فهم شعرهم. وقد انصرف عنها فعلا الى مبحث آخر ، وهو المشكلة المنقرية واثرها في توجيه الشعر الى هذه الوجهة المنحرفة، ويعنى بالمشكلة اللغوية ما يصبر عنه بالازدواج اللغوي ، فالشاعر امام طفيان العامة والمعجبة كان يبذل اقصى جهده لابراز كفاءته اللغوية وقوة تصرفه في فنون البلاغة والبديع ، فيقع وهو

يريد ان يرتفع، ويشتغل بالبغاسف التي تلهيه عن المقاصد المهمة،
وذلك ما جنى على ابن سناء الملك وعلى الشاعر العربي بعامه في
هذه العصور المتأخرة .

ولقد أحاط المؤلف بالموضوع من جميع جوانبه ودرسه دراسة
كاملة، وان كنا نعتبر انه قسا قسوة بالغة على ابن سناء الملك،
فلم يسلم له بالشاعرية الا في قصيدة واحدة ومع تحفظ كبير. كما
انكر عليه اشياء لا حق له في انكارها «فيعزل» التي تورك على
عاميتها في بيته :

صلينى وهذا الحسن باق فربما

يعزل بيت الوجه منه ويكنس

واردة في شعر الاحوص وهو قوله:

يا بيت عاتكة الذى اتمزل

واخذه عليه تعدية فعل اعىى بعل في قوله:

ليس الا السكوت والصبر كرها في امور اعيت على العقلاء

قائلا ان حقها ان تكون «عيت على العقلاء» ليس بمسلم لان

فعل اعيا في هذا المعنى كما يتعدى بنفسه يتعدى بعل .

قال عمرو بن كلثوم :

فان قناتنا يا عمرو اعيت على الاعداء قلبك ان تلبنا

والجزئيات من هذا القبيل لا تمس جوهر الموضوع وان كانت

تنال من الشاعر منالا.

وعلى كل حال فنحن نرحب بهذه الدراسات العلمية المبيقة

اولا لانها تزيع الستار عن قضايا كثيرا ما تتناول من الاطراف ولا
يتبطنها الباحثون كقضية العقم في الشعر العربي في العصور المتأخرة،
وثانيا لانها بعمومها تبرهن على ان الادب العربي وحدة، ما يصيبه
من نهضة او انتكاس يكون عاما في مشرق او مغرب، فاذا درس شئ من
ذلك في اثر علم من اعلامه كان كالدراصة في آثار جميع الاعلام،
ومن ثم خف عندنا ما عامل به المؤلف ابن سناء الملك من قسوة
لانه لا يعتبر شاعرا مصريا بقدر ما يعتبر شاعرا عربيا. واكبرنا في
الدكتور الاهواني روحه العربية الكبيرة التي جعلته لا يحابي ولا يتعصب
بل انه افرط في التجرد والتنزه عن تحكيم العاطفة الاقليمية التي يجعلها
بعضهم هي اساس العمل والحكم

وبالجملة فان البحث من اعظم الاعمال الادبية التي صدرت
في العالم العربي في الحقبة الاخيرة . وهو مما يتحقق فيه معنى
الابتكار والاختراع الذي فات شعراءنا المعنيين به، وما يضيرهم
انهم اخطاوا الطريق اذا كان خطاهم هو الذي هدى من جاء بعدهم
الى المحجة البيضاء .

قيم جديدة للادب العربي

للدكتورة بنت الشاطي.

عرفت السيدة الدكتورة بنت الشاطي بالشخص في صيف سنة 1957 وذلك بمكتب الاستاذ الكبير عادل الغضبان في دار المعارف. وكان سيادته قبل حضورها بقليل قدم لي نسخة من رسالة الغفران بتحقيق الدكتورة في طبعتها الثانية التي صدرت عن الادار في ذلك الاسبوع. وقد راج في ذهني بعد التعارف الذي تم بواسطة الصديق عادل ان اطلب منها توقيع النسخة بحكم انها المؤلفة ولكني احجمت عن ذلك لان هذا كان اول لقاء معها، وهو وان كان لقاء مشجعاً بما رأيته من حسن محضرها ولطف حديثها الا اني لم يغب عن بالي انها سيدة في عصمة رجل من رجال العلم والادب يحظى باحترام كبير .

وانا رجل مهتم بتعلق بهذا الادب ووغلت على اربابه، لا انسى ان ادبي الاول كان هو السنة النبوية وان دراستي الرسمية كانت دراسة دينية وعلى النهج الماثور، فلما اكنم ان مانع الحقيقى من ان اطلب توقيع الدكتورة. هو استحضاري لواقعة حال شبيهة بحالي،

وهي تتضمن سلوكاً مما كان لمثلها إلا أن يتقيد به، واعنى حديث النبي (ص) عن عمر فيما رواه البخارى: اطلعت فى الجنة فاذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر، فقلت لمن هذا انقصر؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب فذكرت غيرته، فوليت مدبراً فبكى عمر وقال: اعليك اغار يا رسول الله؟ ولا يفوتنى ان اقول اننى اذا لم أتجاوز الحد فى طلب التوقيع ، فقد تحدثت الى الدكتورورة حديث المعجب بادبها وعلماها وانصت اليها وهي تتحدث عن اشتغالها برسالة انظران وما بذلته من جهد فى تحقيقها وسانتها هل يعينها الاستاذ زوجها فى اعمالها الادبية فقالت ان الاستاذ هو الآخر مشغول باعماله الكثيرة لا يفرغ الى مثل هذه المعونة. وزادت تقول انها تزرع تحت اعباء ثقيلة من الاشراف على تدبير البيت وتربية الاولاد، والتدريس، فزاد اعجابى بهذه البطلة وعند الانصراف تفضلت فوصلتني الى الفندق انذى انزله فى سيارتها التى تسوقها بنفسها فودعتها وحملتها تحياتى الى الاستاذ زوجها .

والمقصود القول ان الانسان لا يترك شيئاً بنية حسنة وأدب جميل الا عوضه الله خيراً منه، فقد تكررت زيارتى للقاهرة بعد ذلك وتكرر لقائى للسيدة الدكتورورة وحدها ومع زوجها العلامة امين الحولى، وإذا بكتبها تتواتر الى، مع عبارة الاهداء والتوقيع المرغوب، ومنها كتاب قيم جديدة للادب العربى الذى يساق الكلام اليه.

وقد خصصت هذا الكتاب من بين كتبها بالحديث لانه دراسة طابها التجديد، ومحاولة ناجحة لوضع قيم حقيقية للادب العربى

لا جديدة فقط ، لان الجديد قد يبلى والحقيقة ثابتة لا تزول. فقد تنبعت
 الدكتوراة الى ان هذه الصورة الرسمية التي يقدم بها الادب العربي
 منذ عصر الجاهلية الى العصر العباسي ليست هي الصورة الحقيقية
 لهذا الادب، وان خط رديعا يحصر بين مهمة الادب ادنى وهي الادب
 للحياة وبين ما حاولت تلك الصورة الرسمية بتواطىء النقاد
 القدماء ان تجعل منه مهمة الادب الوحيدة، هي الادب للبلاط ان صبح
 هذا التعبير، فاضطعت جميع نصوص الادب العربي او على الاصح
 جميع تراثنا الشعري لهذا الاعتبار وحكمت عليه وعلى عامة شعرائنا
 بمقاييس مستوحاة من جو السياسية والحكم ومحيط ذوى النفوذ
 والسلطان ، فكل من ركع بين يدي ملك او خليفة رفعته الرسمىات
 الى الطبقة الاولى من فحول انشعراء وصار هو الشاعر الطليعى لجيله
 وآثاره هي النماذج المختارة لعصره. فالتأبقة فى الجاهلية، وجريير
 فى العصر الاموى ، ومروان بن أبى حفصة فى العصر العباسي،
 واضرابهم هم الشعراء المقدمون على سواهم من شعراء عصورهم .
 وقول الاول يخاطب النعمان

فانك كالثليل الذى هو مدركى

وان خلت ان المنتأى عنك واسع

وقول الثانى يمدح المروانية :

الستم خير من ركب المطايا

واندى العالمين بطون راح ؟

وقول الثالث يحتج للعباسيين على العلويين

انى يكون - وليس ذاك بكائن

لبنى البنات ورائة الاعمام؟

وامثال هذه الاقوال ، هي النماذج الرسمية ففى الدراسات

الادبية الى عصرنا هذا .

فهل هذه هي حصيلتنا من الادب العربى طوال قرون؟ وهل
حقا ان اولئك الشعراء المتملقين هم النخبة التى تمثل الشعر
العربى فى عنفوان مجده ؟ ألم يقل الملمس ان الشاعر كان للقبيلة
بمشابة القائد والزعيم يدافع عن احسابها ويخلد مآثرها؟ وان تكسب
النابغة والاعشى بالشعر غرض من قدرهما ونال من شرفهما ؟ ومعنى
ذلك ان للشعر رسالة فى الحياة، وانه فن قبل ان يكون حرفة، فهل
يصدق ذلك على الشعر العربى فى ادواره المختلفة؟ وهل قام شعراؤنا
الاقدمون بما يطلب منهم فى هذا الصدد ؟

ذلك هو ما تجيب عنه الدكتور فى كتابها قيم جديدة للادب
العربى وتنبته بالادلة والشواهد، فتبين كيف انحرف فهم النقاد
القديما لثرائنا الادبى ، وكيف ضلت المقاييس التى وضعوها لوزنه
وتقديره، وتجعل من المعارك التى خاضها الشعر فى الجاهلية والاسلام
لمقاومة التسلط والظلم واقامة موازين الحق والعدل ، قواعد
ومقاييس لنقده وتقييمه، فتعيد للادب العربى، اعتباره وترفع بين
الاداب الانسانية مناره . واستمع الى قولها فى ذلك: « ومستقبلنا
بلا شك معركة فكرية، بعد ان انقضى عهد الاستعمار العسكرى، ولا
مفر لنا من خوض هذه المعركة لان وجودنا الكريم لا يحويه الا صون
مقوماته المعنوية. وهنا ياخذ الادب دوره فى نضالنا الجديد، حارساً

لمنوياتنا. وكما لاذ اسلافنا باستنقاذ تراث العربية الادبي والفكرى
فى صراعهم مع الشعوبية وكما حموا به العربية دينا ودولة فى مهب
الاعصار التترى نلوذ به اليوم لحماية وجودنا فى مهب تيارات الغزو
الفكرى. ولن ينهض الادب بهذا الدور الجليل فى المعركة، ما لم نتحرر
من الرواسب التى شوهت تراثنا الادبى، وما لم ننح فى ذوقنا له
من سيطرة الاذواق التى ورثناها من مخلفات عهود الضعف
والانحطاط. بل لن تقوم للادب العربى فينا قائمة، ما لم نلغ الاسوار
التي عزلت ابناءها، واجيالا قبلهم، من اجل ما لنا من تراث فنى،
ولم نمح الظلال التى حجبت عنهم بهاء، حين فرضت عليهم نساذج
بعينها من الشعر راجت فى ظل الطغيان واشخاص بذواتهم من
الشعراء والكتاب يدينون يشهرتهم وذيوخ صيتهم لتطلقهم بركاب
الحكام ايام كانوا فى عزلة عن الشعوب... ،

اننى اهنى. السيدة الدكتور بتوفيقها فى هذه الدراسة
القيمة واتمنى لو تتسع فيها وتستمر حتى تشمل العالم العربى
بجناحيه وتصل الى ما بعد العصر العباسى من عصور حكم عليها
ظلم بالعمق والضحالة ، اذ كان النظر اليها انما يقع من هذه الزاوية
التي ازفادت ضيقا بحكم تسلط الاعاجم على بلاد العرب واستفنائهم
عن الشعر والشعراء، فاستغنى النقاد القدماء منهم والمحدثون عن
النظر فى تراثنا الفكرى الجديد لما صار لا يمت الى حياة البلاط بصلة،
وطويت صحف كثيرة كان يمكن ان يكون لها صدى ودوى فى
حياتنا الادبية لو وجدت العزائم النافذة والاقلام السيالة التى
تنخلها وتبرز للناس ما فيها من ذخائر وكنوز .

هل اسم خلدون ونحوه مكبر على الطريقة الاسبانية؟

ليست هذه الكلمة بحثا فى اصل من اصول اللغة او مفردة من مفرداتها مما يكون بحاجة الى البحث للوصول الى الحقيقة وتجلية الغموض فى المعنى المبحوث عنه. وانما هى عرض وجهة نظر فى مسألة كانت فرضا وتقديرا من احد الاجانب بشأن صيغة من صيغ الاسماء العربية التى شاعت فى وقت ما بهذه العدو الاندلسية، فاذا بها تكاد تصير حكما مسلما عند كثير من الكرام الكاتبين.

ان العلامة رينهرت دوزى الهولاندى مستشرق كبير كان اول من اقتحم ميدان البحث عن تاريخ اسبانيا الاسلامية وفتح بابه فى رجه عامة المستشرقين والمؤرخين المحدثين. ولقد كان الاسبان انفسهم يملكون بتلك الفترة من تاريخ بلادهم مرورا عاجلا ويفضون الطرف عما نشأ خلالها من حضارة زاهرة وتقدم علمى باهر، حتى ان بعض المؤلفات التاريخية كانت توجز تاريخ العرب والمسلمين فى تلك البلاد وهو يبلغ ثمانية قرون فتضمنه فى صفحات قلائل ، على حين تتوسع فى غيره مما لا اهمية له بمئات الصفحات. فلما اثار دوزى انتباه

المؤرخين الى فائدة دراسة التاريخ الاسلامى لاسبانيا فى معرفة تطور العلم والحضارة فى العصر الوسيط وطريق انتقالهما الى اوروبا، عاد الاسبان الى هذا التاريخ فانسحوا له المجال فى كتبهم واهتموا بالدراسات الاسلامية والعربية المتعلقة ببلادهم وكان من بعض نتائج ذلك الاهتمام، الاعمال المجيدة التى قام بها امثال اسين بلاسيوس وغونساليس بالينسيا وغيرهما من المستشرقين الاسبان .

على ان دوزى وان كان له الفضل فى اعادة اللثام عن هذا الجانب من تاريخنا القومى وتعريف الاجانب بما كانوا يجهلونه من ذلك، قد وقع فى اغلاط شنيعة، منها انكاره اسوة بكثير من المؤرخين الغربيين، ان يكون العرب اضافوا الى التراث الفكرى الانسانى شيا جديدا وانما حسبهم انهم حافظوا على هذا التراث ونقلوه بامانة الى الامم التى جات بعدهم ، ومنها تعامله على المرابطين الذين حلوا فى الاندلس محل ملوك الطوائف وادعاه ان قيام دولتهم كان قضاء على العلم والحضارة مما لا مجال للرد عليه هنا. ولكن جزئية صغيرة من هذه الاقوال التى ارسلها المستشرق دوزى لرسالا تتعلق بصياغة بعض الاسماء العربية ، يهنا ان نتاولها بالتحليل والنظر لنسبر غورها ونعرف مدى انطباقها على الواقع ، لا سيما وهى قد اشتهرت وانتشرت بين ابناء العرب انفسهم من غير ان يبدى احد منهم تحفظا ولا توقفا فيها.

اننا لا ننكر اقتباس العربية من غيرها من اللغات ، فاللغة كائن حي ينمو ويتوسع بالتغذية والتلقيح ، ولكننا لا نقر هذا

الاقتباس اذا لم يكن ضربة لازب، ولا تقبله اذا كان دعوى من غير دليل كالمسألة التي نحن بصددھا.

فصاحبنا دوزی يرى ان الواو والنون في مثل حفصون وزيدون وعبدون وبدرون وخلصون من اسماء الاسر العربية الاندلسية اصطلاح مقتبس من صيغة التكبير في اللغة الاسبانية، اصطلاح ابناء هذه الاسر ليدلوا به على الجد الاكبر الذي ينتسبون اليه ، فهم حين يقولون ابن حفصون ابن زويدون مثلا يعنون ابن حفص الاكبر وابن زيدون الاكبر وهكذا بقية الاسماء من هذا النمط (١). وصيغة التكبير هذه التي يشير اليها هي احدى الصيغ التي تفيد هذا المعنى في اللغة الاسبانية ، وتتركب من المقطع on للمذكر و ona للمؤنث والكلمة المراد تكبيرها، مثل hombron (امبرون) في hombre (امبرى) للرجل الضخم و manjeron (موخيرونا) في mujer (موخير) للمرأة الضخمة و zagalon (زكلون) في zagala (زكل) و zagalona (زكلنا) في zagala (زكلنا) للشباب والشابة عند قصد المبالغة - على انه ليست كل كلمة ختمت بهذا المقطع تدل على التكبير. خذ مثلا Corazon (كرسون) اى قلب و Persona (برسوننا) اى شخص فانهما خاليان من معنى التكبير والمبالغة وان اشتغلا على المقطع المذكور .

(١) انظر كتابه تاريخ مسلمى اسبانيا ج ٢ ص ١٢ طبعة ليفي بروفنسال. وانظر تعاليقه على تاريخ ابن عذارى ص ٤٨ في طبعته لهذا الكتاب. وانظر ما كتبه فؤاد البستاني بيانا لراى دوزی في الحلقة ١٣ من الروائع، ترجمة ابن خلدون .

وننظر في تطبيق هذه القاعدة على الاسماء العربية المدعى فيها ما ذكر من التكبير عى الطريقة الاسبانية، فنلاحظ لاول وهلة انها اسماء اعلام لا اجناس، والقاعدة المذكورة عند الاسبان كما رأينا إنما تأتي في اسم الجنس لا في اسم العلم، فقلما يقال مثلا Fernandon (فرناندون) في Fernando او mariona (ماريونا) في maria بل لا يقال ذلك أصلاً؛ في حين ان تلك الاسماء العربية كلها اعلام شخصية وليس واحد منها من قبيل اسم الجنس ولم يسمع بكلمة غير علم من هذا النمط عند عرب الاندلس ولا عند غيرهم .

ثم ان هذه القاعدة لها صيغتان احدهما خاصة بالاسم المذكر والثانية بالاسم المؤنث كما مر. ولم نرهم اخذوا بالصيغة الثانية اطلاقاً على تسليم اخذهم بالصيغة الاولى في اسماء المذكر، بل على العكس نراهم سموا نزهون بدون تاء، وهو اسم لشاعرة اندلسية معروفة، وسموا ريسون كذلك وهو اسم لسيدة تنتسب اليها الاسرة الريسونية الشهيرة في المغرب. وقد سموا حمدونة بالتاء ولكن في المشرق قال في القاموس: وحدونة كزيتونة بنت الرشيد. فلو كان هذا الاسم جارياً على القاعدة الاسبانية للحقته التاء في الاندلس لا في بغداد. وشيء آخر هو ان القول بان ابناء هذه الاسر هم الذين اطلقوا تلك الاسماء على اجدادهم لتمييزوا بها، زعم يعوزه الدليل، فان ابن خلدون لما عرف بنفسه في آخر تاريخه سمى نفسه هكذا: «عبد الرحمن ابن محمد بن محمد بن الحسين بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون» ثم قال: «لا أذكر من نسبي الى خلدون غير هؤلاء العشيرة» ويطلب الظن على

انهم اكثر ، وانه سقط مثلهم عددا ، لان خلدون هذا هو الداخل الى الاندلس فان كان اول الفتح فائدة لهذا العهد سبعمائة سنة ، فيكونون زهاء العشرين ثلاثة لكل مائة كما تقسم في اول الكتاب(1) فهو يجمل جده الاعلى الذى ينتسب اليه، وهو الداخل الى الاندلس، معروفا بهذا الاسم عند دخوله، ولم يقل انه اطلق عليه فيما بعد، ولا يفهم منه ذلك بحال.

وفى الجمهرة لابن حزم ان بنى خلدون ينتسبون الى وائل بن حجر. قال: «ومن اكابرهم ابو هانىء كريب وابو عثمان خالده القاسمان باشبيلية، اللذان قتلها ابراهيم بن حجاج اللخمي غيلة، وهما ابنا عثمان بن بكر يكن خالد بن ابي بكر بن خالد المعروف بخلدون ، الداخل من المشرق(2)» فهو كذلك يقول فى جدهم الاعلى : (المعروف بخلدون الداخل من المشرق) ولا يزيد على ذلك شيئا تشتم منه رائحة الدعوى المذكورة. وهذا كلام قيل قبل ابن خلدون المؤرخ بما ينيف على ثلاثة قرون .

وما قيل فى ابن خلدون يقال فى ابن زيدون وابن عبدون ونظائرهما، فان احدا لا يستطيع ان يثبت ان هؤلاء الابناء اطلقوا تلك الاسماء على اجدادهم ولا ان هذا الاطلاق كان اخيرا لتمييز الجد الاكبر الذى تنتسب اليه الاسرة .

اضف الى ذلك اننا نجد نماذج اخرى من هذا الاسم ليست علما للجد الاعلى ، او الاكبر بتعبير دوزى، حتى يتحقق فيها معنى

(1) المعبر ج 7 ص 795 طبع بيروت.

(2) الجمهرة ص 430.

التكبير المزعوم، مثل اسم ابن حفصون اعظم نوار الاندلس في العهد الاموى الاول، فانه كان اسم ابيه المباشر، اذ هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر الذى كان اول من اسلم من أسرته، فهو جملة الاعلى اذن، ولو اطردت القاعدة لقليل فيه ابن جعفرون، لكنهم لم يقولوها وكانهم اقتصروا على التسمية بصيغة جمع الثلاثي لختها . وهذا ايضا مما يخالف به الاستعمال العربى لهذه الصيغة قاعدة التكبير الاسبانية .

وهناك ايضا سوار بن حمدون القيسى قريح ابن حفصون فى الثورة والتمرد ابوه المباشر . لا جده هو حمدون وان كان يعرف به . فهذا مما ينفى ان الصيغة المذكورة وضعت اصلا للدلالة على الجد الاكبر . كما ان التسمية بها لشخص ما لا باعتباره ابا ولا جدا كما فى حمدون وقد سمي به كثيرون وكما فى نزهون وهو اسم امرأة، هى ما يدفع ذلك

والى هذا فان هذه الصيغة ان كانت قد استعملت بكثرة فى المغرب والاندلس، فانها قد استعملت بالمثل فى بلاد المشرق، وانا لنعد من الاسماء المشرقية التى جاءت، على وزانها، ومنها ما اتخذ قبل فتح الاندلس واتصال العرب فيها بالاسبان، قدر ما نعد من الاسماء المغربية والاندلسية . والعجب كيف لم يلفت ذلك نظر المستشرق الهولاندى فيتريث فى حكمه على هذه الصيغة بما حكم به من الاقتباس عن الاسبانية، بل العجب كل العجب كيف جاز ذلك الحكم على بعض الكتاب العرب وقبلوه حتى اصبح عندهم من الحقائق الثابتة التى لا جدال فيها ؟ !

وما نحن اولا، نذكر طائفة من اشهر هذه الاسماء التي عرفت
في المشرق ثم تعارضها بطائفة اخرى مما اشتهر في المغرب والاندلس
لنرى ان لا اختصاص بها لمغرب المغرب والاندلس دون اخوانهم
عرب المشرق

بينون بن ميناف بن شرحبيل بن ينكف بن عبدة شمس ، وبه
سمى موضع في اليمن (1)، ميسون بنت الحارث الفسائي ذكرها
الحارث بن حلزة في معلقته، مودون اسم فرس لشييان بن شهاب ورد
ذكره في شعر لذي الرثمة (2) وميسون بنت بحدل زوج معاوية
وام ولده يزيد التي قالت فيه ابياتها المشهورة (3) ، حمدون

(1) معجم ما استمع 289 ورجع في معجم البلدان ان وزنه
فيقول من ابن بالمكان وابن اذا اقام به وما تجدر الاشارة اليه انه
نقل عن ابن جنى قوله: «وفي المعروف من اسماء الناس وان لم يكن
في كلام العرب القدماء سحنون وعبدون ودير فيتون» غير ان فيتون
يحتمل ان يكون فيعولا فلا يكون من هذا الباب كما قلنا في بينون
وهو الاظهر، فاما انه لم يكن في كلام العرب القدماء فقد علمت ما
فيه وهو منقوض بمثل مسيون واما انه وارد في كلام الناس على عهد
ابن جنى فانه ايضا حجة لما نقوله من ان هذا الاسم ليس خاصا
بعرب الاندلس. ونظن ان دوزي ربما اخذ رايه في المسألة من هذا
القول المنقول عن ابن جنى في معجم ياقوت، بالاستناد الى كلمة لابن
الخطيب وردت في ترجمته لابن حفصون في الاطاعة وهي قوله: «ثم
انس - بها - يعني قرية طرجيلة عمر حفصا وفخم ، اي كبُر
فقبل حفصون» . وفاعل أنسل هو جده جعفر المذكور عنده قبل .

(2) المصدر نفسه 518.

(3) خزانة الادب ج 3 ص 593.

القصار، صوفى من اهل نيسابور(4)، حمدون بن اسماعيل ، من
ندماء المتوكل(5) ، ابن حمدون الكاتب صاحب التذكرة(6)، وحمدون
كثير فى اسمائهم فلا نطيل به ، حمدونة بنت الرشيد وقد سبق
ذكرها . ابن سمعون، واعظ بغدادى من اهل القرن الرابع ضرب
الحريرى به المثل فى الوعظ فى مقاماته(7)، ابن سمعون "آخر فلكى
من اهل القرن الثامن(8)، ابن ابى عصرون فقيه شافعى من الموصل(9)،
ابن قاضى عجلون فقيه شافعى من دمشق(10)، ابن غلبون شاعر من
اهل صور(11) وآخر مقرر^٢ من اهل حلب (12) وكلاهما من اهل
القرن الرابع، وهناك غيرهما من المُسمَّين بهذا الاسم. ابن حكيم،
هو القضاعى صاحب احاديث الشهاب (13).

(4) الاعلام ج 2 ص 305.

(5) المصدر المذكور فى الصفحة نفسها .

(6) وفيات الاعيان ج I ص 516.

(7) المصدر المذكور ج I ص 492.

(8) الاعلام ج 6 ص 221.

(9) الوفيات ج I ص 255.

(10) الاعلام ج 7 ص 116.

(11) الوفيات ج I ص 308.

(12) الوفيات ج I ص 462.

(13) الاعلام ج 4 ص 316.

سمنون الموسوس من الصوفية الموليين(1)، زهرون بن حيون في نسب ابي اسحاق الصابي الكاتب الشهير(2)، سعدون المجنون ابو عطاء من الصوفية الموليين(3)، واسرة سعدون بالعراق معروفة منها عدة شخصيات، عيذون، جد ابي علي القالي(4) ابن سحنون طبيب من دمشق(5)، ابن حسنون محدث(6) ابن عيسون محدث كذلك(7) ابن خيرون المصري راوى ابن عبد الحكم(8)، وآخر محدث بغدادى وغيرهما(9) ، وجاء فى التاج انهم ستموا فضلون وان عيشون علم لجماعة .

فهذه طائفة من الاسماء تناهز العشرين كلها مما استعمل فى المشرق ، ونقابلها بنظائرها التى استعملت فى المغرب والاندلس فتكاد لا تتجاوز هذا العدد وهى هذه: ابن حفصون ، ابن حمدون للثائرين اللذين سبق ذكرهما. ابن زيدون، ابن وهبون، ابن عبدون

(1) تاريخ بغداد ج 1 ص 234.

(2) الوفيات ج 2 ص 202.

(3) فوات الوفيات ج 1 ص 168.

(4) الوفيات ج 1 ص 74.

(5) فوات الوفيات ج 2 ص 20.

(6) تاريخ بغداد ج 1 ص 356.

(7) المصدر نفسه ج 1 ص 235.

(8) تاج العروس ج 3 ص 196.

(9) المصدر نفسه.

لشعراء معروفين، نزهون الغرناطية الشاعرة، ابن فرحون فقيه مالكي من اهل الثامن، ابن فتحون له ذيل على الاستيعاب لابن عبد البر ابن خلفون من رجال الحديث في القرن السادس، خزرون بن عبدون من ملوك الطوائف، ابن سلحون فقيه مالكي من اهل السابع، ابن يدرون شارح قصيدة ابن عبدون المعروفة بالبسملة او البشامة، سحنون الفقيه المالكي المشهور مؤلف المدونة، ابن حزمون شاعر اندلسي من اهل السابع، ابن غلبون محدث من صقلية من اهل الثالث، ابن غلبون آخر، امير الزاب للفاطميين، ابن عرضون فقيه مالكي من المغرب، ابن رحمون نسبة مغربي متأخر، ابن فرتون من المنتزين بالاندلس في عهد المروانية، وعالم من المغرب .

هاتان لاثنتان تتقاربان في عدد الاسماء التي احتوتا عليها ، وهما مع ذلك لا تبلغان هذا العدد حتى يقع الاغراب نسي بعضها لعدم شهرتها مما يدل على استعمال هذا الاسم في المشرق بالقدر الذي استعمل في المغرب. ويلاحظ كما معنا الى ذلك من قبل ان بعض هذه الاسماء قد استعمل عند عرب المشرق قديما مثل بينون وميسون اللذين هما من اسماء الجاهلية.. والاسم الاخير مما يعرف الجميع انه كذلك اسم لامرأة معاوية التي انجبت له يزيد. وقد كان ذلك قبل افتتاح الاندلس بما لا يقل عن نصف قرن من الزمن.

ومن الطريف اننا نجدهم سموا بهذا الوزن بعض الاماكن مثل بينون المتقدم وحبرون لمدينة الخليل وقيسون لموضع قال في معجم البلدان: بلفظ جمع قيس جمع سلامة وسيحون وجيحون لنهرين

معروفين على القول بعربية هذه الاسماء الاربعة وخودون لقرية
 بضمروت وغينون للقرية التي اقطعها النبي (ص) تيمنا الداري
 وجيرون لمدينة دمشق، ويحسن بنا ان نقف قليلا عند هذا الاسم
 وننقل رأى أبى عبيد البكرى فيه، فانه يقول فى معجم ما استمعجم:
 « (جيرون) بفتح اوله واسكان ثانيه بعده مهمله على وزن
 فعلون او فيعول. قال الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني : نزل
 جيرون بن سعد بن عاد دمشق، وبني مدينتها فسميت باسمه جيرون»
 ويزيد بعد كلام لا غرض لنا به فيقول: «ومن قال وزن جيرون:
 فعلون فهو من لفظ جَيْرَ. ومن قال وزنه فيعول، فهو من جَرَّان على
 الامر اى مَرَّان. وهذا القول اقرب الى الصواب، لانه لو كان فعلون
 لوجب ان يتغير ما قبل النون فى الاعراب، وتلزم النون الفتحة ،
 فتقول هذه جيرونَ ومررت بجيرينَ. قال ابو دھبل:

طال ليلى وبت كالمجنون ومللت الثواء فى جيرون

وقد قيل جيرين ، فيقوى قول من قال: وزنها فعلون،

انتهى كلام البكرى، وهو نفيس سنستأنس به عند ابداء رأينا
 فى الاسماء من هذه الصيغة قريبا ولكن لربط موضوع اسما'
 الاماكن باطرافه نذكر اسما اندلسيا مشابها اختلفت فيه ا نظار الكتاب
 وهو اسم Lanjaron (لانخرون).

هذا الاسم يقع على قرية بناحية غرناطة فيها حة ومياه معدنية
 شهيرة. ويترجه بعض الكتاب خطأ بمين هرون اغترادا بنطق الاسبان
 لحرف الخاء نطقا قريبا من الها، ونظرا للمين بل الميون الكثيرة

الموجودة فيه. ولم يذكره المستشرق الاسباني أسين بلاسيروس في كتابه الذي وضعه في أسماء الأماكن العربية باسبانيا La Toponimia Arabe de España وهو مذكور في مخطوط الاحاطة لابن الخطيب الموجود بمكتبة الاسكوريال (I) اثناء ترجمته لبعض الادباء المنسربين الى تلك القرية، بلفظ الانجرون. فاذا كان العرب هم الذين اطلقوا هذا الاسم على القرية، فانهم يكونون قد سلكوا مسلكهم في تسمية بعض الاماكن بهذه الصيغة هنا وهناك. ويكون اخذه حينئذ من الانجر الذي هو مرساة السفينة، ربما لشبه القرية به في الشكل ، وربما لملحظ آخر. وجمعه بالواو والنون وعدم تغييره لما يذكر بعد.

هذا وكما رأينا فان هذه الاسماء كلها اسما اعلام شخصية جاءت بصيغة جمع المذكر السالم في حالة الرفع لاستيفائها لشروط هذا الجمع الا قليلا منها فيمكن عدة من الملحق به كملبون، على انهم عدوا لجمع المسمى به من الملحق واعربوه اعراب اصله . وبعض العرب يجريه مجرى غيستلين في لزوم الياء والاعراب بالحركات منونة ، وآخرون يجرونه مجرى هرون في لزوم الواو والاعراب على النون غير منونة، ومنهم من يجريه مجرى عربون في لزوم الواو والاعراب بالحركات على النون منونة ، ودون هذا ان تلزمه الواو وفتح النون (X). وبهذه الوجوه التي تجوز فيه يرد قول البكري السابق

(I) انظر السفر العاشر من المخطوط رقم 1673 فانه يقول في

ترجمة عبد الرزاق بن يوسف بن عبد الرزاق الاشعري «من اهل قرية (الانجرون) من اقليم غرناطة .

(2) التصريح ج ل ص 75 - 76.

فى جـيرون ءلو كان فعلون لوجب ان يتغير ما قبل النون فى الاعراب
وتلزم النون الفتحة، ان هذا غير لازم على المذاهب الثلاثة الآتفة الذكر.
والبيت الذى انشده البكرى لابى دهبـل وهو قوله:

طال ليلى وبـت كالمجنون ومللت الثواء فى جيرون

المعروف فى عجزه انه واعترتنى الهموم بالماطرون

والماطرون موضع بناحية الشام جمع ماطر مسمى به فهو ايضا

دليل على المراد .

واذا كانت هذه الاسماء من صيغ جمع المذكور السالم التى
لزمـت الواو فى الاحوال كلها، فان هناك اسماء غيرها من هنا الجمع
جاءت بالياء لازمة وان كانت قليلة فمنها ابن رشدين لاحـد رواة الحديث
وابن حمدين لقاضى قرطبة الذى تزعم حركة احراق كتب الغزالى
وابن شـبيرين لاحـد ادباء المغرب وابن عابدين لاحـد فقهاء الحنفية.

فالتسمية بهذا الجمع على مختلف احواله معروفة عند العرب
من قديم ومنبعة فى جميع البلاد العربية، على تعاقب الازمان؛ كالتسمية
بجمع المؤنث السالم مثل اذرعات وعرفات وان كانت اقل.

وكذلك التسمية بالمتنى كعبدان وحملان وسعدان وحيان
وزيدان وبدران وفضلان وخيران، وحسين والعلمين ونحوها .

والنكتة فى ذلك قصد التعظيم كما قالوا فى قوله تعالى (قال
رب ارجعون) جاء فى تفسير الكشاف لهذه الآية ما نصه و خطاب
الله بلفظ الجمع للتعظيم كقوله: فان شئت حرمت النساء سواكم . .
وقوله: الا فارحمونى يا اله مجـد) فاستعمال صيغة الجمع فى المفرد

يفيد التعظيم بمجردة في العربية، الا ترى انهم يقولون في نون الجمع اذا عبر به عن المفرد انه نون المعظم نفسه ؟

وهذه هي النكتة التي خفيت عن صاحبنا دوزي فاضطر الى اتخاذ السلام باستعارة قاعدة التكبير في اللغة الاسبانية الموصول اليها . . وهو بصفته اجنبيا عن اللغة العربية وتفهم دقائقها معذور في ذلك. ولكن ابناء الضاد الاصلا لا عذر لهم اطلاقا في الغفلة عن ذلك وهم حريون ان يصححوا اغلاط الاجانب فيها لا ان يتبنوها ويمجبوا بها .

ولا يعترض علينا بقولهم «كل جمع مؤنث» فكيف يفيد التعظيم، لان هذا القول انما يقصد به جمع التكسير. اما جمع المذكر السالم فلا يصح اعتباره مؤنثا وهو باسمه وبقسيمه جمع المؤنث السالم صريح وممكن في التذكير. ثم ان المراد بذلك القول حكم لفظي لا تأثير له في معنى الجمعية وهو جواز تانيث الفعل معه او اجرا' الوصف عليه مؤنثا كقوله تعالى (قالت الاعراب) وقوله (اياما معدودة) فما يفهم منه في تهوين شأن الجمع انما هو من استغلال الادبا' لذلك القول وصنعة كلامية لا غير (I).

فقد ظهر من هذا ان اسم خلدون وما اشبهه اسم عربي اصيل، وانه ليس من صوغ عرب الاندلس على صيغة التكبير الاسبانية، وانه

(I) لا يخفى ان الاشارة هنا الى قول الشاعر:

ان قوما تجمموا وبني تحدثوا

لا ابالي بجمهم كل جمع مؤنث

ما سمي به في المشرق والمغرب على السواء، وإن بعض أفراد سمي به في عصر الجاهلية فما بعده، قبل افتتاح الاندلس، وإنه يفيد التعظيم بدلالته الجمعية في الأصل فلا حاجة إلى اصطناع قاعدة لغة أجنبية للوصول إلى هذه الغاية. تلك القاعدة التي يختلف استعمالها في اللغة المنسوبة إليها عن لغتنا العربية التي أريد تطبيقها عليها . وكل ما نقصده هو خدمة لغة القرآن ورفع شأنها بين اللغات حتى تبقى دائما في الطليعة وتغنى أبنائها بمعطياتها الواسعة والله ولي التوفيق.

فهرست

7 مقدمة
11 قصة الادب المغربى فى سطور
19 البيت فى الشعر العربى
27 انور الجندى مؤرخ الادب العربى المعاصر
31 بطاقة الزيارة
37 لما به والفاظ اخرى
53 المعجم العربى، نشاته وتطوره
63 المغرب فى مجمع اللغة العربية
79 هل يفقد الاثر الادبى قيمته باعادة نشره؟
85 لسان الدين ابن الخطيب : الكاتب الساخر
101 بحث فى علم الجنس
113 مالك بن انس، ترجمة محررة
129 رسالة الكاتب ابن ابى الحصال التى نال فيها من كرامة المرابطين
143 هل لفظ سوق استعمال عفى عليه الزمن؟
149 مساهمة المغرب فى تقدم الثقافة العربية
163 السليقة عند العرب المحدثين
179 ابو البقاء الرندى وكتابه «الوافى فى نظم القوافى»
201 ابن الابار وكتابه الحلة السبراء
209 البنيس والفاظ اخرى
223 التفكير فريضة اسلامية واشتات مجتمعات فى اللغة والادب
233 ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر
239 قيم جديدة للادب العربى
245 هل اسم خللون ونحوه مكبر على الطريقة الاسبانية؟

تصحيح الخطأ المطبعي

نلفت الانظار الى بعض الاخطاء المطبعية التي ندرت عن التصحيح وهذا صوابها .

سطر	صفحة	خطأ	صواب
12	5	جهودا	جهود
12	10	اولالفيه	اول الفية
19	17	العدد الثاني	العدد الثالث
22	16	افقارها	اقفارها
23	1	من اكل الصنوف	من قصر منيف
23	2	من قصر منيف	من اكل الصنوف
39	4	الابيات تنسب	الابيات التي تنسب
72	2	امر تضي	مرتضى
93	2	لا تحسن	لا تحس
97	5	بحب	بجب
98	15	لنباهى	النباهى
104		لرد	لفرد
115	12	ما لم	وما لم
121	15	وجهها	وجهها
139	9	انباهم	انياهم
177	16	مهمنا	مهما
216	5	زيره	وزيره
216	20	ورواحه	وروحاته
224	17	يرمى التحليل	يرمى الى التحليل
225	4	اليدن	الدين
249		بكن	بن